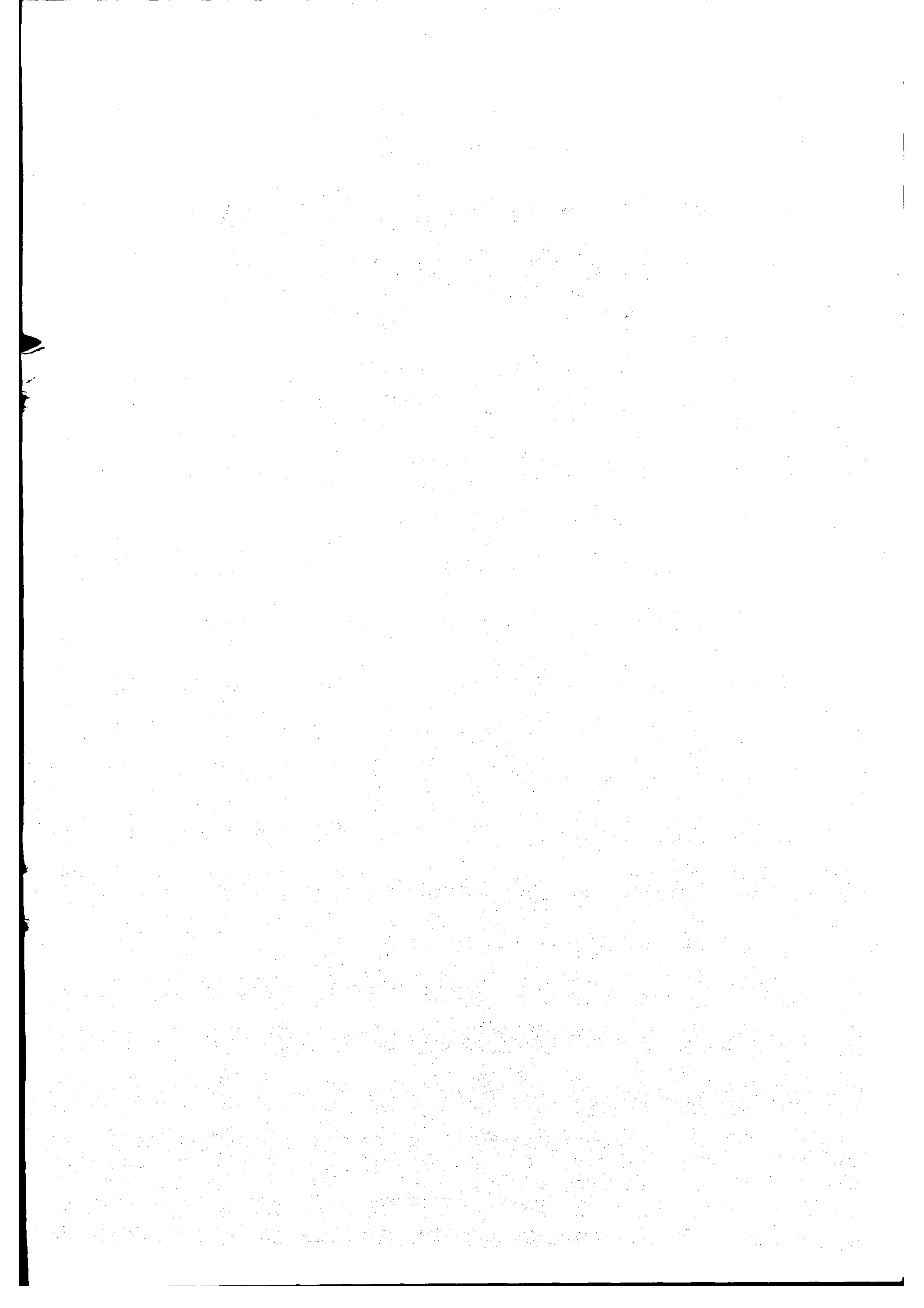
الأدب الإسلامي

بين النظرية والتطبيق

دكتور
علي علي صبح

الجزء الأول

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله تعالى الذى هذب النفوس بمبادئ الإسلام وطهر الأرواح بقدسية القرآن ، وأنار القلوب بنور الإيمان ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ، الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » .

والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ ، أرسله ربه هاديا ومبشراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا : « لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم » وقال تعالى : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وبعد . . . فالأدب الإسلامى تصوير للحياة بما فيها من مصادر الحق والباطل ومظاهر الخير والشر ، ومراتب الحب والجمال والكره والقبح ، بالكلمة والصورة تحث على الحق والخير والحب والجمال ، وتدحض الباطل والشر والكره والقبح لتنافيها مع فطرة الإنسان وقيمه النبيلة .

ومن هنا تكون مسئولية الكلمة والصورة فى الشعر بفنونه والنثر الأدبى بأنواعه، تلك المسئولية التى تجعل منهما أداة حية وقوية ؛ لتهذيب النفس ، وترقيق المشاعر ، وترهيف الإحساس وعمارة الوجدان ، كما تجعل منهما أيضاً أداة بناءة وجادة فى غرس المبادىء الإنسانية والقيم النبيلة فيها ، لذلك كان من الضرورى أن تحمل الكلمة والصورة فى الأدب قيما فنية وقيما إنسانية .

فأما القيم الفنية تنبنى على أصالتها وعراقتها وصحتها وسلامتها وفصاحتها وبلاغتها ومذاقها الفنى وحيويتها وسيرورتها وحسها اللغوى والواقعى فى قربها وإلفها وتآلفها .

وأما القيم الإنسانية فتعتمد على أساسين كبيرين وهما : المشاعر الذاتية الوجدانية ، والقيم الخلقية ، وكلاهما قوام الإنسان وحياته :

فالمشاعر الذاتية الوجدانية التى يعبر فيها الأديب عن ذاته ووجدانه سواء أكانت مشاعر الحب الطاهر العفيف ، لا الحب المزيف ولا تصوير الجنس الفاضح ، أم كانت مشاعر البغض والكره ، بلا إسفاف ولا قبح ولا فحش أو سباب ، ولكن لبيان أسباب البغض ومظاهر القبح لتصحيحها وإعادتها إلى مقاييس اتزانها ، بما يتناسب مع طبيعتها الجميلة التى تقوم على الحب والتودد والسمو والطهر ؛ فالحب العفيف الطاهر يسمو بالعاطفة والمشاعر ، ويهذب الشعور والوجدان ويصفى الروح ويهذب النفس . والكره هو الذى تشمئز منه النفس وتنفر منه الأحاسيس بما لا يتناسب مع فطرتها الطاهرة المستقيمة : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وتبادل هذه المشاعر الذاتية السامية بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين

مظاهر الطبيعة أيضاً هو صدى للأخــلاق والقيم التى ينشدها فى حياته وهو ذاته مادعا إليه الإسلام ونمـاه فى أعماق النفس يقول النبى ﷺ

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ».

فالأدب الذى يصور هذه المشاعر وتلك الوجدانات هو الأدب الإسلامى؛ لأنه يرقى بمشاعر النفس ويسمو بأحاسيسها.

والقيم الخلقية فى الأدب بفنونه وأجناسه تبنى النفس على الخلق الفاضل ، خلق القرآن الكريم والسنة الشريفة، وتنمى فيها القيم النبيلة التى حثت عليها الشريعة الإسلامية ، وذلك فى صورة تتراسل بالوحى والإشارة لا بالتصريح المباشر ؛ بلا خطابة ولا صخب ولا جلبة ، وبلا قسر ولا إجبار ، وتلك الغاية الخلقية هى قوام الإنسان وكيانه فى أرجاء الدنيا لبنائه بناء أخلاقيا جادا وتكوينه تكويناً صالحا ، وهو ما دعا إليه دين الإسلام بعالميته وشموله قال النبى ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وبذلك يتصدى الأدب الإســلامى بعالميته للأدب الهابط بمذاهبه الأدبية المختلفة التى لا زالت بالانحراف تهدم ولا تبنى خلقا وبتصوير الشر تدمر ولا تقيم إصلاحا؛ مما يتناقض مع الفطرة الإنسانية المستقيمة : « وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ».

وبتلك الطاقات البناءة للكلمة؛ لا المدمرة المسمومة ؛ والشحنات النبيلة للصورة؛ لا المخربة المزيفة من القيم الفنية والقيم الذاتية والقيم الخلقية تتحقق عالمية الأدب الإسلامى ؛ فيتسع للقيم الإنسانية بشمولها وعمومها فتحفظ على الإنسان حريته وكـرامته ، وتسمو به إلى منزلته التى

تسامى بها عن سائر المخلوقات : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .. إلى قوله تعالى : وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . .

وبذلك يتجه الأدب فى ظلال عالمية الإسلام لبناء خير أمة أخرجت للناس : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » والله تعالى أسأل أن ينفع به والله ولى التوفيق .

على على صبح

ربيع أول ١٤٠٨ هـ

نوفمبر ١٩٨٧ م

الفصل الأول

مفهوم الأدب الإسلامى

يتميز الأدب من بين العلوم والفنون الأخرى كالرسم والنحت والتصوير « الفوتوغرافى » وغيره بخصائص لا توجد فى غيره ؛ وتجمعها غايتان كبيرتان ، وهما :

١ — التأثير على النفس والوجدان .

٢ — الإقناع للعقل والفكر بالقياس والبرهان الحسى .

وما عدا الأدب ليس له إلا غاية واحدة ، فالعلوم غايتها الإقناع بالأدلة والبراهين العقلية والمنطقية فقط ، والفنون الأخرى كالرسم وغيرها لها غاية واحدة فقط ، وهى التأثير بالاستمتاع الوقتى المحدود بقدر الرؤية للمنظر أو التمثال أثناء التمتع بالنظر والعين وتأسيسا على ذلك تميز الأدب بكثرة معابره ووسائله التى تجيد الوصول إلى الغايتين السابقتين ، وهذه الوسائل هى منافذه المتعددة التى تستقبل الأدب وهى : العاطفة — والوجدان — والشعور — والإحساس بالحواس الكثيرة — والخواطر — والعقل — والخيال .

بينما العلوم ليس لها إلا طريق واحد فقط للإقناع وهو العقل وكذلك الفنون الأخرى ليس لها إلا معبر واحدفقط ، فالرسم والتصوير والنحت وسيلته للتأثير هى النظر والرؤية بالعين ووسيلة الموسيقى هى الأذن والسمع .

بهذا تميز الأدب بفنونه عما سواه، وصار ولا زال أخطر المعارف تأثيراً وإقناعا فى النشاط الإنسانى، وما دام الأدب قد تميز بهذه الخطورة فالواجب علينا أن نتعامل معه بحذر شديد، فالخطر الداهم المدمر حين يساء استخدام الأدب، فيوجه فى غرس الشر ونشدان القبيح، وحينئذ يكون أداة للهدم والتدمير، وحينما يستخدم الأدب لنشر القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة يبنى المجتمع ويسمو به إلى مدارج الرقى والتقدم فالقصة المعاصرة التى تقـــوم على التغنى بالجنس ووصفه للمكشوف وتصويره الهابط وانحلاله خلقيا، ليست كالقصة التى تقوم على تمجيد القيم الفاضلة، وتصوير الحضارة الإسلامية فهى تبنى جيلا قويا أصيلا يحافظ على أمجاده وتراثه.

هذا ما أقصده من خطورة الأدب إيجابا أو سلبا، وفى ضوء هذه الخطورة يتحدد مفهوم الأدب الإسلامى، وعلى النقيض يتحدد مفهوم الأدب الهابط المنحرف، فإن استخدمت الكلمة استخداما نافعا صالحا وجادا وبناءاً فى الأدب، كان أدبا إيجابيا، وأن استخدمت الكلمة استخداما خبيثا ومنحرفا كان الأدب سلبيا مدمرا، ومفهوم النفع والإصلاح والجدة والبناء يختلف من أمة إلى أمة ومن بيئة إلى أخرى فهذا المفهوم فى أمتنا الإسلامية له معالم تختلف عن مفهوم الأدب الهابط فهو ينشر القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، ويبنى المجتمع ويسمو به، وإذا كان النقاد القدماء جعلوا الأدب الإسلامى قاصراً على أدب عصر صدر الإسلام والعصر الأموى؛ فإننا لا نفرق بين عصر وعصر حتى العصر الحديث فى مفهوم الأدب الإسلامى، فشوقى شاعر إسلامى. وحسان ابن ثابت، ومصطفى صادق الرافعى أديب إسلامى، والإمام على بن أبى طالب

بليغ من أعظم بلغاء الأدب الإسلامى . . والمهم أن يكون مضمون أدب الأديب ـ شعراً أو نثراً ـ أخلاقاً وقيما إسلامية جليلة .

حقيقة الأدب الإسلامى :

هى التجربة الشعورية التى تنبع من الوجدان والخواطر المفعمة بالقيم الإسلامية فى بناء فنى يعتمد على وسائل التأثير والإقناع : من الألفاظ الفصيحة ، والأسلوب البليغ ، والنظم الدقيق والتصوير المحكم بالخيال والعقل معاً ، والاتساق فى الإيقاع المتدفق بأشكاله المتعددة سواء أكان وزنا وإيقاعا فى الشعر ، أو نمواً وتطورا فى الأحداث كالقصة والأقصوصة ، أو قصراً وبلاغة فى العبارات والجمل كأنواع المقالة الأدبيـــة .

وبهذا المفهوم تتحدد معالم الأدب الإسلامى وأسسه على النحو التالى :

١ ـ التجربة الشعرية إزاء موقف إنسانى معين .

٢ ـ الخواطر والأفكار التى تمتد جذورها إلى شريعة الإسلام .

٣ ـ العاطفة الصادقة التى تعبر عن إخلاص الأديب وصدقه .

٣ ـ اللفظ الفصيح الصحيح المجرد من الخطأ واللحن والسوقية والعامية .

٥ ـ الوجدان المفعم بالقيم الإسلامية الثرى بخلق القرآن والسنة .

٦ ـ الأسلوب البليغ والنظم الدقيق ، الذى يتخذ مثله الأعلى القرآن والسنة .

٧ ـ التصوير الأدبى المحكم بالخيال والعقل معاً ، فلا يترك العقل الخيال منطلقاً فى جموحه ومبالغاته ، ولا يترك الخيال العقل يعتمد على

مقاييسه المجردة وبراهينه الجافة المترتبة على المقدمات والمسلمات ، وإنما يتعاون العقل والخيال معاً فى توازن واتزان لصوغ الصورة الأدبية المتنوعة من استعارة وكناية وتشبيه ومجاز ، أو غير ذلك من تقديم أو تأخير ، وتعريف أو تنكير ، واسمية أو فعلية وما شابهه من أبواب « علم المعانى » وروعة النظم .

٨ — الإيقاع والموسيقى ، وهذا يختلف حسب اختلاف الفنون الأدبية ؛ فالموسيقى فى الشعر تنصرف إلى الوزن العمودى من البحور العروضية والقافية . والإيقاع فى القصة والأقصوصة والمسرحية النثرية وفن السير الأدبى ينصرف إلى جمال النسق فى التعبير ، وتسلسل الأحداث ونموها وتطورها تطورا واقعيا ، يترتب الحدث على الحدث حتى تتأزم الأحداث فى العقدة والأزمة مما يدفع القارىء إلى تشوق الحل واستعجاله . والإيقاع فى المقال الأدبى ينصرف إلى روعه التصوير الأدبى ، وقصر الفقرات والجمل ، ووضوح المعانى وجلاء الأفكار .

والمفهوم للأدب الإسلامى على النحو السابق يلزم منه ارتباط الأدب بمضمون معين يستمد روافده من التشريع الإسلامى وهذه قضية على جانب كبير من الأهمية فى تحديد نظرية الأدب الإسلامى لضرورة مناقشة عدة قضايا ، لابد من التعرف على خصائصها ، وارتباطها بالأدب وهذه القضايا هى :

١ — التجربة الشعرية فى الأدب الإسلامى .

٢ — التمييز بين التقليد والتجديد والأصالة والعراقة والمعاصرة ومواقف المستشرقين والمستغربين من ذلك .

٣ ـ الالتزام والحرية والتحرر وموقف المستشرقين والمستغربين من ذلك .

٤ ـ المناسبات الأدبية .

وبتوضيح هذه القضايا والوقوف على معالمها ومناقشتها وتفنيد آراء المستشرقين والمستغربين حولها ورد دعواهم الباطلة تتجلى نظرية الأدب الإسلامى وتتضح معالمها الأدبية وأسسها الفنية .

أولا : التجربة الشعورية :

والتجربة الشعورية فى الأدب الإسلامى لها خصائصها التى تتميز بها عن التجارب الشعورية العامة ، فهى وإن اتفقت معها فى جوانب ، فإنها تختلف عنها فى جوانب أخرى .

فأما الجوانب التى تتفق فيها التجربتان ، أنهما تحدثان نتيجة لمفجر خاص عن نفس الأديب ، وهذا المفجر إما أن يكون فكرة . أو حدثا أو مشهداً ، أو فاجعة ،أو إعجابا . أو تقديراً ، أو تأملا ، وما أشبه ذلك .

وأنهما معاً نتيجة افتعال لهذا المفجر ، يتجاوب مع العاطفة القوية التى تتخذ الشكل المناسب للمفجر ، والغرض الأدبى الذى يتلاءم معه .

وأن موطنهما واحـــد وهو نفس الأديب حين تتحرك الخواطر والمشاعر من منطقة اللاشعور فى النفس إلى منطقة الشعور موطن العقل والخيـال .

وأما الجوانب التى تختلف فيها التجربتان : التجربة فى الأدب الإسلامى والتجربة فى الأدب العام ، فتكون على النحو التالى :

١ — كل ما يتصل بالتراث الإسلامى العربى فهو غنى بعلوم الإسلام ومعارفه، وحضارة الشريعة وقيمها، وثراء اللغة وعلوم الاشتقاق والبلاغة والعروض والقافية، التى ترجع فى النهاية إلى المصدرين الكبيرين: القرآن الكريم والسنة الشريفة.

أما حقل التجارب الأدبية العامة فهو عامر بغير ذلك من الثقافات والمعارف الغربية عن الإسلام، وعن لغته العربية لغة القرآن الكريم كما هو الشأن عند المستشرقين وتلامذتهم من العرب الذين كانوا ولا زالوا أبواقا لهم فى عالمنا العربى والإسلامى، أو كالشأن فى المستغربين الذين طعموا من فتات الغرب وفضلاتهم الزائفة، وكرعوا من سمومهم القاتلة ليكونوا جميعاً وسيلة من وسائل الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين فى العصر الحديث.

٢ — الخيال متزن ومتوازن فى الأدب الإسلامى؛ لأنه مشدود إلى عقل المسلم، يضبطه ويوجهه ويسدد خطاه، ويحد انطلاقه، فليس خيالا جموحا ولا محلقاً فى برج عاجى بعيد عن الحياة والناس، ولكنه خيال يسير مع العقل جنباً إلى جنب، ليعيش مع الواقع ويساير الناس فى اتجاهاتهم، ويتجاوب معهم فى قضاياهم ومشاكلهم.

لكن الخيال فى التجارب العامة قد يكون شروداً ينطلق بصاحبه إلى آفاق بعيدة عن الحياة والناس، ويجعل الأديب من طبيعة أخرى فوق الأحياء جميعاً، كما جنح بالشعراء الغربيين فى مذاهبهم: «السيريالية»، و«البرناسية» وغيرها من المذاهب التى تجافت مع الواقع والناس.

٣ — مقياس الصدق الفنى أيضاً يختلف فى التجربتين، فالتلاؤم فى تجربة الأدب الاسلامى يتم بين المشاعر والعواطف والخواطر، وبين البناء الفنى للنص الأدبى القائم على:

ـ اللفظ العربى الفصيح والصحيح ، والأسلوب المحكم والنظم الدقيق

ـ الصورة المتوازنة الموحية القوية .

ـ المعانى والأفكار والأغراض التى تنبعث من القيم الإسلامية فى شتى المجالات بعد امتزاجها بوجدان الشاعر وعواطفه .

ـ الإيقاع والموسيقى العمودية التى نبعت من تراثنا العربى الأصيل.
بينما الصدق الفنى فى التجارب الأدبية العامة غير ما سبق ؛ فالتلاؤم فيها قد يتم بين المشاعر والخواطر والعواطف وبين البناء الفنى للنص الأدبى الذى قد يتصف بما يأتى :

ـ اللفظ العامى الخاطىء الملحون والأسلوب المبتذل الركيك .

ـ الصور الجنحة المسرفة فى المبالغة والإغراق .

ـ الإيقاع الهابط مثل الشعر الحر وشعر التفعيلة .

ـ المعانى والأغراض الهابطة عن القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة كالإلحاد والبوذية والمارقة والمادية المسرفة .

ومع ذلك يتحقق الصدق الفنى فى التجربة ، لأن هذه الأخطاء والسقطات تتفق تماما مع حقل الشاعر فى الأدب العام فى مشاعره ووجدانه ، ولا حيلة له فى هذا الأمر ، لأنه يفرغ ما فى جعبته ويعبر بصدق عما فى نفسه .

هذه هى أهم خصائص التجربة فى الأدب الإسلامى كما أراها لكى يتميز أدبها عما سواه من الأدب العام ، وبذلك تكون له شخصيته المتميزة التى يستقل بها ، لنقيم أدباً إسلامياً جاداً ، يكون له دور كبير فى أداء رسالته نحو شريعة الإسلام ونشرها والدعوة إليها والجهاد فى سبيلها ، وتثبيت القيم الفاضلة والخلق الإسلامى لتتمكن من قلوب المؤمنين .

ثانياً : بين الحرية والالتزام وموقف المستشرقين والمستغربين :

لكى تتضح نظرية الأدب الإسلامى ومعالمها فى العصر الحديث كان من الضرورى أن نوضح مدى ارتباطه بتراثنا العربى الإسلامى القديم، ومدى تجاوبه معه ؛ والتزامه بقواعده وأصوله وأسسه، أوتحرره من كل ذلك ؛ وهذا يؤدى إلى توضيح الموقف من التقليد ؛ والتجديد والأصالة ؛ والعراقة والمعاصرة والحداثة.

ويقتضى تحديد علاقة الأدب الإسلامى بالعصر ومعاصرة الأحداث الإسلامية وصداها فيه ؛ وهـــذا يؤدى إلى توضيح قضية الالتزام والحرية والتحرر ؛ وقضية المناسبات الأدبية.

وفى هذه القضايا دس المستشرقون أنوفهم كعادتهم وتبعهم تلامذتهم من العرب المستغربين ؛ ليدلوا برأيهم فيها بنظرات مغرضة مسمومة تطل منها العداوة والحقد على الإسلام ؛ وهذا أيضاً يقتضى تعرية مواقفهم وتجلية الأخطاء فى آرائهم ووجهات نظرهم المغلفة المدمرة .

١ — التقليـــد :

فى التراث العربى الاسلامى أدب إسلامى غزير بشقيه الشعر والنثر الأدبى ؛ يصور الغزوات والفتوحات الإسلامية مثل شعر عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت الأنصارى وكعب بن مالك ؛ وكعب بن زهير ؛ وعمورية أبى تمام وغيرها . ومن النثر الأدبى أحاديث الرسول ﷺ وخطبه وخطب الصحابة رضوان الله عليهم ووصاياهم المتعددة الأغراض والفنون مثل وصية عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما حين وجهه على رأس الجيش الاسلامى فى فتوحاته ؛ وغيرها من الصور الأدبية التى تعبر عن قيم التشريع أو الحضارة الإسلامية ؛ وقد اتسع

لها الشعر والنثر الأدبى فى مختلف العصور : فى العصر الأموى والعباسى والدويلات وفى خلال الحكم العثمانى للأمة الإسلامية .

وحينما يلتزم الأديب هذا الأدب الإسلامى فى التراث القديم ويسير على نهجه مقلداً ، فهل يكون عمله الأدبى تقليداً ؟ هذا يحتاج إلى تجلية وتوضيح .

فالتقليد الأعمى ، الذى يجعل الشاعر يدور فى فلك التراث القديم بلا تفاعل ومشاركة بالوجدان للأحداث المعاصرة ، وبلا تجاوب مع أصدائها وإنما يقوم بنقل القديم فى أسلوب هابط ، يهيم فيه بالزخرف والتكلف والتصنع ، مع ضحالة الفكر وضعف المعنى وغموضه ، فهذا الأدب والشعر مرفوض فى الأدب الإسلامى الحديث ، وهو التقليد الأعمى الذى لا نقبله فيه بحال وسماه العقاد : التقليد للتقليد كما سيأتى .

وإذا كان التقليد محكما يتبع فيه الأديب منهج السابقين ، فيتناول المعانى بأسلوبهم وخيالاتهم ، لكنه يفيض عليها من شعوره إذا كان العمل الأدبى شعراً ، أو يقوم بالتنسيق والتبويب مع نفس المعانى والأساليب إذا كان العمل الأدبى نثراً ، فهذا مقبول فى الأدب الإسلامى الحديث وسماه العقاد التقليد المحكم ، وذلك مثل قصيدة البارودى « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » فهى شعر إسلامى يصور سيرة الرسول ﷺ منذ ولادته حتى وفاته ، عارض فيها الشاعر بردة البوصيرى ، وهى وإن كانت من شعر المعارضات والتقليد ، لكنها معارضة قوية للشعر القوى ، وتقليد محكم أطلت فيها شاعرية البارودى ، ودلت على قدرته فى صياغة الشعر .

ويميز العقاد بين مراحل تطور الشعر عند البارودى فيقول أولها : دور التقليد الضعيف ، أو التقليد للتقليد ، وثانيها دور التقليد المحكم

أو التقليد الذى للمقلد فيه شيء من الفضل . وشيء من القدرة . وثالثها : الابتكار الناشيء عن شعور بالحرية القومية ، ورابعها : الابتكار الناشيء من استقلال الشخصية أو من الشعور بالحرية الفردية .

وعلى ذلك فالتقليد المحكم فى الأدب الإسلامى الحديث للتراث القديم ليست مرحلة مرفوضة رفضاً كاملا ؛ وإنما يمثل فى نظرنا المرحلة التى تسبق التجديد والأصالة والمعاصرة ؛ ولها ميزانها النقدى ، الذى يكون دون المستوى المطلوب ، ومرحلة التقليد المحكم كان لا بد منها فى أدبنا الإسلامى .

رأينا أن قضية الالتزام والحرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحديث عن التجديد والأصالة والعراقة والمعاصرة ، وهذه المصطلحات فى الأدب والنقد تكاد تلتقى فى مفهومها ومعانيها . إلا أن بينها خيوطاً رفيعة هى التى تميز مصطلحاً عن الآخر ؛ ويظهر هذا التمييز فى ميزان المتقابلات ؛ فحينما نذكر التجديد يقابله التقليد ، وحينما نذكر الأصالة يقابلها الوافد على ذات الشاعر وحضارته الإسلامية العريقة ؛ وحينما نذكر العراقة يقابلها الغريب والمعاصر ؛ ومن خلال هذه المتقابلات يمكن التمييز بين المصطلحات النقدية الأدبية السابقة على النحو التالى كما سبق فى التقليد .

٢ — التجديد :

التجديد أقدم المصطلحات النقدية فى العصر الحديث بعد التقليد ؛ لأنه كان رد فعل للتقليد ، الذى هو أول مراحل التطور فى الأدب الحديث ثم تتابعت المصطلحات الأخرى بعد التجديد مثل : الأصالة ، والعراقة والمعاصرة ، والالتزام والتحرر ، وغيرها .

والتجديد هو تطويع ما يجول فى العصر الحديث بما يتناسب مع الموروث الحضارى عن الحقب السابقة ، فالقديم الصرف ليس جديداً إلا أن استمد الشاعر من روافد القديم ، وعمقها من حياته المعاصرة بما ينداح من هـــذه الروافد ، ويتلاءم معها ، ولا يناقضها ،أويختلف معها ، حتى لا يصطدم مع التيار القـــديم فى روافده وحينئذ يسمى تجديداً .

فالتجديد تطور وبناء ، وليس تقليدا ولا هدما ، وهذا ما قام به النقد الحـــديث ، فقد جعل التجديد يقوم على تطويع القديم ومدى الاستجابة للمعاصر والجديد .

فالمجددون حينما يثورون على القديم لا يرفضونه ، وإنما يرفضون الساقط منه والردىء ، وحينما يهتمون به إنما يعنون بما هوجدير بالبقاء وهم يتطلعون إلى التجديد لأنهم يميلون إلىالتطور والاستحالة ، والجديد يدفعهم إلى الاتصال بالغرب والأخذ عنهم .

وهـــذا قول غير مسلم به على إطلاقه ، فليس معنى التجديد الأخذ المطلق من الغرب ، لأن الحضارة الإسلامية تختلف فى قيمها واتجاهها عن ثقافة الغرب ، التى تختلف كثيراً فى جوانبها .

« ولكن مسار التاريخ العربى والإسلامى يختلف عن مسار التاريخ فى أمم الغرب ، إذن فلا يجب أن يكون حاضر ثقافتنا صورة من ثقافة الغرب بل لا يمكن أن يكون كذلك » .

وهذا أقرب إلى قول بعضهم : « وهذه نتيجة طبيعية إذا سلمنا بأن التجديد تطور واستحالة ، لأن التطور عملية حيوية تسير وفق نمطخاص

بالكائن الحى . وليست نقــــلا عن كائن حى آخر » .

ومن أشكال التجديد فى الأدب الإسلامى ، الذى اتخذ منهجاً جديدا وطريقة جديدة تتناسب مع العصر فى العرض والأداء ، مع الاحتفاظ بالجوهر والقيم فى الحضارة الإسلامية ، ورعايه التراث العربى الإسلامى القديم مثل : كتب فن السيرة التى سايرت عصر التطور والتجديد فى الأدب كما حدث فى عبقريات العقاد : وعبقرية محمد وعبقرية الصديق وعبقرية عمر وعبقرية خالد وغيرها .

وكذلك من الشعر الإلياذة الإسلامية للشاعر أحمد محرم ، فليست مثل خرافات وأساطير هوميروس ، ولكنها تقوم على حقائق الإسلام وبطولات الرسول محمد ﷺ وهــــو وأصحابه رضى الله عنهم ، ومن الشعر الأسلامى الجديد أيضاً الشعر القصصى ، مثل : قصيدة « هزيمة الشيطان » ، وقصيدة « عام جديد » ، وكلاهما من الهجرة الإسلامية للشاعر على محمود طه ، وكذلك الملحمة القصصية : « أمير الأنبياء » للشاعــــر عامر بحيرى ، والملحمة الأسلامية دول العرب وعظماء الأسلام » للشاعر أحمد شوقى ، « ملحمة الجهاد » و « ملحمة النصر فى ١٠ رمضان » للشاعر عمر بهـاء الدين الأميرى ، وغير ذلك كثير فى أدبنا العربى الأسلامى الحديث ، الذى اتسم بطابع التجديد ، لكنه ما زال موصولا بالتراث العربى والإسلامى وصلا تاماً ومرتبطا به ارتباطا وثيقا .

ولا يعنينا قول المستشرقين ومن تبعهم من العرب المستغربين أن هذه ليست ملاحم ، ولا قصصاً ، ولافناً للسيرة الأدبى لأن الخيال لم يسطر عليها ، ولم يخرج بها عن واقعها فى الوجود التاريخى ، بل غرب الخيال الأسطورى عنها ، وسيطرت الحقائق على هذه الفنون الأدبية ، لا يعنينا

هذا الاتهام فى شىء ، ولا يعوقنا عن المضى فى التجديد على النحو الذى يتناسب مع قيمنا وحضارتنا الإسلامية العريقة ، التى من أجل خصائصها أنها تعتمد على الحقائق لا الخرافات والأساطير والأوهام ، لأن لكل مجتمع اتجاهه ولكل حضارة سماتها ومموهاءوخاصة إذا كانت الحضارة هى للأسلام ، التى جاءت لتبنى الأمة الإسلامية فى كل عصر، وفى كل جيل .

٣ — الأصالة :

هى التعبير عن ذات الأديب بالأصالة عن نفسه ، حينما يعبر عن ذاته ونفسه ، لكى يكون أدبه أدبا أصيلا لابد أن تتشكل الذات والنفس فى بناء فردى وقومى وإسلامى حضارى يساير كل عصر، يترسب فيهما ، وتمتزج بهما ، فلا تنفك عنها ، حتى تصير الذات والنفس هى القيم ذاتها ، فإذا عبر عن ذلك فى شكل أدبى صار فناً أدبيا أصيلا ، وصح أن نطلق على منشئه بالشاعر الأصيل ، وعلى أدبه بالأدب الأصيل ، هذا هو معنى الأصالة وهو موصول بالمعنى اللغوى للكلمة كما وردت فى معاجم اللغة : فالأصل : بمعنى أسفل كل شىء ، مجد أصيل : أى ذو أصالة .

وقد اختلف النقاد حديثا منذ الخمسينات فى تحديد مفهوم الأصالة فتارة يفسرونها بعدم التقليد ، وتارة باجتماع الذاتية والشخصية .

فالدكتور إبراهيم السامرائى يرى أن الأصالة هى الابتكار ، وعدم التقليد ، حين يوضح أصالة الشاعر الجواهرى فيقول : « وربما لا نعدم أن نجد فى شعر الجواهرى آثار هذه المدرسة الفنية على الرغم من أصالة الجواهرى فى الشعر وقدرته على الابتكار فى نطاق الشعر المعروف » ويقول فى أصالة الزهاوى : « الزهاوى يعتمد فى ثقافته على الثقافة الشرقية العربية الإسلامية وعلى ما جد من أفكار ونظريات فى العلم الحديث المنقول إلى

العربية ، ومن هذا المزيج تكون فكر الزهاوى ، لكنه ظل محتفظا بطابع الأخذ والتبعية ، مفتقرا إلى الأصالة والطبع » .

وأما توفيق الحكيم فحينما يفسر الأصالة بمعنى الابتكار بعد النقل والمحاكاة وهى التقاليد ، فيقول عن فن التمثيل العربى هو : « المسار الطبيعى لكل فن بشرى يبدأ الفن دائما من النقل ، وينتهى إلى الأصالة يبدأ من المحاكاة وينتهى إلى الابتكار » .

وحينما يفسر الأصالة بالعراقة : « وأن ما يسمونه العراقة فى شعب ليس أفضاله المتوارثة من أعماق الحب ، وإن الأصالة فى الأشياء والأحياء هى ذلك الاحتفاظ المتصل بالمزايا الموروثة كابرا عن كابر وحلقة بعد حلقة ، وهكذا يقال فى شعب أو رجل أو جواد ، وهكذا يقال فى فن أو علم أو أدب . عراقة الأدب هو طابعه المحفوظ المنحدر إلينا من بعيد » .

ولست متفقا مع الحكيم فى إطلاق الأصالة بمعنى العراقة أو تساويها فى المعنى تماما ، بل الأصالة تشمل العراقة من جانب واحد فقط ، وتفترق عنها فى جانب آخر ، فأما الجانب الذى يلتقيان فيه حينما تستمد أصالة الشاعر روافدها من القيم النبيلة ، والفضائل المتوارثة من الماضى العريق وأما الجانب الذى تنفصل فيه العراقة ، ولا تلتقى مع الأصالة ، حينما تستمد أصالة الشاعر روافدها من تراث الأمة المنحل ، فلا ينبغى أن نصف هذا العمل الأدبى بالعراقة ، وإن صح أن نطلق عليه أدبا أصيلا وعلى هذا فالعراقة أخص من الأصالة ، وليست هى مساوية لها تماما كما ذكر ذلك الحكيم .

وفسر العقاد الأصالة بمعنى الابتكار الناشيء من شعورين : أحدهما : الشعور بالحرية القومية . وثانيهما : الشعور الناشيء عن استقلال الشخصية : أى الشعور بالحرية الفردية .

فالعقاد يميز بين الفردية والقومية ، ويجعل كلا منهما مرحلة ، وتكون الفردية عنده هى قمة الابتكار ، وليس التمييز هنا من باب الاستبدال والمغايرة ، ولكن من باب الاستحالة والتطور ، بحيث يمتزج الاتجاه القومى بذات الشاعر ، فلا تموت وتنعدم ، وإنما تتحول إلى فردية وشخصية على حسب تعبيره ، أو إلى ذاتية على أساس تعبير الدكتور محمد حسين هيكل حين عبر عن الأصالة بقوله : « بروز الذاتية » .

فالفردية عند العقاد هى قمة الأصالة والابتكار ، وهى تجمع بين التراث القومى والمؤثرات الوافدة ، على أساس من الاستقلال والاعتداد بالرأى . يكشف العقاد عن هذا بقوله :

« وكان الأدباء المصريون ، الذين ظهروا فى أوائل القرن العشرين يعجبون بهازلت ويشيدون بذكره ، ويقرءونه ويعيدون قراءته يوم كان هازلت مهملا فى وطنه مكروهاً من عامة قومه ، لأنه كان يدعو فى الأدب والفن والسياسة الوطنية إلى غير ما يدعون إليه ، فكان الأدباء المصريون مبتدعين فى الإعجاب لا مقلدين ولا مسوقين ، وأعانهم على الاستقلال بالرأى ، عندما يقرءون الآداب الأجنبية أنهم قرأوا أدبهم قبل ذلك وفى أثناء ذلك ، يدخلون عالم الآداب الأجنبية مغمضين أو خلواً من الرأى والتمييز » .

وهذا نفسه هو ما اتجه إليه الدكتور شكرى عياد حينما وضح مفهوم الأصالة ، ولا يفترق كثيراً عما وضحه العقاد سابقاً من أصالة

الأدباء المصريين حين تأثروا بالتيارات الأجنبية ، فقد احتفظوا بتراثهم العربي القديم، وقرأوا وقرأوا أدب هازلت بعد أن تمكنوا من تراثهم، وخرجوا برأى مستقل هو فى نظر العقاد « الأصالة » بعينها ، وهذا هو نفسه مفهوم الأصالة عند الدكتور شكرى حين يقول عنها : « أنها تمت بنسب قريب إلى الموقف الحضارى ، الذى تعيشه الأمة العربية الآن بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها . . ويقول أيضاً فى مكان آخر عن مفهومها : « ولكننا نرى أن القومية والفردية صفتان تجتمعان فى الأدب المبتكر بنسب متفاوتة ، والأدب المبتكر يوصف بالأصالة على الاعتبارين فيكون معبراً عن الخصائص القومية للشعب الذى انتج فيه واللغة التى كتب بها ، كما يكون معبراً عن ذات صاحبه ؛ التى تجعل ما ثقفه من تراث لغتـــه ؛ وما أفاده من ثمرات الثقافة الأجنبية عناصر جديدة تذوب فى كيان جديد يختلف عن سابقيه... فإننا نستطيع القول بأن الأصالة تلخص مشكلة الثقافة العربية المعاصرة » .

وواضح أن الأصالة بهذا المعنى الذى اتجه إليه العقاد لا يتفق مع ما نبتغيه من الأصالة فى أدبنا الإسلامى ، لأنهم لا يقصدون بالقومية التى ذابت فى الفردية ، أو الذاتية هى القومية الإسلامية ، وإنما يريدون بها القومية العربية، وهـــذا ما لا يصح أن نطلقه على أصالة الأدب الإسلامى وإنما الذى ينبغى أن يطلق على الأصالة فيه هو ما وضحته منذ البداية ، وهو أن تذوب الحضارة الإسلامية بقيمها ومبادئها السامية فى ذات الشاعر ونفسه ويصير كل منهما مزيجاً من هـذه الحضـارة ، وهى بطبيعتها تساير كل عصر ، وتتجاوب مع كل حين ، لأنها قيم ثابتة صالحة لكل زمان ولكل جيل ، وبذلك نخرج بهذا المفهوم الضيق المحدود للأصالة عند النقاد إلى ما وضحته من المفهوم الشامل العميق الذى يتجاوب

مع المكان والزمان ، والشاعر هنا أيضاً يعبر عن الذاتية أو الشخصية أو الفردية التى يعنيها النقاد ، ولكنها تختلف فى تفسيرها وتوضيح معالمها وأسسها التى تقوم عليها فيما اتجهت إليه ، وهذا التفسير يختلف عما اتجهوا إليه . والأصالة فى الحضارة الإسلامية تختلف عن الأصالة التى يعنيها « فيشته » فى أدب الغرب فيرى أن الأديب الأصيل غير الزائف هو الذى يقف على آداب لغته ، وأن يحيط بعلوم عصره وفلسفته وآدابه ، وعلى قدر ما يبلغ يحقق من الحق والجمال على قدر بلوغه منها . يقول فيشته : « والحق والجمال اللذان هما غاية الأدب بوصفه جميلا ينكشف للناس من صورهما فى كل جيل ، ما لم يكن معروفا فى الجيل الذى سبقه ، أو يختلف عما كان معروفاً فى الجيل الذى سبقه ، وعلى ذلك كان الخلاف فى صور أدب الأجيال المختلفة فى اللغة الواحدة ، وصور أدب الجيل الواحد فى اللغات المختلفة ، ولذلك كان لا مفر لمن يريد أن يكون أديباً حقاً ، أديباً أصيلا غير زائف من أن يقف على آداب لغته هو وقوفاً صحيحاً ، وأنه يحيط ما استطاع بعلوم عصره وفلسفته وآدابه فى اللغات المختلفة ، وكلما كان أكثر إحاطة كان أدنى إلى بلوغ ما فى الحياة والوجود من حق وجميل ، وإلى تبليغه للناس فى صورة أقرب إلى الكمال ، مما أوتى مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه » .

وهذا المفهوم للأصالة فى الأدب الغربى لتحقيق الغاية منها وهى الخير والجمال تختلف فى قيمها ومبادئها عما ننشده من تحقيق الأصالة فى أدبنا الإسلامى ، فلها قيمتها ومبادئها النابعة من حضارة الإسلام لا الحضارة الغربية ، وتختلف أيضاً من حيث الأداة واللغة فلا تعنيها اللغة وإنما تعنيها آداب اللغة ، لتصل إلى الناس فى صورة أقرب إلى الكمال نابعة من مواهبه لا من علمه وعلومه ولا من لغته الخاصة بقومه البليغة . أما الأداة

واللغة فى أصالة الأدب الإســـلامى فهى نابعة من فصاحة اللغـة ودقة مخارجها ولطف أسرارها ، وهذا يقتضى أن يكون الأديب عالماً باللغة العربية وأسرارها وبلاغتهـا ، فلا يعتمد على الموهبـة التى تأثرت بالوافد وحدها ، لأن التأثير قد يكون باللغة الأجنبية مختلطة بالعربية أو يكون باللغة العامية لا الفصيحة ، وهذا ما يقع فيه المستغربون من العرب وغيرهم من المستشرقين ، مثل الدكتور طه حسين فيرى أن التحرر من اللغة فى مجال الأدب أمر معتارف عليه فى الأمم الغربية لأن للدين لغة وللأدب لغة ولهجة أخرى ، وهـــذا القول يتنافى بالتأكيد مع الأصالة فى أدبنا الإسلامى ، لأنها مرتبطة بلغة الإسلام واللغة العربية البليغة الفصيحة انظر إلى قوله :

«وفى الأرض أمم متدينة كما يقولون ، وليست أقل منا إيثاراً لدينها، ولا احتفاظاً به ، ولا حرصاً عليه ، ولـكنها تقبل من غير مشقة ولا جهد أن تكون لهـــا لغتها الطبيعية المألوفة التى تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها فى الوقت نفسه لغتها الدينية الّتى تقرأ بهـا كتبها المقدسـة وتؤدى منها صلواتها ، فاللاتينية مثلاهى اللغة الدينية لفريق من النصارى، واليونانية هى اللغة الدينية لفريق آخر ، والقبطية هى اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هى اللغة الدينيـة لفريق رابع ، وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ، ولا تفهمها ، ولا تتخذ أداة للفهم والتفاهم ، ولغتها الدينية هى اللغة العربية ، ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيماناً بالإسلام وإكباراً له وزياداً عنه وحرصاً عليه » .

فالدكتور طه حسين يرى أن للدين الإسلامى لغته وهى اللغة العربية وللأدب لهجة أخرى ولسان آخر غير العربية ، ولا أدرى أيريد بذلك

غير لغة العرب من اللاتينية التى أحبها أو اللغات الأجنبية الأخرى ، أم يريد لهجة الناس العامية الشائعة ، لتصير هى لغة الأدب المعاصر، لا أدرى ماذا يقصد؟ أحلاهما مر !! . كما يقولون .

٤ — المعاصرة :

والمعاصرة والقدم متقابلان ؛ فإن تجاوب الأديب مع ثقافة العصر واغترف منها بما يحقق رغباته الذاتية ؛ ونبضت تجاربه الأدبية المعاصرة بثقافة العصر ؛ التى يثرى بها تصويره الأدبى ؛ أطلق على هذا الأدب أدباً معاصراً ؛ فقد تجمعت فيه روافد المعاصرة ؛ بعد ان امتزجت بالروافد الأصيلة فى نفسه، واتخذت مجرى واحداً يغذى الحياة والناس بما يتناسب مع عصرهم الجديد ؛ وما يحدث فيه من تطور وتقدم ورقى .

ومفهوم المعاصرة هذا يلتقى مع الأصالة إذا ميز الأديب بين الغث والسمين ليتجاوب السمين مع المخزون الأصيل فى ذات الشاعر وينحى الغث من التيارات المعاصرة ، لأنها لا تنسجم مع أصالته وعراقته .

ويلتقى أيضاً مفهوم المعاصرة مع التجديد حينما يحيل الشاعر التيارات المعاصرة إلى ما يستجيب مع الموروث الحضارى ، فيظهر العمل الأدبى فى شكل جديد ، يجمع بين متطلبات العصر ، لكنها من خلال القيم الموروثة من تراثنا القديم .

وعلى هذا فالمعاصرة محيط زاخر تنبع منه الأصالة والتجديد ، والعراقة والتحرر وغيرها ، لكنها كما رأينا تختلف فيما بينها حين تشكل المأخوذ من هذا المحيط بما يتناسب مع كل مصطلح من المصطلحات السابقة فيصير هذا الأدب أصيلا ، أوجديداً ، أو متحرراً ، أو غير ذلك .

وقد لاحظ الدكتور شكرى عياد احتكاكا أو تصادما بين مفهوم الأصالة ومفهوم المعاصرة فقال : « لقد انتهينا إلى أن الأصالة تتضمن معنى الديمومة والاستمرار ، أما المعاصرة فعلى الرغم من استعمالها المبهم من حيث التحديد الزمنى ، فإن معناها يتضح بملاحظة نقيضها وهو القدم ومن هنـــا يبدو أن المعاصرة تمثل جانب الحركة التقدمية فى مركب الديمومة الذى يكون الأصالة .. إذن فالتصادم الذى يبدو أحيانا بين الأصالة والمعاصرة إنما يرجع إلى نسيان العنصر الحركى فى الأصالة أو نسيان انتماء المعاصرة إلى مركب الديمومة ، وعندى أن خير تحديد للمعاصرة هو البدء بالحاضر ».

ويوم أن تقوم المعاصرة على هدم الأصيل أو القديم كله ، أو هدم الذى يسير فى أصالة على نمط القديم ، تكون على هذا النحو هدماً لا بناء ، وتدميراً لا تطوراً وتجديداً ، وهذا ما وقع فى خطورته دعاة الحداثه والمعاصرة وقبلهم الشاعر خليل مطران ، حينما تفاخر بمعاصرة الشاعر الذى يقوم على أنقاض القديم يقول ما نصه :

« هذا شعر عصرى وفخره أنه عصرى ، وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر ، هذا هو شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ».

٥ — بين الالتزام والحرية وبين التحرر :

التمييز بين مفاهيم التقليد والتجديد والأصالة والمعاصرة يسر كثيراً الحديث عن قضية الحرية والالتزام ؛ وساعدنا أيضاً على توضيح معالم الحرية والالتزام أو التحـــرر ، فكل منها لها ارتباط وثيق بالتقليد أو التجديد أو الأصالة أو المعاصرة .

وقضية الحرية والالتزام تناولها الكثير من النقاد العرب والمستشرقين وقد انتهوا فيها إلى اتجاهين :

أولا :

الأدب الجيد هو مالا يلتزم فيه الأديب بشيء من واقع عصره ولا يرتبط بمشاكله وقضاياه ، بل يعبر فيه عن ذاته ومشاعره متجرداً عما يدور فى الحياة من معالجة لمشاكلها ووضع الحلول لقضاياها العديدة ، وعلى ذلك فلا ارتباط بين الأدب والحياة ، ومن هنا نشأت المذاهب الأدبية الغربية الحديثة «كالرومانسية والسيريالية والبرناسية» ومذهب الفن للفن والأدب للأدب ، فهذه المذاهب تجردت من معالجة المشاكل فى الواقع وعزلت الشعراء عن الحياة والناس وحينئذ يكون الأدب حراً وليس مقيداً ولا ملتزماً .

ثانياً :

ينبغى أن يكون الأدب ملتزماً ، وليس متحرراً كالاتجاه الأول بل ينزل الأديب إلى الحياة والناس ، ليعيش مع مشاكل العصر وقضايا الحياة ، فيتجاوب معها ، وتتردد أصداؤها فى نفسه الثائرة فيصورها ويوجه الناس إليها ، ويشترك معهم فى وضع الحلول لمشاكلها ، ويبحث عن الدواء الناجع لها ، وهذا ما يسمى بالأدب الواقعى ، أو المذهب الواقعى أو الأدب للحياة ، أو الفن للحياة ، أو الأدب الملتزم .

ولكل من هذين الاتجاهين عشاقه ورواده ، ولكنى لست من هؤلاء ولا هؤلاء ، فلا أعترف بالحرية فى الاتجاه الأول بل أسميه تحرراً ولا أتفق مع الاتجاه الثانى فى فهمهم وتفسيرهم للالتزام ، لأنهم جردوه من الحرية للأديب ، ولذلك اخترت عنواناً لهذا الموضوع يدل على مرادى

وهو الالتزام والحرية هما معاً فى مقابل التحرر ، فالالتزام والحرية كل لا يتجزأ ، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر أمام التحرر من الالتزام والحرية معاً ، وهذا ما ينبغى أن يقوم عليه التفسير للأدب الإسلامى فى العصر الحديث فهو أدب يقوم على الالتزام والحرية معاً ويسمو عن « التحرر » ويتجافى معه ، وسنوضح القول فى ذلك حتى يتميز هذان المتقابلان تميزاً فاصلا من وجهة نظرنا .

قبل أن نحدد معنى الإلتزام ينبغى أن نفرق بين الحرية والتحرر : فالتحرر هو الخروج على القيم والأصول ، والتخلص مما يتصل بالتراث القديم ، ومما يمت إليه من أصالة وعراقة ، فيتحرر الأديب من الأسلوب والمنهج والتصوير الأدبى والوزن والقافية فى التراث القديم ، ويتحرر من كل الروابط التى تربط الإنسان بأخيه الإنسان ، ومن كل القضايا والمشكلات التى تربطه بالحياة وبالإنسان ، فالمتحرر ينسلخ من ماضيه ومن حاضره ، ليعيش فى برجه العاجى مستغرقا فى « هيولاته » وأحلامه وآماله وهو يلهث فى سراب إلى سراب ، ويغوص فى أعماق الأوهام والخيالات بلا قيود ولا ضابط ، أو عقل يضبطه ويسدد خطاه ، هذا هو أدب التحرر بسماته وخصائصه .

أما الحرية فهى على نقيض التحرر ، فحقيقة الحرية لا تتشكل إلا فى معيار العقل المضبوط والفكر السديد ، ويوم أن يجمح الخيال ويشرد الفكر ، لا يتصف صاحبه بالحرية ، بل بالتحرر والجنون ، أما إذا انضبطت المشاعر والخواطر والخيالات فى النفس بالعقل والفكر اتسم العمل الأدبى بالحرية ، لأنه تحرر من الطيش والإغراق فى الأوهام وتحرر أيضاً من الجنون والخروج عن المألوف فى نظر العقول والأفهام

ومن هنا كانت الحرية مقيدة بالخيال والفكر السديد، بينما التحرر هو انطلاق عن حدود العقل، وجموح فى الخيال. والجموح شرود فى الأوهام.

والحرية بهذا المعنى جزء لا يتجزأ من الالتزام؛ فإذا قلنا بأن الأدب الإسلامى ملتزم؛ ليس معناه أنه مجرد من الحرية، التى يجب أن تتحقق فى الشاعر عند النقاد؛ بل التزام الأديب فى أدبه معناه: أن أدبه نبع من الحرية الملتزمة بواقع الحياة التى يعيشها الشاعر فى إطار تجاربه الشعرية التى تحررت من الجموح والشرود بالتوازن بين العقل والخيال معاً.

والالتزام بالقيم والقواعد والأصول فى التراث العربى الإسلامى أو الالتزام بوضع الحلول وعلاج المشكلات المعاصرة؛ لا يتحقق إلا من خلال الحرية التى يسدد بها العقل والخيـــال معاً هذه المشاكل؛ لوضع الأمور فى نصابها؛ كالحرية فى عتق العبد الرقيق تُرده إلى نصابه الطبيعى فى الحياة، ليعود إنسانا ملتزماً بقيود الحياة ومعاييرها فى ظل تسديد العقل وحكمته؛ وليس معنى ذلك أنه تحرر من هذه القيود وتلك المعايير وإلا كان خارجاً عن حدود الإنسان الحر إلى صفة الجنون أو التحرر المطلق عن نصاب الإنسانية المتعارف عليها بقيمها وحدودها.

وبهذا المفهوم للالتزام والحرية معاً يجب أن يكون الأدب الإسلامى ملتزماً بمعنى أن له قيمه ومبادؤه وأصوله ومعالمه وأسسه وروافده التى بها يعيش مع الحياة والناس فى قضاياهم ومشاكلهم وأحداثهم ومعاركهم واقتصادهم وجهادهم وسياستهم وعلومهم وتقدمهم وفكرهم وآمالهم وآلامهم ليصورها من خلال هذه القيم ويعالج مشاكلها ويضع لها الحلول، ويوجهها إلى الحق والصواب، ويحدد النتائج ويصور النماذج الإنسانية الرفيعة التى تلتزم بأخلاق الإســـلام وآدابه؛ لكى يكون نموذجاً

ساميا وقدوة صالحة لغيره وهكذا ينبض الأدب الإسلامى بما يجول فى العصر من خواطر وأحداث ومشاهد ووسائل للتقدم والرقى والحضارة ويتخذ من فنونه أسلحة ذات حدين يتوجه بأحدهما إلى المسلمين ليحثهم على التعمير والبناء للأمة الإسلامية وبالأخرى يصد بها أعداء الإسلام الذين يتربصون به الدوائر فى كل حين ، وبذلك يكون الأدب الإسلامى فى التزامه الحر متنوعاً فى أهدافه ، وتحقيق المراد منه :

فيه أدب البطولات الإسلامية والإشادة بأمجاد الأمـــة ، وتاريخها العريق وحضارتها الراسخة مثل ديوان دول العرب وعظماء الإسلام للشاعر أحمد شوقى ، والأدب الإسلامى فى القرآن والحديث والحضارة الإسلامية للمرحوم سيد قطب والأستاذ محمد قطب وغيرهم . وفيه أدب السيرة النبوية والسير للصحابة والتابعين ليكون قدوة شاخصة أمام الجيل المعاصر وكل جيل ، يتخذون منه نبراساً يضىء الطريق مثل ديوان « من وحى النبوة » للشاعر محمد عبدالغنى حسن .

وفيه أدب التشريع والقيم الإسلامية التى جاء بها الإسلام ليطور الحياة ويسير بها قدماً دائماً لتحقيق العزة للإسلام والمسلمين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » مثل : « ديوان الحق المبين » للشاعر خير الدين وائلى وديوان « مع الله » ، « ألوان طيف » للشاعر عمر بهاء الدين الأميرى .

وفيه أدب الأخلاق الإسلامية الفاضلة التى جاء بها الإسلام لتقيم به الأمة صروحها وحضارتها الحديثة ، كما أقام السلف حضارتهم على أساسها ولا زالت شاخصة فى التاريخ على الرغم من تقادم العهـــد بها مثل شعر

شوقى وحافظ وأحمد محرم والرصافى وخاصة فى قصيدته « يقولون » التى يصور فيها حضارة الإسلام .

وفيه أدب التقدم والبناء الاقتصادى والعسكرى والاجتماعى للأمة الإسلامية ، لتكون أقوى الأمم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وخاصة ونحن فى عصر القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، كما قال النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » .

وفيه أدب الاعتزاز باللغة العربية وفصاحتها ، وأنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، والشريعة الإسلامية ، فالحفاظ عليها حفاظ على القرآن وعلى التشريع ، قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وفيه أدب التضامن الإسلامى ووحدة الأمة الإسلامية ، التى بها يتحقق النصر على أعداء الإسلام وخاصة الصهاينة والملحدين والشيوعيين والماديين الغربيين « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وغير ذلك من مجالات الأدب الإسلامى ، التى يلتزم بها فى العصر الحديث فقوة الكلمة مثل قوة السلاح والمال والاقتصاد والسياسة سواء بسواء ، وسنوضح ذلك بالتفصيل عندما نتحدث عن مضمونه الإسلامى وأغراضه وخصائصها وسماتها التى ينبغى أن تتحقق فيه .

أما التحرر فهو مرفوض كل الرفض فى الأدب الإسلامى ، لأنه يتنافى مع قيمه وآدابه وأسسه وأصوله ، ومن أخطر قضايا التحرر على

الأدب الإسلامي قضية آثارها المستشرقون وتبعهم تلاميذهم من العرب المستغربين » ، وتلك ألعوبة مسمومة تبناها المستشرقون وأصولها ونسبوها إلى مذهب أدبي وتقدي معاصر وهو « المذهب الواقعي » وغير ذلك مما سنراه .

ولا هتمام المستشرقين بالعامية واللهجات المحلية المحدودة وحرب اللغة العربية الفصيحة أنشأوا لها المدارس والمعاهد ، والمجلات والجمعيات وألفوا لها الكتب بلغات أجنبية ونقلوها إلى العربية ، ووضعوا فيها القواعد والأصول للهجة العامية واللهجات المحلية ، حتى تكون لغة مشهورة بأصولها وقواعدها .

واهتم الأوربيون بذلك فقد أنشأوا فى عام ١٧٢٧ م مدرسة نابولى للدروس الشرقية باللغة العامية ، وفى عام ١٧٥٤ أنشئت مدرسة فينا فى النمسا للغة العامية العربية ، وفى عام ١٧٥٩ م أنشئت مدرسة باريس للغات الشرقية فى فرنسا ، وحدث مثل هـــذا فى انجلترا وروسيا وألمانيا والمجر وغيرها .

وكان أول كتاب أجنبي بالعامية هو « قواعد اللغة العامية فى مصر » للدكتور ولهلم سبيتا فى عام ١٨٨٠ م ؛ وترجمات بالعامية العربية لمؤلفات شكسبير ، وتراجم للإنجيل بالعامية المصرية ؛ وكتاب « الأكل والإيمان » ورسالة بعنوان « سوريا ومصر وشمال أفريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية » ، وغيرها مما ألفه بالعامية وليم ولكوكس المبشر الانجليزي .

وصنع مثل هذا الصنيع المدمر المستشرق الفرنسي لويس ما سينيون وتبعه الآباء اليسوعيون فى لبنان وسوريا ؛ مثل الأب رافائيل نخلة الذى ألف فى الدعوة إلى العامية ؛ وإلى الكتابة بالحروف اللاتينية

لا العربية ، وتبقى العربية لغة المساجد فقط ، كما أن اللاتينية لغة الكنائس » .

وباسم مذهب « الواقعية » فى الأدب العربى نادى المستشرقون ومن تبعهم بالعامية لا العربية الفصيحة ، لتحقيق أهدافهم الهدامة للإسلام وهى :

١ — القضاء على لغة القرآن ، فإذا ما اشتغل العالم العربى باللهجات العامية المحلية المحدودة شق عليهم فهم القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب التراث الإسلامى ، لأنها تعتمد على اللغة العربية الفصيحة .

٢ — قطع الصلات بين الشعوب الإسلامية ، لأن لكل شعب لهجته الخاصة به التى تنغلق أمام الشعوب الأخرى ، فيعسر عليه فهمها والتعامل بها . فتزداد الجفوة والتباعد بين دول الأمة الإسلامية الواحدة .

٣ — بعث النعرة الجاهلية والعصبية القديمة لكل دولة ، فإنها ستتعصب لحضارتها القديمة ، فالعراق يمجد الحضارة البابلية والآشورية ، وسوريا تشيد بالحضارة الفينيقية ، ومصر بالفرعونية واليمن بالحميرية ، والمغرب بالبربرية ، وهكذا كل دولة تنصرف عن الأخرى بالنعرة القديمة .

٤ — اللغة العربية الفصيحة لا يستطيع المستشرقون أن يقفوا على أسرارها ، ولا أن يصلوا إلى لطائفها ومكنونها البليغ ، فهم عاجزون عن فهمها ، والكتابة بها كما ينبغى ، فلا يحسنون التعبير عن أفكارهم المسمومة ، لذلك لجأوا إلى العامية لسببين :

أولهما : أنها سهلة منقادة لأفكارهم المسمومة .

ثانيهما : أنها تمكنهم من تحقيق الصدارة لهم على العرب الذين

يستعملون العامية فى مؤلفاتهم ، فيظلوا تابعين لهم ومقلدين لا مبتكرين فهم عيال عليهم .

٥ — أنهم يغلفون دعوتهم باسم المذهب الواقعى فى الأدب ، لأن الواقعية فى نظرهم أن يستخدم البطل فى القصة لغته العامية فى الشارع وكذلك بقية الشخصيات ، فيستخدمون اللغة التى يتعاملون بها مع الناس لكى يكونوا واقعيين ، فالحداد يتكلم بلغة الحدادين والتجار يتكلم بلغة النجارين ، والخباز يتكلم بلهجة الخبازين وهكذا .

وتلك مغالطه سافرة ومسمومه فى فهم الواقعيه ، وليست الواقعية فى الأدب كما يزعمون ، فالمقصود منها فى القصه مثلا أن تعبر الشخصيات عن مواقعها من الأحداث والحكاية ؛ فالفيلسوف يتحدث بلغته الفلسفية التى تعتمد على المقدمات والنتائج ؛ والزارع بلغته الريفية السهلة المناسبة العذبة الرقيقة ؛ والمهندس بلغه المثلث والمسطرة ؛ والطبيب بأسلوب الوقاية والعلاج ؛ والخادم بلغة التواضع والاستجابة ؛ فلا يصح للخادم أن يتكلم بلغة الفيلسوف ، ولا العكس ؛ وكذلك بقية الشخصيات لا تتبادل فى مواقعها من الحكاية وإلا تحطمت الواقعية فى القصة . فينبغى لكل شخص أن يعبر عن موقفه بلغة فصيحة سهلة يفهمها المتعلم والجاهل والقريب والبعيد ؛ والمتقعر والمتسهل ؛ فلغتنا العربيـــة غنية بألفاظها ومترادفها ومشتقاتها بما يتناسب مع كل مقام ومقال ؛ فأدب نجيب محفوظ فى القصه يقرؤه الجميع ويفهمه العامى والجاهل والمتعلم والمتخصص وقصص على أحمد باكثير يقرؤها الجميع وهكذا .

والقرآن الكريم قد بلغ قمه الإعجاز والبلاغة ؛ ومع ذلك يفهمه الجاهل والمتعلم ؛ ويتجاوب مع كل المستويات كل على قدر إدراكه وفهمه

للغةوألفاظها ، ولا يتعسر الفهم أمام سحر القرآن مهما تباعدوا فى الجهل وعدم العلم .

ومن أخطر مظاهر التحرر فى الأدب الإسلامى أيضاً ركوب السهل من الشعر الحر وهو هيام الشعراء المحدثين به دون العمودى لأنه يتناسب مع عجزهم وتبلدهم ، وهذا مركب سهل وطئ ، ينحدر بهم بعد ذلك لاتباع الأسهل والقريب إلى التكاسل والتبلد ، ومن أخطر الأسهل استخدام العامية فى شعر التفعيلة ، ومخالفة الإعراب النحوى ، فيلجأ الشعراء إلى تسكين آخر الكلمات هروباً من الإعراب النحوى آخر الكلمات إما عجزاً عن فهم النحو وتطبيقه ، أو عجزاً عن فهم علوم الصرف والاشتقاق واللغة والالتزام بقواعدها وأصولها . انسياقا مع قفزات التفعيلة الواحدة من القصيدة إلى آخرها ، وسواء أكان هذا أو ذاك فهو انحراف عن الجادة ، وإعلان للحرب على اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والشريعة الإسلامية .

ومن العجيب أن إسرائيل تبذل الجهود والطاقات لنشر اللغة العبرية وهى لغة ميتة ولغة اندثرت بالإسلام خاتم الديانات والرسالات وكذلك الشعوب الأخرى تنشر لغتها ، وتدفعها إلى أن تسود العالم لتكون لغة عالمية كالإنجليزية ، والفرنسية والألمانية والروسية وهى لغات هبطت برسالة الإسلام ، لأنه دين الحياه إلى قيام الساعة فإذا كانت هذه الشعوب تجاهد فى سبيل تثبيت لغتها وإحيائها ونشرها فالأولى بلغتنا نحن العرب أن نحيها وهى جديرة بالشيوع والانتشار والحياة والبقاء والخلود والقوة ولا ندفعها بأيدينا ونقبرها بألسنتنا فهى لغة الرسالة السامية ، والشريعة الخالدة ورسالة الإسلام العامة التى جاءت للبشرية

كافة. ولكل الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. كل هذا يدفعنا إلى أن نحافظ على لغة القرآن فنقيم ألسنتنا على الفصاحة والصواب لنؤدى واجبنا نحوها كما أدى السلف الصالح ما عليهم من حقوق لها فردوا لها الصاع صاعين لكى يزدادوا إيماناً بها وحفاظاً عليها وحرصاً وتركوها لمن بعدهم تحمل تراثاً ضخماً وحضارة راسخة يتعلم منها الصديق والعدو.

٦ — شعر المناسبات:

والمناسبات الأدبية فى الشعر قضية نقدية تناولها كثير من النقاد فى العصر الحديث، لأنها ترتبط بالأغراض الشعرية من ناحية، وبالصدق الفنى فى التجربة الشعرية من ناحية أخرى.

تناول القضية العقاد والمازنى وطه حسين فى مصر، وعبد العزيز الرفاعى فى السعوديه وغيرهم تناولوا شعر المناسبات فى معارك أدبية ونقدية مع الشاعرين الكبيرين حافظ وشوقى فى مصر، وكذلك فى مقدمة ديوان الشاعر زاهر عواض الألمعى للأستاذ عبد العزيز الرفاعى، فقد انتقد شعر المناسبات عند زاهر ووصفه بالخطابية؛ كما أسقط -من قبل- العقاد والمازنى وطه حسين شعر حافظ وشوقى لارتباطه بالمناسبات، فهبط شعرهما عن ساحة الشعر الجيد، الذى يعتمد على الصدق الفنى فى التجارب الشعرية، والنابعة من ذات الشاعر ووجدانه المفعم بالأفكار العميقة، والمعانى الدقيقة فى وحدة عضوية بين الشكل والمضمون.

لكن العقاد بعد هذه المعارك اعترف بأنها كانت من حماقة الشباب، ولم يتنكر هو ولا غيره لإمارة شوقى فى الشعر، ولا للتاج الذى خلعه الأدباء على

جبين حافظ وهو « شاعر النيـــل » ، حين كان يذود عن قضايا مصر الوطنية والإسلامية ضد أعدائها فى الداخل والخارج .

والمناسبات فى الشعر لا تضعف الصدق الفنى فى تجاربه ولا تهتز بها القيم الفنية ، لأن الشاعر حينما ينظم قصيدة لا يأتى إليها من فراغ ؛ بل لا بد من دافع يحث الشاعر على نظم الشعر ولا يستغنى عن مفجر يشعل فتيل العاطفة ، حتى تشتد الحركة فى المشاعر ، وتهتز الأحاسيس ؛ وتموج الخواطر والأفكار لتفيض فى وجدان الشاعر بتجربة شعرية صادقة .

كانت المناسبة هى المفجر الأول للعاطفة ، وهى السبب المباشر فى بناء التجربة الشعرية ، وتكوينها ، وتنظيمها : واختيار الصور لها ، وانتقاء الألفاظ والأساليب والإيقاع والموسيقى ، حتى تخـــرج من النفس فى بناء فنى هو القصيدة .

فالتجربة الشعرية لا بد فيها من مفجر كما وضحنا ، وهذا المفجر لا بد أن يرتبط بمناسبة معينة ، تختلف باختلاف الظروف والأحوال ، التى تتجاوب مع الشاعر فى حياته ، فيهتز الشاعر لفكرة ، أو مشهد ، أو تثيره مواقف الإعجاب والبهجة والفرح ؛ ويتجه إلى المدح والوصف أو الفخر أو الحماس وغيرها ، وقد تثيره مواقف الحزن أو الألم والمعاناه العنيفة فى وجدانه الملتهب ، فيتجه الشاعر إلى الرثاء أو الشعر الوجدانى ؛ أو التأمل الفلسفى أو النفسى وغيرها من الأغراض الأدبية .

ولا يستطيع الناقد أن يفصل بين المفجر للتجربة وبين ارتباطها بالمفجر والغرض ، لجميعها كانت ثمرة ناضجة للتجربة التى استعرت بمفجرها ؛ فتقوم القصيدة حينئذ على الصدق الفنى ؛ ولن يتجرد الشعر من

الذاتية التى يعتمد عليها الشعر الجيد ؛ فالمناسبة لا تمنع من ذاتية الشاعر فى شعره ؛ لأنها مجرد مفجر لمخزون الشاعر فى معامل نفسه من الداخل وليست حشداً من خارجها ؛ فهى التى حركت هذا المخزون من منطقة اللاشعور فى داخل النفس ؛ إلى مناطق الشعور فيها أيضاً ؛ ليقوم العقل والخيال والعاطفة والوجدان والشعور والإحساس بتنظيم وتعميق وتنسيق هذه التجربة فى بناء فنى متلاحم ومترابط كل ذلك داخل ذات الشاعر ونفسه فإذا تمت التجربة فى شكلها الفنى خرجت عن ذاته فى القصيدة .

ولهذا لا يستطيع أحد أن ينكر ذاتية الشاعر فى هذا البناء الفنى على النحو السابق ؛ ولا تتعارض المناسبة المفجرة للتجربة مع تغنى الشاعر بذاته أحاسيسه ومشاعره ؛ فكلها كانت من مخزون نفسه ؛ لا من خارجها . وإنما الذى طرأ على المخزون هو المفجر فقط ؛ وهو ما يطلق عليه بالمناسبة فهى لا تؤثر على المشاعر الذاتية ولا على الصدق الفنى فى التجربة .

أما إذا كانت المناسبة التى ينطلق منها الشاعر فى نظمه بلا انفعال قوى ؛ ولا عاطفة ملتهبة ؛ ولا وجدان حى . ولا مشاعر فياضة ؛ فهذا لا يسمى صدقاً لما بينه وبين المشاعر الذاتية الداخلية من حواجز تهبط به إلى النثر الأدبى الذى يكتب بمداد العقل والمنطق ؛ لا بالمشاعر الذاتية ولا بعاطفة الشاعر ووجدانه ؛ وحينئذ يهبط الشعر إلى درجة النظم والوصف والنثر : أى نثر ؛ بل دون ذلك ؛ فتكون المناسبة حينئذ معول هدم للشعر يشوه نضارته وحيويته وإبداعه ؛ وهذا ما لا يتصوره الشاعر ؛ ولا يقع فى خاطره ؛ إلا إذا كان من شعراء التقليد والرصافين فى العصور الميتة الجامدة فى الفكر والأدب . وعلى ذلك لا يضر الشعر الإسلامى والأدب بصفة عامة أن يقال فى مناسبة إسلامية معينة ؛ بل ستشعل هذه المناسبات

الشعور حرارة وتدفقاً وخاصة إذا كانت المناسبات تعين المشاعر على الحماسة مثل الجهاد فى سبيل الله ومحاربة البدع والخرافات ، وتحرير القدس الشريف ، والثورة على من يعتدى على المسلم أو على عرضه أو ماله ، فتلك مناسبات تؤجج العاطفة فى الأدب الإسلامى ، ولا تنال من قدره ، بل تسمو به إلى درجات الجودة والاقتدار .

الفصل الثاني

موضوعات الأدب الإسلامي ومصادره

الفصل الثانى

موضوعات الأدب الإسلامى ومصادره

والأدب الإسلامى يقوم فى بنائه الفنى على المضمون وعلى الشكل فأما المضمون فنحن بصدده الآن ، ويضم الموضوعات الرتيبة التى يشتمل عليها الغرض فى الأدب الإسلامى ، وتقوم على القيم الإسلامية والأخلاقية الفاضلة ، والنظام التشريعى فى كل مجالات الحياة ، ومقتضيات الإنسان.

وليس المقصود أن يحتوى الأدب الإسلامى هو الآخر على موسوعات الفقه وأحكام التشريع ، ويحتوى على سرد الأخلاق فى القرآن الكريم والقيم فى السنة الشريفة ، ويحتوى على موسوعات فى السيرة والتاريخ الإسلامى . ويحتوى على موسوعات من علم التفسير والحديث وعلوم القرآن الكريم ، وبذلك يتحول الأدب إلى مكتبة إسلامية ... ليس هذا هو المقصود ، فهذه العلوم موجودة فى تراثنا العربى والإسلامى قبل وجودها فى العصر الحديث .

لكن الأدب له طريق آخر ، واتجاه آخر ، يتناسب مع طبيعته ومنهجه ، فالفنون الأدبية تمتاز عن سائر العلوم بأنها تتسلل إلى النفس من منافذ عديدة ، وهى العقل والعاطفة والخيال والشعور والوجدان والإحساس ، عن طريق العين والسمع والأنف ، والذوق ؛ فالعين تأخذها الألوان وتشدها الحركة فى التعبير ، والأذن تهتز للموسيقى والإيقاع فى التصوير ، والأنوف تشم الرائحة الذكية التى تفوح من وحى الأسلوب ؛ لأن منافذ الإحساس والقلب يشعران بحلاوة الإيمان ولذة الإخلاص .

هذه منافذ عديدة ينفذ منها الأدب ؛ ليصل إلى غايته من قوة التأثير وبراعة الإقناع ، سواء أكان الأدب شعراً أم قصة ، أم أقصوصة ، أم مقالة ، أم مسرحية أم فن السيرة الأدبي ، أو خطابة أو غير ذلك من فنون الأدب المتنوعة ، التى تخالف العلوم فى اتخاذها طريقاً واحداً ومنفذاً فريداً فى الإقناع وهو العقل وحده . وأن هذا المنفذ واحد للإدراك من المنافذ العديدة له .

وهذا المنهج فى الفنون الأدبية لا يحول الأدب إلى موضوعات فى العلوم كما وضحنا ، وإنما على الأديب أن يستوعب هذه الموسوعات الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وسيرة وتاريخ ؛ وسائر علوم القرآن والتشريع ؛ ويستوعب علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعلوم اللغة وغيرها من سائر العلوم العربية ؛ ويستوعبها كلها قراءة وفهماً وإدراكا عن حب واقتناع ومعايشة ومؤاخاة ؛ حتى تمتزج مع نفسه وروحه ؛ وتختلط بدمه وأحاسيسه ؛ لا أن يحفظها عن ظهر قلب ؛ كما يحفظ القرآن ؛ ولا أن يؤلف فيها كتباً علمية .

وإذا ما امتزجت بخواطر الأديب ومشاعره وأحاسيسه ؛ وأصبحت مخزوناً فى منطقة اللاشعور والشعور معاً ؛ فينطلق الشاعر فى تجاربه الأدبية ؛ ليعبر عنها ويصورها فى فن أدبي ؛ لكن كيف يصورها ؟؟ . أيذكرها فى القصيدة على النسق الفقهى كشروط التيمم وأركان الصلاة مثلا ليس الأمر كذلك ؛ وإنما يصور سماحة الإسلام ويسره فى مشروعية التيمم رخصة بدلا من الماء ؛ لكى يغرس فى نفس المؤمن غريزة الطاعة والانقياد لله عز وجل المعبود وحده ؛ وفى أركان الصلاة يصور الغاية التشريعية منها ؛ فهى تصل العبد بربه خمس مرات فى اليوم والليلة لكى يجدد العهد

مع ربه فى أوقات متفرقة ، وتنزع نفسه من أثقال المادة والحياة فى اليوم خمس مرات فيطهر النفس من أعماقها ، وكذلك الصلاة تطهر البدن والثوب من أوساخ الحياة خمس مرات ؛ ليظل المؤمن نظيفا ظريفاً طاهراً نقياً عفيفاً ، وهكذا يتخذ الشعر طريقه فى فقه التيمم وأركان الصلاة وكذا فى بقية العلوم الإسلامية والعربية .

وفى القصة مثلا حينما يصور القصاص مقطعاً من مقطعات الحياة الاجتماعية ؛ أو الحب العفيف الطاهر ؛ يتسلل من خلال الأحداث والحوار ليقوم البطل وقت الصلاة فيصلى بالحاضرين ، ويقرأ على أسماعهم آيات من القرآن الكريم . تنمى فيهم الأخلاق ، وتغرس القيم التشريعية ، فيتناول الأدب الإسلامى جوهر الشريعة الإسلامية والأخلاق القرآنية والقيم فى السنة الشريفة والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ليصور حكمة التشريع والغاية منها فى بناء الإنسان والأمة الإسلامية بناء صالحاً ، ويحقق له السعادة فى الدنيا والآخرة .

وفى الأدب الإسلامى القديم شعراً ونثراً ما جعله تراثا أدبيا ساميا وخالداً ، وموردا عذبا صافيا وعملا فنيا قويا وجاداً يغرس فى النفس القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة ويطهر الروح ويزكيها ويسمو إلى عالم الطهر والنقاء .

وكان القرآن الكريم المعجز ، والكتاب المبين الخالد المثل الأعلى فى أسلوبه ونظمه وإعجازه وبلاغته ، وحقائقه وتشريعاته وأصوله وقيمه وأخلاقه وتعاليمه : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » فكان الذكر الحكيم أحسن الحديث قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى

تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » .

ثم جاء الحديث الشريف لرسول الله ﷺ بيانا شافيا وتفسيراً أصيلا يستمد روافده وأصوله من القرآن العظيم فكان المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم وكان لهما الأثر البالغ فى مأثورات الصحابة رضوان الله عليهم وأقوال التابعين رضى الله عنهم، ويظهر ذلك من خلال النصوص الأدبية التى سنقف معها بالتأمل والنظر بعد أن يتركنا القرآن الكريم حيارى مشدوهين عاجزين فى خشوع وخضوع من سحر بيانه وروعة إعجازه :

المصدر الأول : القرآن الكريم :

فتية آمنوا بربهم :

قال الله سبحانه وتعالى فى محكم آياته :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا

غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً ، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولايشعرن بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبداً ، وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعدالله حق وأن الساعة لاريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلاتمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولاتستفت فيهم منهم أحداً ، ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً ءإلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً، ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولايشرك فى حكمه أحداً ، واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ، واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها . وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل

يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً)(١) .

من معاني الكلمات :

آثرت بالبعضية في تفسير المفردات مع القرآن الكريم استشعاراً بقدسيته ، فهو تنزيل من لدن حكيم عليم ، فالله سبحانه وتعالى اختار ألفاظه بلطائفه ومبلغ علمه ، وسلكها في نظم عجيب ، لا يدرك ما وراءها من أسرار إلا الله العليم الخبير .

واستشعاراً أيضاً بجلاله ، لأن الألفاظ في مواقعها منه سرى فيها الجلال والحلاوة ، التي تخر لها جباه أبلغ البلغاء ، لعجزهم عن تفسير ما وراءها من حقيقة وأسرار ، كالشأن عندهم في التعرف على أسرار الجمال في غير القرآن الكريم ، ولذلك فرق النقاد القدامى بين الجلال والحلاوة وبين الجمال(٢) ، فأدركوا أسباب الجمال ولم يدركوها في الجلال كالشأن في القرآن الكريم .

واستشعاراً كذلك بالإعجاز في نظمه ، الذي أعطى لكل كلمة على حدة معاني لا يعلمها إلا الله ، ومغازي لا يدركها إلا الخبير سبحانه وتعالى ، قد يقف على بعضها القليل ، ولكن من العسير أن يقفوا على جميعها ، فاللفظ في معاجم اللغة له معنى محدد وإن تعدد واقعه الحسي يوم أن نشأ هذا اللفظ ، ، واستكمل هيئته من مراحل النحت التي مر بها عبر التاريخ لكنه في موقعه من التركيب البديع ، ومكانه من النظم القرآني ، يرسل

---

(١) سورة الكهف : الآيات من ٩ إلى ٢٩ .

(٢) الوساطة : القاضي بن عبد العزيز الجرجاني ٣٧ — ٣٩ مطبعة صبيح — والموازنة للآمدي ص ١٨٣ وما بعدها .

معانى لا حصر لها ، تشع منه عند التأمل لتفسر حقيقة يعلمها الله ، على الرغم من التعدد فى المعنى .

وقد تنبه أحد النقاد القدامى عبد القاهر الجرجانى إلى ما يشبه ذلك ؛ فى باب معنى المعنى أو المعنى الثانى(١) .

لهذا كله آثرت العنوان السابق لبذل ما يمكن بذله مجتهداً فى فهم اللفظ ، تقريباً لفهم معناه ؛ الذى أوحي به موقعه من التركيب ؛ ومن الخطأ أن نجزم فى التفسير بمعنى واحد أومعنيين ؛ وهو ما آخذه على الذين أوقفوا اللفظ على معنى واحد ظنا منهم أنه هو ؛ وجميل منهم أن ينسبوا المعنى الحقيقى إلى الله آخر المطاف ؛ بقولهم : « والله أعلم بمراده » .

وينبغى فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم أن نجند كل المعانى المستوحاة من اللفظ لخدمته ؛ حتى يقرب من الأفهام ؛ فالأقوال المختلفة حول اللفظ ، لا يصح أن تكون على سبيل التخيير ؛ بل لا بد أن تكون كلها وأكثرمنها داخلة فى إطار اللفظ ؛ مادامت الصلة قائمة ؛ وسنرى أن اللفظ الواحد يحمل فى ذاته شحنات من المعانى ؛ كلها تفسر المغزى الذى يهدف إليه موقع اللفظ من التعبير ؛ ويظهر أثر هذه المعانى المختلفة للفظ الواحد فى حديثنا عن الإعجاز فى التصوير القرآنى .

وعلى سبيل المثال فالمعانى الكثيرة فى لفظ « حسبت » من قوله تعالى: « أم حسبت » وهى الحساب ، والتقدير ، والعلم ، واليقين ، والظن ، والتخمين ، وغير ذلك مما يوحيه اللفظ فى مكانه من الآية ، فهذه المعانى

---

(١) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى ٢٦٢:٢٦٤ تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى القاهرة ١٩٦٩ م .

كلها واردة فى تحديد الواقع الحسى للفظ ، وخاصة بعد اتصاله بحرف « أم » الذى لا يظهر معناه إلا فى غيره ؛ فالظن والتخمين يتناسب مع تصوير واقع النبى ﷺ ، هو ومن على شاكلته من البشر فى صدق الإيمان، فالظن هنا يتفق مع الإنسان حين يتسرب الظن إلى نفسه فى أن أصحاب الكهف هم الآية العجيبة الوحيدة ، لا يوجد كثير منها عند الله ، وهذا الظن عنده لا يغنى من الحق شيئاً ، وهو كثرة آيات الله العجيبة بما فيها آية أصحاب الكهف ، وكان هذا الحسبان عارض بشرى لابد أن يكون ، ولكنه يزول مع إلهام الله أليائه القول الحق .

وغير النبى ﷺ يرى — وهو صادق مع نفسه حينا — فى الحسبان يقيناً وحساباً دقيقاً ، وعند ذلك يعتقد أن أصحاب الكهف هم وحدهم الآية العجيبة ، ولا توجد أعجب منها عند الله وهذا المعنى — والله أعلم — غير المراد ، مع أنه ممكن ومقبول من وجهة نظر الغير .

وسوى ذلك من معانى اللفظ ، التى تصور واقعه الحسى عند الأفهام المختلفة فى التصور ، حينما صيغ اللفظ أول ما صيغ من الواقع الحسى الذى اختلف من فهم إلى آخر ، حسب اختلاف مراحله فى التاريخ .

أم : وتشمل معانى منها : أداة عطف توصل بين شيئين على سبيل التسوية أو التعيين ؛ ومضمنة معنى الاستفهام الحقيق ، أو غير الحقيق بمعنى النفى والتقدير: أ أم ؟ أصحاب : جمع صاحب بمعنى التلازم ؛ والاقتران والثقة ؛ والاعتصام ؛ والإيثار والحفظ . الكهف : غار فى الجبل ومأوى الرقيم : كلبهم فهو علم عليه ؛ ولأن شعره مرقوم أى منقوش ؛ والكتاب المرقوم الذى كان معهم . الآية : العلامة ؛ والدلالة والقدرة ؛ والعظة . عجبا : الغرابة والعجز ، والإعجاز ؛ والبيان ؛ والإفصاح . إذ : حين

وقت : لحظة . أوى : لجأ ؛ ونزل ؛ وأسرع ؛ واحتمى ؛ وانضم . الفتية جمع فتى بمعنى الشباب ؛ والقوة ؛ والكرم ؛ والطراوة ؛ والاندفاع . إلى : الإنتهاء فليست داخلة لأن أصحاب الكهف ما زالوا فى الطريق لم يدخلوا فيه . لدنك : قبلك وعندك ؛ ولدن يغلب استعمالها فى جانب الله (ربنا آتنا من لدنك رحمة) أما عنده فشائع فى الاستعمال عامة . ضربنا : ألقى وثبت، وكافأ ؛ وعاقب ؛ وشد، وأحكم . على : بمعنى القدرة ؛ والاستعلاء والملاصقة، والمجاوزة ؛ والانفصال . عدداً : الكثرة . بعثناهم، أيقظناهم وأحييناهم ؛ وخلقناهم ؛ وكرمناهم . الحزبين : الفريقين ، الرأيين . الإتجاهيين . المتضادين . أحصى : أعلم . وأدق . وأكثر . وأقدر . لبث : غاب . ومكث . ومات . ونام . أمداً : العدد والغاية . والقدر المعين . نقص : من القص بمعنى التتبع ، والقطع . والحكم . والفصل . والجزم . واليقين .

نبأهم : النبأ هو الخبر ، والظهور ، والوضوح ؛ والغيب ، بالحق : بالصدق ؛ الثبوت ، الدليل، القطع . هدى : الدلالة ، والصواب ، والحق، واللطف ، والرعاية . ربطنا : شددنا ، وجمعنا ، وثبتنا ، وقوينا . قاموا : ثبتوا ، ونهضوا ، وخرجوا ، وأشرفوا واعتزلوا . الشطط : الغلو ، والإسراف ، ومجاوزة الحد، والباطل ؛ والكذب ، والبهتان . اتخذوا : صنعوا، وعبدوا ؛ وصيروا وضلوا . سلطان : الوضوح ؛ والدليل . والحجة : والبيان . افترى : من الإفتراء بمعنى الكذب ، والبهتان ، والتحدى بغير دليل . اعتزلتموهم : من الاعتزال بمعنى الترك ، والاعتصام، والتمسك بالعقيدة ، والهرب ، واللجوء ، والمخالفة . ينشر : من النشر بمعنى الرحمة . والحفظ . والحياة والبعث . والقطع . مرفقاً : معيناً . ومصلحاً . ترى : تبصر . وتعلم . وتتيقن . إذا : تفيد التحقق من الزمن الذى تطلع

فيه الشمس وتفيد أيضاً طلوع الشمس طول مدة لبثهم فى الكهف . تزاور : تتزاور : تميل ، وتنزل ، وتحيد ، وتحجب ، وتراوغ ، وتنافق . تقرضهم : تتركهم ، وتمنعهم ، وتدخل عندهم . وتعطيهم ، وتقطع عنهم الضوء والحرارة . فجوة : متسع ، ومنأى ، وناحية ، وجزء ، وهم متفرقون فى مضاجعهم . أيقاظاً : أحياء ، ومنتبهين ، وعيونهم مفتوحة . الوصيد : الباب ، والمدخل ، والتراب والإطباق ، والفناء ، والضيق . اطلعت : أشرفت ، ورأيت ، وعلمت ، وعاينت . رعبا : خوفا ، وفزعا ، واضطرابا ورقكم : من الورق وهى الفضة المضروبة ، والرقيقة . أزكى : أطيب ، وأحسن ، وأحل ، وأكثر ، وأرخص وأكثر فائدة . المتلطف : الخفاء ، والرحمة ، والتستر ، وحسن التعامل والتباسط . يظهروا : يعلموا ويشرفوا ، ويظفروا ، وينتصروا ، ويغلبوا . يرجموكم : يقتلوكم رميا بالحجارة . يميتوكم . الملة : العقيدة . والدين . والكتاب .

أعثرنا : من الإعثار بمعنى الطلوع . والنظر ، والإشراف ، والوقوف والثبات . يتنازعون : يختلفون ويأخذ بعضهم من البعض الآخر . تمار : تجادل . وتشك . وتأخذ . ظاهراً : سهلا . وهينا . وواضحا ، يقوم على الدليل والحجة . تستفت : تطلب . وتعلم . وتسأل . وتسترشد . أبصر بهم وأسمع : فلا أحد أبصر بعباده من الله عز وجل . ولا أسمع بهم منه . وهو البصير بأعمالهم السميع بأقوالهم . واتل : واقرأ . واذكر . واعمل . الوحى : القرآن . والعلم . وجبريل عليه السلام . والكتاب . مبدل : من التبديل بمعنى الإزالة . والتحريف . والتغيير . ملتحداً : ملجأ . ومهربا . ووليا . وناصراً . ومعيناً .

واصبر . واثبت ، واجلس ، وكابد ، وجاهد نفسك ، واربط على

ولبك ، بالغداة والعشى : فى الصباح والمساء . والمراد : اليوم كله . تعد : تعدل ، وتترك ، وتجاوز ، وتستبدل ، وتطلب غيرهم . أغفل : انشغل وظلم ، وهلك ، وضل . ونسى . فرطا : من التفريط بمعنى الإسراف ، والغلو . والضياع ، والمجاوزة . والعقاب . اعتدنا : أرصدنا ، وهيأنا ، وعاقبنا . سرادقها : السرادق بمعنى السور ، والإحاطة ، والإطباق ، وشدة البلاء : المهل : ماء غليظ ، أسود ، وحارق ، ومذاب ومهين ، وجار . يشوى : يحرق ويشوه ، ويسقط جلد الوجه . مرتفقاً : رفيقاً ، ومكاناً ، ومنزلا ، ومجتمعاً ، ومقيلا وجزاء (١) .

القرآن والتاريخ :

كشف القرآن الكريم عن وقائع تاريخية تضرب فى أعماق القدم وخاصة فى قصصه . وفى هذا الكشف إعلام بالنبوة ، وتأييد للرسالة ، وردع للمشركين ، وإعجاز لهم عن مجاراته ، والإتيان بمثل هذه الحقائق التاريخية الصادقة فى وقوعها ، قد سماه القدامى إعجاز فى المضمون والمعنى . أى إعجاز بإظهار حقيقة ما غاب عن الإنسان فى التاريخ البعيد .

وكيف يكون إظهار التاريخ معجزة النبى ؟ فقصة أصحاب الكهف

---

(١) انظر لسان العرب ، والقاموس المحيط . وتفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٧٢/٢ : ٨١ . وبدائع الفوائد : ابن الجوزى الجزء الأول . نظم الدر فى تناسب الآيات والسور : للبقاعى . والكشاف للزمخشرى . وسيرة ابن هشام : ٣٠٠/١ : ٣٠٨ .

كانت معلومة عند أحبار اليهود فى المدينة . وإن كانت مجهولة لغيرهم . فلا يدرى الجاهل أن وقائعها صادقة أم كاذبة . وفى كلتا الحالتين لا يكون معجزة للنبي ؛ لأنها خلت من دعوى التحدى والمجاراة .

والحق أن وجه الإعجاز فيها يرجع لأمور كثيرة :

منها : أن نزول هذه القصة على النبي ﷺ يدل على أن الله سبحانه وتعالى مطلع على عباده يعلم السر وأخفى ؛ رأى ما وقع من تساؤلات ومحاورات حول تكذيب أمر الرسالة ؛ فأراد الله أن يخبرهم عن طريق القصة بأن من يعلم هذا لهو جدير بالتسليم له والإيمان به وبرسوله .

ومنها أن النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ؛ وكان فى مكة لا يعلم شيئاً عن الوقائع الدقيقة فى القصة ؛ وحينما يتحدث بها الرسول ﷺ ويخبر عن أحداثها بدقة وصدق كما أنزلها الله عز وجل؛ فإن ذلك يدل على صدق الرسول وتحديه للكفر .

ومنها أن الوقائع التى كان يعلمها اليهود وهم فى المدينة لم تكن كاملة وصادقة فى مجموعها لعوامل الزمن والزيف من ناحية ؛ ولغموض أحداث القصة حتى على أهل زمانهم أثناء بعثهم حيث قال الملك وأعوانه : « قالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم » من ناحية أخرى ؛ وحينما تنزل القصة على الرسول الكريم بأحداثها كاملة وصادقة ؛ تصل ما انقطع فى القصة من أحداث عند أحبار اليهود . وفى هذا يظهر التحدى مؤيداً صدق الرسالة .

والتاريخ فى القرآن الكريم عامة ؛ وفى القصة التى معنا خاصة لا يشوب ما وقع منه أدنى شك ؛ فكل ما وقع فيها حقائق صادقة

وأحداث صورها الله كما وقعت فى زمنها البعيد ؛ ولكن ربما يثير الحيرة ويدفع إلى الشك ما غاب عن القصـــة من مشاهد اختفت وراء التصوير القرآنى مما يوهم النقص عند البعض ؛ مثل حال الفتية بعد اعتزالهم القوم حين انتقل القرآن فجأة إلى وصف حالهم وهم نيام فى الكهف واختفى المشهد الذى وقع بين نهاية الحوار وبين النوم ؛ وهو خروجهم وقطعهم الطريق ؛ وبحثهم عن الكهف . وحوارهم أثناء ذلك . ودخولهم فى الكهف إلى آخره :

(وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمتـــه ويهيء لكم من أمركم مرفقا . وترى الشمس إذا طلعت ؛ الآية) .

والواقع أن المشهد لم يختف لحظة واحدة عن الخاطر . فهو شاخص فيه غير غائب عنه . لأن أجزاء المشهد المحذوف فى الظاهر أمور عادية لا يحتاج إلى التنصيص عليها . لقربها ، والاتفاق عليها ، وعدم غرابتها ولكن الذى يتأمل فى التصوير يرى أن المشهد مذكور لا فى الخاطر ولكن فى النظم العجيب :

تأمل موقع الفاء بعد الاعتزال مباشرة وما تدل عليه من التلاحق والسرعة التى تصور بدقة ـ وهى حرف واحد ـ ما يجول فى أنفسهم من الخوف والفزع والحذر ، مما يدفعهم إلى السرعة فى الطريق والدقة فى البحث حتى لا يضيع الوقت سدى ، وهذه المعانى التى دلت على السرعة والتوفيق إلى المـأوى والعثور على الكهف تأتى من مبنى الفعل . ومعنـاه « فأووا » فمعناه اللجوء فعلا إلى الكهف وأنهم وفقوا إليه بسرعة ؛ ومبناه يدل بإيقاعة الموسيقى (الحركة فالسكون فالضم) الصادر من الحركة

والسكون يدل على حالتهم أثناء البحث من السرعة فى الحركة فالوقوف عند الكهف ، الذى احتواهم وضمهم إليه .

أما نومهم فقد ظهر من الآية (ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا) فنشر الرحمة عليهم واحتواؤهم تحتها هوالنوم نفسه الذى تكفل بحفظهم من الأعداء . والنوم كان استجابة لدعائهم قبل ذلك فى مطلع القصة المجمل (ربنا آتنا من لدنك رحمة) ، فإعادة الدعاء هنا لا يعد تكراراً يخل بنسق القصة ، تعالى الله عما يصفون .

إذن فالوقائع التاريخية هنا كاملة ، والمشاهد واقعة ، والعجز فى الفهم لا فى التصوير القرآنى ، وكيف لا ؟ وهو معجزة الله الخالدة .

والقصة التى معنا جاءت فى سياق سورة الكهف التى كان مطلعها إثبات نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته ثم تكذيب النضر بن الحارث ومن وراءه من المشركين واليهود ، ثم انتصار الدعوة إلى التوحيد فى شخص النبى الكريم وأصحابه وهم قلة ، كالشأن فى انتصار أصحاب الكهف وهم قلة على الدنيا من حولهم(١) ليذهبوا فى التاريخ مثلا للإيمان الخالص لله ، وفى الدين الإسلامى نموذجا صادقا لمن يخلص فى الإيمان من أمة محمد ﷺ .

أرسلت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود فى المدينة ، ليأخذوا عنهم ما يطعنون به الإسلام ، ويكذبون محمداً ﷺ ، وهم اليهود سواء فى الكيد له ، فدفعوا إليهم تحديات يعرضونها على الرسول الكريم فى مكة ، وقالوا لهم سلوه عن فتية مضوا فى الدهر ، وكان أمرهم عجبا وهم أصحاب الكهف وعن رجل طواف شهد العالم وهو

---

(١) الكهف : من أول السورة إلى الآية ٨ .

ذو القرنين ، وعن الروح فإن أجاب عنها كلها أو سكت عنها كلها ، فهو مدع للنبوة ، وإن أجاب عن بعضها وسكت عن بعضها فهو نبى هذه الأمة

قال ابن هشام :

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة : وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله ، وحذر قومه مما أصاب الأمم من قبلهم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟

فلما قال لهم النضر بن الحارث : بعثوه ، وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت : لها أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب .

وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟

وسلوه عن الروح ما هى ؟

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط . . . حتى قدما مكة على قريش ، فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح وما هى ؟ قال : فقال لهم رسول الله ﷺ ، أخبركم بما سألتم عنه غداً ، ولم يستثن ، فانصرفوا فمكث رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ خمس عشر ليلة ، لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها ،لايخبرنا بشيء مما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الله فى الفتية ، والرجل الطواف ، والروح .

قال ابن اسحاق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظناً ، فقال له جبريل (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان

ربك نسياً)(١).

ونزلت سورة الكهف تحمل إجابة سؤالين فقط فى أحدهما عتاب للنبى ﷺ يحمله على التخلق بأخلاق القرآن ، وهو أن يربط المؤمن كل مايقع منه بمشيئة الله ، إن شاء فعل وإن شاء ترك « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً ، إلا أن يشاء الله » وهذا العتاب هو سر تأخير الوحى عنه خمس عشرة ليلة .

وجاءت قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ، فى موقع التلاؤم بين بقية القصص فى سورة الكهف ، ليكون الاتجاه واحداً فى القص والنسق القرآنى واحداً وما فيه الإجابة الشافية يلتقى مع نظيره ، ليدل على أن هذا القصص فى الأزمان الغابرة يعد من آيات الله العجيبة وما أكثرها فليست آية أصحاب الكهف وذى القرنين وحدهما ، ولكن قد اجتمع معهما فى السورة آيتان عجيبتان : فى قصة الرجلين :

«واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب»الآيات(٢)
وفى قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام:

« وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً) ٣) لتكون هذه الآيات العجيبة كلها أبلغ فى الدلالة على الإيمان بالله وحده ، ليتخذ الله من عباده فى هـــذا القصص أولياء له ، يدعونه فيكرمهم بالإستجابة السريعة ويخشونه فيلهمهم الحق ، ويعلمهم ما لم يكونوا

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢١٨ هـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين طبعة ثانية الحلبى ١٩٥٥ .

(٢) الكهف : ٣٢ - ٤٤ .

(٣) الكهف : ٦٠ - ٨٢ .

يعلمون ، وهذا ما أقصده من الخلق الكريم فى القرآن عامة وفى قصة أصحاب الكهف خاصة ، وفى جانب التعرف على الله والإيمان به وهو ذاته ما تحييه قصة القرآن فى نفوس المسلمين ليكونوا على مثاله ، وهو أسمى ما عرفه الإنسان من تصوير للجانب الإسلامى .

أما الرد على السؤال الثالث ، فكان بدون إجابة تكشف عن حقيقة الروح وماهيتها، وفى عدم الإجابة عن الروح اختصاص الله عزوجل بعلم ليس من شأن البشر أن يعلموه تنزيهاً له عن خلقه ، وإثباتا لعجز الإنسان أمام ربه : فيؤمن به ويسلم الأمر إليه فى كل الأحوال « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) .

وجاءت الآية فى سورة الإسراء ، تنويهاً بأن الاسراء والمعراج أمر خارق يخفى على البشر . ومهما أوتى العلماء من العلم لا ينهضون بتفسيره ومعرفة حقيقته ، كالشأن فى ماهية الروح تماماً ، فتلاءم موقع الروح مع مواقع الإسراء والمعراج ، كما تلاءمت القصص فى سورة الكهف . وفى كلتا السورتين عجائب من علم الله ، وإن كانت فى الكهف واضحة من الأحداث والمشاهد الواقعة ؛ لكن مثار العجب فى الإسراء هو الغموض والإبهام فلا يعلم ذلك إلا الله وفيه ما فيه من العجب حتى يعجز البشر .

وتأمل هذا التلاؤم العجيب حيث جاءت المناسبة التى تجمع أصحاب الكهف بأهل الصفة فى عهد رسول الله ﷺ فى الاتجاه والمغزى فهؤلاء وهؤلاء صادقون فى إيمانهم ؛ وكأن أهل الصفة هم أصحاب الكهف ، وكما كان الله مع أصحاب الكهف فنصرهم واستجاب دعاءهم ، فكذلك سيكون مع الرسول ﷺ الذى يألف أهل الصفة ، ويعطف عليهم ويجلس إليهم.

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

ويترك مجالس الكفر من أشراف قريش فى الجاهلية الذين أنفوا من النبى أن يجالس أهـل الصفة وكرهوا منه ذلك ، فإذا أراد أن يجالسهم فلا عليـه أن يجلس مع الفقراء من المؤمنين « أهـل الصفة » ، فأنزل الله ليخبره بأنه لا يحزن على عناد أشراف قريش ولا يأسف لكفرهم فعنده من المؤمنين على فقرهم من هم أقرب إلى الله وأعظم من أهل مكة : منهم أهل الصفة الذين خلدهم الله ، وأنزل فيهم قرآنا :

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)(١)

وللالتقاء فى الهدف والغاية والاتجاه أعقبت آية أهل الصفة قصة أصحاب الكهف ، ومنزلتهما واحـدة عند الله لذلك أمر الله رسوله برعايتهم والأنس بهم :

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغـداة والعشى يريدون وجهه)الآية .

« إنها نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ؛ وليخص أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك فقال : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) الآية ؛ وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال : (واصبر نفسك الآية)(٢) .

وقيـل : نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبيـاته (واصبر

---

(١) سورة الكهف : ٦٠ - ٨٢

(٢) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير (٧٧٤ هـ) ٨٠/٣ : ٨ وكتاب عوارف المعارف : السهروردى ٣٣٢/١ : ٣٣٢ ـ هامش إحياء علوم الدين : الغزالى

نفسك الآية) فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله تعالى ، منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال: « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم »(١) .

الإعجاز فى التصوير القرآنى :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، بعد أن بلغوا فيها غاية الفصاحة والبلاغة ؛ لذلك كانت معجزة الرسول الكريم فى لغة العرب : فى القرآن الكريم وكان إعجازه فى جميعه وفى كل ما يتصل به ، سواء أكان ذلك من حيث موضوعاته المختلفة التى تتصل بالإخبار عن المغيبات كالشأن فى قصة أصحاب الكهف وغيرها ، أو ما يتصل بما يقع فى المستقبل كهزيمة الروم أمام المسلمين وغير ذلك ؛ أو ما يتصل بوضع التشريع الإلهى لهذه الأمة مما يتناسب مع الأجيال والأزمان إلى قيام الساعة .أو من حيث أنه وحى أنزله الله على عبده ورسوله تصديقاً لرسالته إلى البشر ؛ وفى الوحى ما يجعل الإنسان يخر ساجداً لله معبراً عن عجزه البشرى(٢) .

أو من حيث اختيار ألفاظه ، وتحديد موقعها من النظم البديع ، وتصويره للمعانى تصويراً تلتقى فيه كل عناصر الإعجاز فى التصوير الرفيع(٣)

ورأينا الإعجاز فى الإخبار عن أصحاب الكهف ، وما كان من أمرهم فى أعماق التاريخ ، أما الإعجاز هنا فى التصوير ؛ فقد التقت فيه كل عناصر

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير (٧٧٤هـ) ٢/٨٠:٨١ وكتاب عوارف المعارف : السهروردى ١/٣٣٢ : ٣٣٣ - هامش إحياء علوم الدين : الغزالى .

(٢) إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلانى .

(٣) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى .

الإبداع ؛ فى اللفظ ؛ وفى تركيبه واختيار حروفه ؛ وفى موقع اللفظ من النظم القرآنى وما يوحيه كل ذلك من الإيقاع الموسيقى ؛ ثم ملاءمة كل ذلك مع المقام والمعنى والغاية من التصوير .

ومن العسير أن نقف على كل ذلك ؛ فهذا يحتاج إلى مطولات من ناحية ولن نصل إلى نهايته من ناحية أخرى ، لأن الذى يعلم الحقيقة فى ذلك الله وحده .

لذلك سنقتصر فى التحليل على بعض نماذج من التصوير القرآنى هنا ، ليكون فى ذلك دلالة فى الإبداع على نظائرها فى القصة .

وآثرت التعبير أيضاً فى جانب القرآن بالتصوير القرآنى لتفرده بالإعجاز ؛ ولأنه أسمى ما عرفه وسيعرفه أبلغ الأدباء إلى قيام الساعة فكان ما آثرته من نسبة الشيء إلى أصله أولى بجلال القرآن وقدسيته — من حيث مصدره الإلهى — دون غيره من التعبيرات ، ومن الوصف بما وصف به غيره من المصطلحات فى باب الأدب مثل التصوير الفنى والفن القصصى ؛ والتصوير البيانى ، والتصوير الأدبى ، وغير ذلك(١) .

والقرآن الكريم حين خاطب العقل والشعور . والروح والقلب جميعاً خاطبها بأجل الوسائل فى التعبير ، بالتصوير القرآنى ؛ الذى تتجمع فيه كل روافد الإعجاز ليكشف عنها أروع كشف « فهو المركز الذى تلتقى عنده خطوط الدائرة ؛ والبحر الواسع العميق المتدفق الزاخر فى مكنونه

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم : المرحوم سيد قطب ، والفن القصصى فى القرآن الكريم : د/ محمد خلف الله ، والبيان القرآنى : د/ رجب البيومى وغيره ، والمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى إعجاز القرآن الكريم وغيرهم .

بما لا يعلمه أحد إلا الله ؛ فالتصوير القرآنى فيما أعتقد إعجاز الإعجاز ومن ألهمه الله بعض الصواب أبصر من خلال التصوير بعض مصادر الإعجاز فيه، لأن الصورة بمعناها الواسع الحى تنبض بكل ذلك . فهى جسد وروح معاً لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ولا نقصد بها المعانى التقليدية والجزئية التى اقتصرت على بعض ألوان البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها واقتصرت على اللفظ والعبارة ؛ أو اقتصرت على النظم فى علاقة اللفظ بالمعنى دون الأبعاد النفسية والشعورية ؛ التى يعلمها خالق النفس والشعور سبحانه وتعالى . أو اقتصرت على الشكل دون المضمون من دعاة النزعة التأثيرية عند المحدثين(١) لا نقصد كل ذلك بالصورة بل هى أعمق من كل ذلك ، وأرحب أفقاً ؛ إنها كائن حى يتجمع فيها ما يتجمع فى الإنسان من كل وسائل الحياة ؛ فى ارتباط شكل الإنسان بمضمونه جملة ؛ وما وراء ذلك من مشاعر النفس وخوالجها ، وعواطفها والصدق فيها ، وغير ذلك من الوسائل فى الصورة التى تملك زمام الإقناع والتأثير فى النفس(٢) .

والإقناع والتأثير هما الغاية من الإعجاز فى التصوير القرآنى ، وبهما تحول زعيم العناد الوليد بن المغيرة من مفتر قاتل إلى مهزوم ضعيف يسترحم محمداً ﷺ ويضع يده على فمه الشريف رحمة به ويقول له : أمسك عليك يا ابن أخى .

---

(١) معظم النقاد القدامى ومن تبعهم من المحدثين ، والمذهب التأثرى من المذاهب الأدبية والنقدية الحديثة فى النقد الأدبى الحديث .

(٢) البناء الفنى للصورة الأدبية ، بسطنا القول فى ذلك بالتفصيل فى هذا الكتاب هناك .

والتصوير القرآنى لأصحاب الكهف يعد حلقة من حلقات السورة جميعها ، التى تعد وحدة تامة متكاملة ، يلتقى فى إطارها قصص آخر، تتعاون كلها ، فى وحدة تامة للإيمان بالواحد الأحد المعبود الحق، الذى خلق الكون ، وهو قادر على بعثه ، وكل من قصة أصحاب الكهف ، وأهل الصفة ، وصاحب الجنة ؛ وقصة العبد الصالح وموسى عليه السلام ؛ وقصة ذى القرنين . على الرغم من روابط الوصل بين القصص جميعاً ، فكل من ذلك قصة يمثل فى ذاته وحدة تصويريه تامة ؛ تدخل فى إطار الصورة العامة للسورة . وصورة أصحاب الكهف واحدة منها ، وهذه القصة من القصص القرآنى ، الذى لا يخضع لمقاييس القصة عند النقاد فى أى عصر سابق أو لاحق ، لأنها تتبدل بين وقت وآخر، وتختلف فى نظر الأدباء والنقاد، فقد يروج بعض المقاييس عند بعضهم ، ويسقط البعض ، فعنصر الحل من مقاييس القصة عند بعضهم ، ولا يعترف به البعض الآخر لتذهب النفس فيه كل مذهب ؛ وهكذا فى بقية المقاييس(١) .

أما القصة فى القرآن الكريم ، فلها طابع متميز ، يسمو بها عن كل المقاييس التى تعلو حينا وتهبط أحيانا ، ومن يتأملها ويلهمه الله الصواب يجد فيها كل الأسس لبناء القصة الطويلة أو القصيرة ، وفوق ما يتصوره الإنسان من مقاييس لأروع القصص وذلك ما نشعر به إزاء أية قصة منه ، حين نتأملها ونقرؤها على مهل ، « إن هذا لهو القصص الحق » « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ؛ « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٢) .

---

(١) الفن القصصى فى القرآن الكريم د/ محمد خلف الله وغيره .

(٢) فصلت ٤٢ .

والصورة القرآنية فى قصة أصحاب الكهف تمثل فى ذاتها وحدة كاملة لكنها تضم فى إطارها العام صوراً جزئية تسير جميعها نحو الغاية منها وليس المقصود عندى من الصورة الجزئية ما تعارف عليه النقاد فى النقد ـ وخاصة القديم منه ـ من تشبيه واستعارة ومجاز ومرسل وغيرها ؛ بل هى أعم من ذلك ؛ فأحياناً تضم بعض وسائل البيان السابقة مع غيرها من عناصر الصورة الجزئية ؛ وتعد عندى صورة جزئية ؛ وقد تخلو بعضها منها مع وجود عناصر الصورة الجزئية كلها أحياناً ؛ وتعد صورة جزئية كذلك ؛ وليس المقصود بها النظم الذى انتهى إليه عبد القاهر الجرجانى(١) فى النقد القديم ؛ بل أعم من ذلك ؛ فهناك عناصر أخرى تكون مع النظم فى تكوين الصورة الجزئية كاللون والحركة والموقع وغيرها(٢).

هذا ما نقصد به من الصورة الجزئية ؛ التى تتكون من تشخيص الفكرة فى الحرف والكلمة فى ذاتها ؛ وفى موقعها من التركيب ذاته وما وراء ذلك من إيقاع وموسيقى وظلال وألوان ؛ وما تموج به من حياة نابضة ؛ وحركة وامضة .

تأمل : فى قوله تعالى : إذا أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ؛ فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ؛ فترى أنها تصور فرار أصحاب الكهف فى سبيل الله من الملك وأعوانه الذين جدوا فى القضاء عليهم وقد فاضت قلوبهم من الرعب والخوف ؛ والسرعة فى البحث عن المأوى تقتضى وسائل فى التعبير تتواءم معها ؛ فإيثار « إذ » على « حين » أنسب ؛ مع أنهما فى الظاهر بمعنى

---

(١) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى .
(٢) انظر فى الصورة الأدبية تأريخ ونقد . للمؤلف الحلبى — القاهرة ١٩٨٤ .

واحد . لأن الأولى أدق من الثانية من حيث المعنى ؛ فتدل على قصر الوقت والتحقق منه ، بينما يوهم « الحين » طول الوقت ، وعدم التحقق من القصر فيه ؛ ومن حيث المبنى : فموسيقى الأولى سريعة حيث يتبع السكون الحركة مباشرة ، بينما تجتمع فى الثانية حركتان بينهما حرف لين ممتد ينقطع معه النفس ، وكذلك الأمر بالنسبة لفعل « أوى » بمعنى « لجأ » ، والأول أنسب لأنه يدل على السرعة ، من حيث المعنى : فتدل على الوصول فى تلاحق بينما « لجأ » تدل عليه فى تؤده ، ومن حيث المبنى : فالإيقاع الكلمة فى الحركات الثلاث المتتابعة يدل على التلكؤ فى الوصول بالإضافة إلى حشرجة الجيم المعطشة المعجمة التى ينوء الفم بثقلها امتلاء بها أثناء النطق ، وكفى بذلك بطئاً ، بينما الإيقاع فى « أوى » شبيه بكلمة « هوى » معنى ومبنى ؛ حيث تتابعت حركتان فقط مع اختفاء الحرف الثالث — وهو حرف لين — فى وصل الفعل بما بعده « أوى الفتية » ومع سيولة الحرفين (أ — و) من مخرجيهما : وهذا أدل على السرعة من غيره ، وفوق ما تومض به « الفتية » من معنى الشباب والنضارة ، وتدفق البذل والكرم فى سبيل نصرة الحق ، وطراوة شبابهم فى سرعة الاستجابة لربهم ، والصلابة والقوة فى جانب الباطل ، وفوق هذا تخلع عليهم صفة الولاية التى امتن الله عليهم بها ، فالشباب هو موضع العجب منهم ، مع أنه موطن الانطلاق والغواية والتهور ، لكن عقيدتهم راسخة ، وإيمانهم لا يتزحزح ؛ وليس هذا غريبا عند الشيخ إذا بلغ مرحلة التعقل والرزانة والتجربة والقرب من الموت غالبا ، ولذلك جاء فى الحديث : « يعجب ربك من شاب ليس له صبوة » وأيضاً من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : « وشاب نشأ فى عبادة الله » ثم ما يوحى به اللفظ من عدد

أبطال القصة ، فهم دون العشرة ، لأن العرب استعملت « فعله » فى جمع القله ، والقرآن نزل بلغة العرب : ثم تأمل الإنصباب فى إيقاع الدفقات المتتابعة ، فى كل دفقة حركة فسكون ، مثل سكون الوصل بعد حركة الفاء ثم تتابع حركتين فى سرعة لوصول الفتية إلى الكهف فى آخر دفقة وهذا الإيقاع الموسيقى يدل على سرعة توفيق الله لهم فى تهيئة الكهف الذى سيحفظهم فيه ، وما أروع التعبير بالفاء « فقالوا » بعد سرعة الوصول ، فإنها تدل على أن الرعب مازال يملأ صدورهم ، وأن الخوف مازال يخيم عليهم حتى فى الكهف ، وذلك لأنهم حين نزولهم فيه دعوا الله مباشرة من غير تريث ، فالمأوى الحقيق عندهم هو الله لا الكهف وهو ما يوحى به الترتيب من السرعة فى معنى الفاء ، وما أن التفتوا إلى الله بالدعاء إذا بأنفاسهم المتلاحقة تهدأ خاشعة فى الطلب، وقلوبهم خاضعة للنجدة والاستجابة ، ونرى هذا الهدوء وتلك الخشية ، فى بطء الشدة على الباء ومد النون بالألف ، والزيادة فى مد الألف إلى ست حركات لوقوعها قبل الهمزة ثم المد الطويل فى الهمزة أيضاً ، ثم المد فى النونين بالألف فى « ربنا آتنا » ، وكذلك التشديد على اللام ، ثم ما توحى به الغنة النابعة من التنوين لوقوع حرف الواو بعده الذى يقتضى غنة يمتد معها النفس ويهدأ إليها القلب فى : « من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً » ، وامتداد النونين بالألف بعدهما ، هذا كله يدل على كمال التضرع والخشية لله وحده ، وخاصة إذا أعان على ذلك معانى الكلمتين : رحمة ، ورشداً ، وكلاهما من عند الله . وما أكرم عطاءه الواسع ، الذى يتجدد فى كل حين ، وهو ما يدل عليه التنكير والتنوين فيهما معاً . فالا تساع والشمول فى التنكير ، والعظم والتكرار فى التنوين ، ومما ساعد على

التنكير والتعظيم والتجدد . فى نسبة الرحمة لله « من لدنك » ، والتنصيص على تخصيص ذلك بالله ، وذلك فى « لدى » حيث غلب استعمالها فى جانب الله على عكس « عند » فقد شاعت فى الاستعمال على السواء ، قال تعالى : « وعلمناه من لدنا علماً » ؛ ثم فى تقديم الجار والمجرور على الرحمة والرشد ما يوحى بشدة حاجة الفتية إلى ذلك ، وبمدى سعادة النفس بنعمة امتن الله عليهم بها بعد لأى . لتتمكن فى أنفسهم أيما تمكن ، وبعد تمكن النوم منهم وهو رحمة بهم ، فهل ينتظرون نعمة بعد ذلك ؟ « فضربنا » الفاء بعد التضرع فى الدعاء تدل على منزلتهم عند الله من الولاية ، حيث استجاب لهم بسرعة ، يدل عليها معنى الترتيب فى الفاء .

ولكن هذه الولاية دون درجة النبوة ، بدليل التعبير بالضرب لما فيه من معنى الإيذاء ونوعا من العقاب ، لأن درجة النبوة لا تدفع صاحبها إلى الهروب فى الكهف ، إنما يصر فى دفاعه عن عقيدته إما أن ينتصر وإما أن يموت شهيداً وكلاهما أعظم مرتبة من الولاية التى يسعى إليها عباد الله فى اتجاههم الروحى ونبوتهم أو ولايتهم أمر اختلف فيه المفسرون والله تعالى أعلم بمراده .

وسلط الضرب هنا على السمع ، لكونه أبلغ فى النوم من الضرب على العين ، فقد تتناوم العينان وصاحبهما يقظان ، ولا تتأتى ذلك بحال فى حجب الأذن عن السمع ، اللهم إذا كان صاحبها أصماً ، ثم ما يوحى به الضرب فى معناه من حيث الشدة والإحكام والتمكن والعقاب أو فى مبناه : حيث يوحى الإيقاع فى الحركة والسكون فقط وقض الضاد ، بالسرعة وقوة التمكن والتحكم : وما أروع تصوير النوم بحرف « على » الذى يدل على أن نومهم — على الرغم من طول المدة — ليس موتاً ، لدفع الإيهام

بحرف واحد يدل على الاستعلاء والمجاوزة ، بمعنى عدم التمكن كالنوم الذى يشبه الموت ، وبجانب ذلك يدل على قدرة الله عز وجل وهو القاهر فوق عباده وإذا كان الموت لم يتمكن منهم ، فقد تمكنوا هم ـ وكأنهم أحياء ـ من الكهف أيما تمكن كتمكن الظروف من المظروف ، ولذلك حسن التعبير بحرف « فى » هنا كما حسن التعبير بالحرف السابق هنا لتصوير نومهم فى الكهف تصويراً دقيقاً .

ثم ما أعظم الدلالة على الكثرة والعظم بالنسبة لكلمة « سنين » التى أفادت ذلك عن طريق الصيغة وعن طريق الجمع ، وعن طريق المعنى ، وعن طريق الإيقاع من حيث الإمتداد الناشىء عن حرف المد « الياء » ولكلمة « عدداً » التى لا يعبر بها إلا عن الكثرة فى السنين ، ثم ما يوحى به الإيقاع فى تتابع الحركات الثلاث وتكرار حرف « الدال » من كثرة السنوات ثم سرعتها فى جانب الله عز وجل ، وإن كانت بطيئة فى جانب البشر .

ومن عناصر التصوير القرآنى فى تصوير النوم بالحجاب والضرب فكلاهما يشخص النوم وهو حالة غامضة ـ فى محسوس تدركه النفس من منافذ الإدراك المختلفة ليكون أشد تمكناً فى النفس ، حيث إن المحسوس أوثق اتصالا بها وأسرع من المعنى المجرد الذى يستقر فيها بعد لأى ، ثم ما لا يخفى عليك من اللون والحركة والتجسيد والشكل فى الحجاب المضروب على الوجه .

وتأمل قليلا مع قول الله تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا

مرشداً ، ترى نفسك تستحضر بالصورة المشهد الرائع فى الكهف حين يتعاقب عليه الجديدان الليل والنهار ، أو تنقلك هذه الصورة إلى مكان المشهد وزمنه إلى الموقع هناك لتشاهد ذلك عن قرب ، لفظ واحد «ترى» يصنع هذا الإعجاز ، فهو يستحضر المشاهد لينقله إلى المشاهد ، حيث يبصر بعينيه موقع الكهف من سطح الأرض ومكانه من خطوط العرض والطول. وموضع الباب منه ، فى أى جهة من الجهات الأصلية ؟ ومدى اتساع الكهف أو ضيقه ، وموقع الفتية منه ، وتحديد مضاجعهم فيه ثم برج الحراسة وموقعه من الكهف ثم عوامل التدفئة التى تساعد على النوم الهادىء الثقيل ونوع ذلك الغذاء الربانى ، ثم حركة التوفيق فى هذا الموقع الدقيق الذى حفظ عليهم أجسادهم وأرواحهم ، وماء الحياة الذى كان يجرى فى عروقهم .

فالرؤية البصرية ، وظهور الشمس : وشروقها ، وغروبها والتحقق من كل ذلك وهو المستفاد من لفظ «إذا» التى تفيد تحقق الوقوع ، كل هذه الأجزاء تؤكد صفاء الجو ، وبروز الشمس طول اليوم فى مدار السنة . وفى هذا تحديد لموقع الكهف من سطح الأرض حيث يقع فى منطقة لا تغيب عنها الشمس طول العام غالباً ، ولا يحدث مثل هذا فى القطبين الشمالى والجنوبى ، ولا فى خط الاستواء لكثرة الأمطار طول العام واحتجاب الشمس خلف الغمام ، ولن يكون حول مدار الجدى لتواتر الأخبار فى أن هذه المنطقة لم تكن موطناً للرسالات السماوية ، ولم يبق إلا موقعاً واحداً حول مدار السرطان وهو الموقع الجغرافى الذى يغلب فيه صفاء الجو وظهور الشمس ، وهو موقع الكهف الدقيق من الأرض

ولا يضير كثيراً فى موقعه أن يتحرك قليلا نحو الشرق فى طرسوس الشام أو الغرب فى طنجة المغرب ، وليس موطناً للرسالات على خلافات بين المفسرين .

أما موقع الباب من الكهف فهو فى الشمال مائلا إلى الشرق قليلا وليس مائلا إلى الغرب كما يقول بعضهم (١)، لأن الشمس تصيب موقعا من الباب أثناء الشروق، فالميل فى « تزاور » وخاصة فى قراءة التشديد على الزاى يدل على تسرب بعض أشعة الشمس نحو الباب لفترة غير قصيرة حتى تتجه الشمس ناحية الجنوب فتمتنع تماما عن الباب، فالميل رجراج بين المنع وعدمه، حيث لا تدخل الأشعة الكهف، ولا يحرم بابه منها، بل يصيب منها قدراً معيناً، على العكس وقت الغروب فأشعة الشمس لا تصل داخل الباب قطعا، لأن القطع والترك فى « تقرضهم » يؤكد عدم الوصول إذ يكون ظل الكهف ناحية الشرق كاد أن يكسو باب الكهف من بعد الزوال ولو قليلا، وكلما مالت الشمس نحو الغرب زاد الظل وعم الباب وما حوله.

وليس من الممكن أن يكون القرض هنا بمعنى العطاء لأن الله سبحانه وتعالى نفى ذلك بذكر حالهم وقت الغروب مباشرة لا الشروق، حيث قال تعالى وهم فى فجوة منه بعد الغروب مباشرة، أى فى بعد عنها، وكيف يلتقى البعد والمنأى مع العطاء والوصول؟

ثم انظر التشخيص الحى فى تصوير الشمس لأفعالها الثلاثة الذى ساعد على إبراز العناصر فى التصوير القرآنى من لون وحركة، والظلال الباهتة حول الباب، والأضواء المتكسرة فيه، وموقع الكهف وسعته، وصفاء الجو، ونسيم الحياة ولطف الطبيعة وسحرها، ورائحتها التى تفوح، فتعطر الكهف، وتشم منه رائحة طيبة من الفتية الأحياء، وغير ذلك من عناصر

---

(١) المنهج الحديث : الدكتور عبدالغنى الراجحى ٥٠ فيرى أستاذنا أن الباب يميل نحو الغرب، وتبع فى ذلك الرازى فى تفسيره الكبير.

التصوير التى انبعثت من كل حرف وكلمة مضت ثم التشخيص الحى فى (طلعت – تزاور – تقرضهم) حيث جند الله من الشمس كائناً حياً يحمى أولياءه من عوامل الفناء فى الطبيعة ويحفظهم من عاديات الزمان وأهله ، فقد كان ذلك القدر الذى وصل إلى الباب من أشعة الشمس يكفيهم لتدفئة الجسم ، ويغنيهم عن الغطاء ، ويساعد على إمدادهم بالطاقة الحرارية . التى تمكنهم من التقلب ذات اليمين وذات الشمال ، لتنأى يد البلى عنهم ، ويهدأوا فى نومهم . ولو تمكنت الأشعة من الوصول إليهم وهم نائمون ، لأقضهم برق الضوء فى مضاجعهم ، ولقضت عليهم الحمى من وهج الشمس ، ولأبصرهم العادون بكشافاتها المضيئة .

ولذلك كان توفيق الله لهم فى هذا الكهف بمعالمه السابقة دليل على قرب منزلتهم من الله ورضاه عنهم : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » ، وهذا الصنيع آية من آيات الله العجيبة . وما أكثرها وويل لمن يتخل الله عنه فلن يجد من دون الله ناصراً يسدد خطاه ويوفقه للحق والصواب ، فالفتية كانوا فى متسع من الكهف ، وفى جانب منه فقط ، ومع ذلك فكل واحد منهم فى مضجعه على سعة بحيث يتمكن من الحركة والتقلب من غير أن يضايق جاره فى منامه ، إذ يوحى قوله تعالى : « وهم فى فجوة منه » بذلك ، فهم فى منأى عن الباب ، وفى متسع من الكهف ، وعلى سعة فى المضاجع ، وبعد عن الأنظار ؛ وعود الضمير فى الجار والمجرور على الكهف لا على الباب دليل على السعة والامتداد فيه ؛ فما أدق هـذا التصوير فى تحديد المواقع والمكان والزمان والأحوال ، وما أروع الإعجاز فى التصوير القرآنى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » .

فهما بلغ العباقرة فى فن التصوير والرسم حين يخلدون لوحاتهم الفنية باستغلال وسائل التعبير ومواد التصوير ؛ فلن يبلغوا ما أبدعه الحرف الواحد من دقة التصوير القرآنى ، وتمام عناصره هنا مع أن الكلمة ليست لونا ولا ريشة ولا لوحة ، ولا مقاييس هندسية لكنها وسيلة من وسائل الإفصاح باللسان . إنه القرآن الكريم ؛ الذى خلد أصحاب الكهف وجعلهم أحياء . (١)

«وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً» .

إنهم بالتصوير أحيـــاء لا أموات ، وفى ملامحهم أيقاظ لا رقود والحسبان هنا يدل على الترجيح بين النوم واليقظة ، وتغليب أحدهما على الآخر ، لا كالحسبان هناك وقد أوضحناه ، إن كل مظاهر الحياة فيهم تدل على اليقظة ، وتتابع الحركة تدل على الانتباه ، وتقلبهم يميناً وشمالا يدل على تمام الوعى عندهم وافتراش كلبهم على باب الكهف يحرسهم ويؤكد فيهم الحذر والترقب من وراء الحارس ، فالدم الذى يسرى فى عروقهم ودقات القلب التى تسمع صداها يتردد فى جوانب الكهف ؛ حيث لا صوت هناك إلا دقات قلوبهم ، وعيونهم تسبح خلف الأجفان فى ملكوت النفس ا وشعورهم تبرق بوميض الحياة ، وثيابهم مازالت كما كانت وقت الدخول وكتابهم ينتظر دور من يطالعه ، وفضتهم أخذت بينهم موضع الملاحظة والمراقبة منهم ، كل ذلك يدفع الناظر إلى الجزم بأنهم فى حالة بين اليقظة والنوم ، لا هم نائمون ، ولا هم يقظون .

ويؤكد الأمر أن الكلب آنس بهم ، والكلب لا يأنس بصاحبه إلا أحس بأنه يقظان عند ذلك يجلس بجواره ليداعبه حيناً ويغفو أحيانا

(١) انظر فى ص ٧٦ خريطة موقع الكهف من سطح الأرض وموقع باب الكهف حسب التصوير القرآنى المعجز .

أما إذا أحس الكلب بنوم صاحبه ، فإنه يتركه ليحرسه خارج الكهف وهو يجرى هنا وهناك ، مرة ينبح ، ومرة يتخيل إنساناً يهجم عليه . وهكذا يكون الكلب فى يقظة تامة وحركة دائبة خارج البيت حتى يستيقظ صاحبه فيأنس إليه ويداعبه من جديد ، ولكن الكلب هنا يجلس داخل الكهف وعلى قرب من بابه ، لا فى الخارج ، وفوق هذا فهو ليس بنائم فقد فتح عينيه ، وليس بمضطجع ، فهو باسط ذراعيه نحو الباب ، يأنس إلى أصحابه من جهة ، ويراقب هو خارج الكهف من جهة أخرى ، وفى توفز وحذر ، ويقظة واستغراق فى أمر فريسته :

منظر رهيب ، أضفى على الكهف هيبة وجلالا ، وريبة وبلاء ، بحيث لو أشرف عليه إنسان عن بعد لولى هارباً ، وإنه لا يستطيع أن يشرف عليهم من قرب ، فالمنظر مريع ، وهذا المعنى يوحى به لفظ « اطلعت » ويوحى به أيضـــا معنى التعليق والشرط فى « لو » حيث يترتب وجود الجواب على تحقق الشرط ، وتحقق الشرط بعيد ، وهو الاطلاع .

والإشراف عن بعد ، والدقة فى تصوير الكلب هنا تدل على ضخامته وعظم هامته ، وامتداد ذراعيه ورحابة افتراشه ، وهذا ما توحيه كثرة المدات وحروف اللين فى تصويره ، مثل الألف والغنة الناشئة عن التنوين فى « باسط » والألف و كسر الهاء فى « ذراعيه » ، والياء وجودة الوقف فى « الوصيد » ، من يرى ذلك ؟ يتسابق الخوف والفرار إلى نفسه ، وكلما أمعن فى الجرى ازداد الخوف ، وهكذا حتى يمتلىء القلب خوفا فكأن أول الخوف قد وقع عند الرؤية ، ثم أعقبه الفـــرار ، وفى أثناء ذلك يتضاعف ويزداد حتى يملأ القلب ، وهذا يدل على أن المنظر رهيب : فلو كان دون ذلك لحدث الخوف من غير مصاحبة الفرار ، أو حدث

من غير امتلاء القلب بالفزع والحذر ، وتقـــديم منهم على « الفرار والرعب » دليل على أن الرهبة فى ذاتهم ، وأن الخوف من منظرهم ملامسة التصوير فى الواقع ، لا أن الله ينزل الخوف حينذاك ، وهـذا أدل على قدرة الله حيث يوائم بين مناظر الطبيعة ، وهى أمر عادى بالنسبة للإنسان ، ويجعل من هـذه المواءمة بين ما هو عادى معجزة أو كرامة تحفظ الأولياء من عاديات الزمن ، وكذلك فإن تأخير الفرار والرعب فى نهـاية التعبير ، يدل على أنهما بلغا من النفس مبلغا لا مطمع وراءه ولا نهاية بعده ، ثم ما أدراك بمعنى التولى والامتلاء ؟ الذى يؤكد بلوغ الغاية فى الفرار والرعب ، ما أبدع الأعجاز فى التصوير القرآنى ؟

هذه بعض نمـاذج من الصور القرآنية العجيبة عرضناها بنوع من التفصيل ليكون فى ذلك دلالة واضحة على الإبداع فى بقية الصور التى تتكامل معها فى تكوين الصورة الكبرى لأصحاب الكهف ، ولـكى يتم النظير عن نظائره والجميع قد أدى دوره فى الكشف عن أصحاب الكهف الذين وقفوا وحدهم لإيمانهم بالله فى وجه الملك ومملكته حيث أراد منهم أن يكفروا بربهم ويعبدوا أوثانا من دونه ، فرفضوا ذلك وخرجوا من مجلسه يبحثون عن مأوى يحفظهم من كيد الملك دقيانوس . الذى جد فى البحث عنهم ليقتلهم ، لـكن الله استجاب لدعائهم لحفظهم وأيدهم بنصره فنزلوا فى الكهف وناموا فيه ثلاثمـائة سنة وتسع سنين ثم بعثهم الله ليسجلوا آية أخرى لأهل المدينة التى بعثوا فيها ، حيث أنكر بعضهم البعث أمام ملكهم الصالح . فدعا الله أن يريه آية فى الأحياء والبعث يرد بها كفر هؤلاء . فاستجاب الله دعاءه .

وبعث الله أصحاب الكهف ليكونوا آية ، وحين عرف الملك الصالح

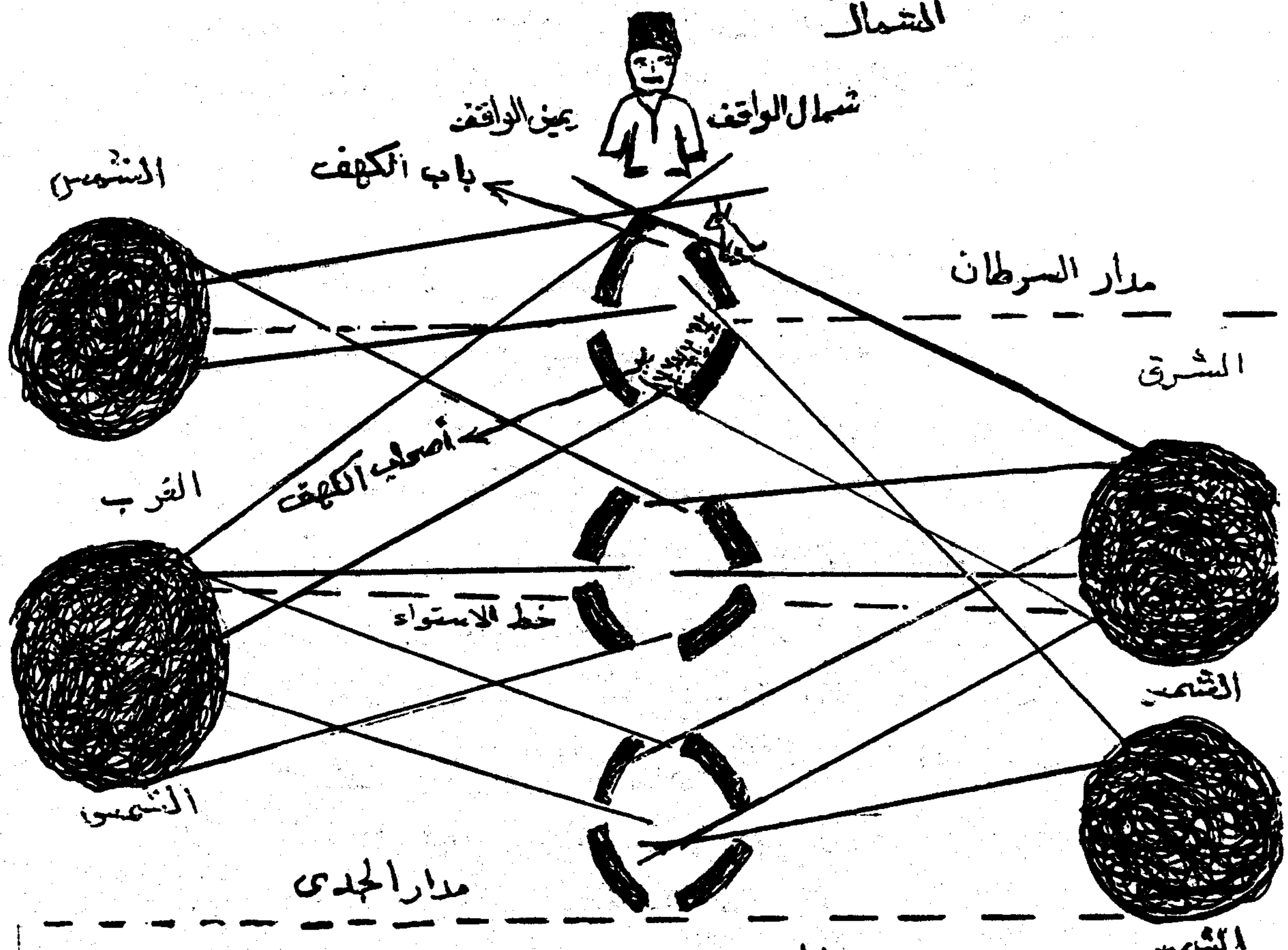
وقومه أمر الفتية لما خرج أحدهم إلى المدينة ليشترى طعاما لهم بعملة زمانهم ، حمدوا الله جميعاً على ذهاب دولة الشرك وإحلال دولة الإيمان بعدها ، فكان ذلك آية ثالثة للفتيه لتأكيد صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فيه عند ذلك دخلوا الكهف فماتوا جميعا ، فاختلف القوم مابين من يسد عليهم باب الكهف — بحاجز من بناء — وبين من يتخذ عليهم مسجدا يليق بولايتهم ، والله أعلم بما صنعوا إذ لم يكن فى القرآن نص صريح يؤكد ما صنعوا ، والذى معنا يدل على مجرد الحوار والنقاش فى أمر البناء .

وقد اختلف القوم فى عددهم فهم دون العشرة وذكر ابن عباس رضى الله عنهما أنهم سبعة وثامنهم كلبهم وهو ما انتهت إليه الآية فى العدد. وفى نهاية ذلك عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم على عدم تعليق إجابة القوم بمشيئة الله . وعاتبه كذلك على شدة حرصه لإسلام زعماء الكفر من عتاة مكة . والذين طلبوا منه ﷺ أن يكون لفقراء المسلمين . مثل بلال وصهيب وابن مسعود رضى الله عنهم وغيرهم مجلسا على حدة ويعقد لهم — أنفة منهم — مجلسا آخر على حدة . فقال تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وأوصاه بهؤلاء الفقراء أهل الصفة ؛ ليجالسهم فى كل وقت ، ويترك مجالسة زعماء الكفر : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ».

وشاءت المناسبة أن يأتى ما نزل فى أهل الصفة عقب قصة أصحاب الكهف لاتفاقهم فى الحرص على الإيمان بالله وحده . ونبذ ما عداه والتقائهم فى الجانب الروحى ؛ فهم يخشون الله ولا يخشون أحداً سواه .

وأصحاب الكهف وأهل الصفة هم جميعاً فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى(١) :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » .



[ترى - طلعت - تزاور - تقرض] كلمات حددت موقع الكهف وبابه | أصحاب الكهف

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ٣/ ٧٤ ، ٨٠ نقلا عن محمد بن إسحاق.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

قال تعالى :

وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً ، قال إنك لن تستطيع معى صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ، قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً ، فانطلقا ، حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ، قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان

وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ؛ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفراً ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً(١) .

قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح :

قال سعيد بن جبير لابن عباس رضى الله عنهم : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل ؛ فقال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنى أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه: إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ؛ قال موسى : يارب كيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى أتيا الصخرة ووضعا رأسيهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه ، فسقط فى البحر ؛ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ؛ وأمسك الله عن الحوت جريه فى الماء ؛ فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلق بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغد ؛ قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ؛ قال « ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذى أمره الله به ؛ فقال له فتاه : أرأيت إذ أوينا

---

(١) سورة الكهف : ٦٠ : ٨٢ .

إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ، قال : فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال موسى : ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا .

قال : رجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فاذا رجل مسجى ثوبا فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام قال : أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ، قال : نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً . قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ، ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه ، فقال موسى : ستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصى لك أمراً ، فقال له الخضر ، فإن تبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمراً .

قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ، قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ، قال : وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر ، ما علمي وعلمك من علم الله ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة ، فبينما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه فقتله ، قال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ،

قال: وهذا أشد من الأول، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض قال: مائل: فقام الخضر فأقامه بيده؛ فقال موسى: قوم آتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال: هذا فراق بيني و بينك إلى قوله: ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا، فقال رسول الله ﷺ وددنا أن موسى كان صبوراً؛ حتى يقص الله علينا من خبرهما (١).

من معاني المفردات :

لا أبرح : ألزم ؛ ولا أزال سائراً، ولا أفارق السير ؛ وأواصل . مجمع البحرين : ملتقى البحرين قيل هما : بحر القلزم والروم، أو بحر فارس والروم وقيل غير ذلك . أمضى : أقطع ؛ وأسير . وأمشي ، وأبلغ . حقباً : الدهر، وزمناً غير معين . الحوت : أحياه الله عند الصخرة ليذكر موسى بالخضر وإحياؤه معجزة له . سرباً : سبوحاً ، وسلوكا ، وانحداراً في البحر . النصب : التعب ، والجهد . عجباً : أعجب عجبا ، فالعجب بالنسبة لموسى وفتاه ، والسرب بالنسبة للحوت في البحر . نبغ : نريد ، ونتطلب ، ونتمنى ، ونهدف . ارتدا : رجعا . وفكرا ، وتابعا سيرهما . لدنا : أي من عند الله وخاص به ، علم يعطيه الله لمن يشاء ، لذلك قال الله في الرحمة من عندنا ، وقال في جانب العلم : من لدنا علماً . له : الضمير يعود على الخضر. تحط : تدرك وتعلم ، وتشمل، ويضم . خبراً : علما ومعرفة. أحدث : أذكر ، وأعرف . فانطلقا : مشيا وسارا على البحر . خرقها :

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٩٢/٣ : ٩٤ ذكره البخاري في صحيحه : باب العلم .

خلع منها لوحا ، ثقبها ؛ عطبها وشوه منظرها . شيئا إمرا : فعلت شيئا داهية ، من قولهم : أمر الأمر إذا اشتد وادلهم . ترهقنى : حمله مالا يطيق قرب منه ، كلفه أمراً صعبا . عسرا : صعبا ، وشديدا .

الغلام : الصبى ، والبالغ ، والشاب . فهو من الغلمة : أى الشبق والحاجة إلى النساء . والمقصود به غير البالغ بدليل الوصف « نفساً زكية » أى طاهرة من الذنوب بغير نفس ، لا قصاص عليها فالصبى غير البالغ لا قصاص فيه ، أو بغير دليل يبرر القتل . شيئا نكرا : ظاهر النكر ، ومجهولا وخارجا عن المعروف ، وفظيعا ، وينكره العقل والشرع . بلغت : حصلت ، وعلمت ، واستحققت . من لدنى : منى مباشرة : من ذاتى ونفسى . عذراً : مبرراً للمفارقة ، ودليلا ، وحقاً .

استطعما : طلبا الطعام ، وظهر عليهما أمارات الجوع . ألحا فى الطلب يضيفوهما : من استضاف ، وأضاف ، وضم ، وجعلوهما ضيفين . ينقض : يميل ، ويقع ويسقط ويقرب . أقامه : رفعه ، وثبته ، وبناه . اتخذت : أخذت ، وصنعت ، وطلبت ، واستحققت . تسطع : تقدر ، وتصبر ، وتنهض به وتعلم . المساكين : والمسكين : ضعيف الجسم ، وقليل المال ، وساكن الحركة ، لا يقوم بشىء . غصبا : ظلما ، وقسوة ، وعنفا . طغيانا من الطغيان هو الغلو ، والفساد ، والكفر . أقرب : أجدر بالرحمة ، وأولى بها . كنزاً : من الاكتناز ، والتجمع ، والذهب ، والفضة ، والمال والكتاب والحكمة . يبلغ أشدهما : بلوغ الحلم . وتضوج العقل ، وإصابة الرأى ، والقوة ، وما بين الثامنة عشرة إلى الثلاثين . عن أمرى : رأيى ، وحالى ، واجتهاد منى ، بل تكليف من الله ، وأمر منه .

الإعجاز فى التصوير القرآنى :

وقعت هذه القصة بعد قصة الرجلين التى دار الحوار فيهما حول الاغترار بالمال والولد . فهما زينة الحياة الدنيا .

وفى قصة الخضر وموسى عليه السلام كان الحوار فى الباقيات الصالحات ، فى العلم الذى يعمق الإيمان بالله علام الغيوب ، وفى الرحلة العلمية أخلص فيها التابع والمتبوع الطاعة لله ، وابتغى فيها الأستاذ عن تلميذه الأجر من الله ، فى هذه المرحلة يصور القرآن الكريم رجلين من بنى آدم الأول هو نبى الله الخضر عليه السلام . رجل آمن بربه فأعطاه علماً من لدنه ليعلمه لمن هو أعظم منزلة منه وأقرب إلى ربه ؛ لموسى عليه السلام الذى أرسله ربه بشريعة لبنى إسرائيل ، فالقرآن حين يصور هذه الرحلة يبدأ التلميذ فى البحث عن أستاذه .

«إذ قال موسى لفتاه لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا» . والرحلة فى طلب العلم تقتضى أموراً لا بد من مراعاتها ، وتستوجب آدابا لا بد من التخلق بها ، وتستلزم أصولا فى التربية وحسن السلوك . ليكون الإنسان أهلا للتعلم ؛ وخليقا بالتأدب ، ومحلا للثقة ، وجديراً بالأمانة ومن أصوله وآدابه :

تحمل المشقة فى تحصيله ، واستعذاب ما يلاقيه الإنسان فى سبيل ذلك مهما كانت المشقة ، والصبر على المكاره وتذليل كل الصعوبات التى تعترض الإنسان فى التحصيل .

إن وقت التعلم شامل قد يمتد فيشمل عمر الإنسان كله .

يستدر طالب العلم السماح من أستاذه ليدخل فى تبعيته ، ويلح فى ذلك حتى يأذن له بحسن الصحبة .

أن يتجمل بالتواضع وحسن الاستجابة ، مستخدما فى ذلك كل منافذ الإدراك فيه .

للتزود بالعلم حق لشرف الصحبة وحسن الاتباع .

من الأجدر بالمتعلم أن يكون منصتاً ، لا متحدثا ولا ثرثاراً .

أن يسترشد بنصائح أستاذه ، ويلتزم ما أمره به .

ألا يبادئه بالحديث والسؤال مادام المجلس قائما والرحلة فى العلم مستمرة

ألا يستنكر على أستاذه أمرا فى هجوم سافر ، ولو كان الطالب على صواب لكنه يعرض رأيه فى هدوء مدعما بالحجة والبرهان ، من غير أن يشعره بلفظ يدل على التهجم والإنكار صراحة .

أن يسارع بالاعتذار حين يشعر أنه قصر فيما يجب عليه نحوه ، ويلح فى ذلك إذا أحس أنه فرط فى تلك الآداب وأصول التربية فى التعليم .

كما يجب على الأستاذ أن يبصر مريديه بآداب التعلم ، وأن يعودهم على الصواب ويرد الصواب فى كل خطأ يقعون فيه لساعته . والا يفارقهم وهم على جهل بمسائل الدرس ، وإذا رأى أن الإفادة تقتضى منه أن يدفعهم فى مواكب الشدة والعنف فعليه أن يفعل ذلك ليختبر نواياهم ويجند استعدادهم للتحصيل والاستيعاب ، ويكرر الاختبار ثلاث مرات ليثبت الطاعة فيه وإلا كان الفراق أولى ، وقطع التعبية أفضل حرصا على الوقت واستخدامه فيما ينفع ، وأن ينسب العلم إلى الله ويرجع الفضل إليه : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »

ومن خلال التصوير القرآنى لرحلة موسى عليه السلام فى التعليم تشخيص لهذه الآداب وتحديد لتلك الأصول فى التربية والتهذيب

فنرى موسى عليه السلام قد تجمل على أحسن ما يكون بآدابه وأصوله فرافقة فى الرحلة خادمه وعبده يوشع بن نون وأضفى عليه أدب العلم أجمل لباس يتحلى به ، وهو لباس الفتى والفتوة والشباب ، فكان يناديه بالفتى موطن الأعزاز فى الإنسان . وأنضر حلقات العمر ، وهو متلاؤم تماما — ولو كان شيخا — مع ما يعهد إليه من عمل ، حيث كانت له مهمة فى الرحلة لا ينهض بأعبائها إلا من هو فى قوة الفتى ، وعنفوان الشباب وهو بهذه الصفة يستطيع أن يواصل السير مع رسول من أولى العزم أخذ على نفسه — ومعه فتاه — أن يظل سائراً حتى يلتقى بأستاذه ولو أمضى العمر كله فى سبيل ذلك ، فما أروع التعبير بالفتى فى جانب تلك الرحلة الشاقة الطويلة ؟ وما أشق رحلة العلم وأطولها ؟ وإنك لتعانى هذه المشقة فيما رسمته الحروف .

فما أكثر حروف المدات واللين فى هذه القصة ؟ وما أكثر المدات نفسها التى قد تصل إلى ست حركات حين تقع الهمزة بعد حرف اللين ؟ وما أكثر الغنات حين تلحق الحرف غنة على نحو ما جاء فى علم القراءات ولا يشكل علينا أن الألف ما جاءت لتصوير المشقة ، لكن لضرورة الإثنينية فى المرافقة لأن التعبير بالمتبوع وهو الخضر يغنى عن التابع ويمضى وراءه سائراً فى ظله أو ينفرد كل منهما على حدة فى التصوير الذى يخصه أو يعبر عنهما بنون المعظم نفسه مثل « ما كنا نبغ » ، وعند ذلك فلا داعى لألف الأثنين ، ولكن الأمر على عكس ذلك حيث يلزم التعبير بها قصداً لتصوير المشقة ، تأمل هذه المدات والشدات والغنات الكثيرة لتصور لك ما ينبغى أن يعانيه المتعلم فى تحصيل العلم :

(قال - موسى - فتاه - لآ - حتى - فلما - بلغا - بينهما - نسيا - حوتهما - فاتخذ - سبيله - فى - سربا) .

وامض على هذا النحو ستجد الكثير من ذلك ، حتى لتضطر أحيانا أن تستعجل القراءة خوفا من انقطاع النفس .

وإنك لتجاهد أيضاً هـــذا الطول فيما صورته الكلمات من حيث المعانى والمبانى ، أما المعانى الضخمة التى صورتها الألفاظ فهى كثيرة فى القصة وعلى سبيل المثال نرى ذلك فى « لا أبرح » بمعنى الملازمة والمتابعة من غير توقف ، وما أشق ذلك على النفس « حتى أبلغ » والبلوغ : هو نهاية الشيء ، وتمام النضج : والتعبير بالحرف « حتى » يجعل البلوغ يشرف على الغاية فيه ، وهذه مشقة فوق مشقة . « مجمع البحرين » والبحر الواحد بعمقه واتساعه ومواجهة المخاطر فيه يضل فيه الإنسان فوق مانعانيه من مشقة فما بالك بالبحرين ؟ والبحث عن موطن التقائهما ، وقد يلتقيان من جميع أطرافهما من ذلك لا يعرف النبي أى المجامع يبغى ؟ لولا أن الله حدد له ذلك بإعادة الحياة فى الحوت ، ثم ما أنسب البحرين للعلم ؟ والعلم بحر لا ساحل له ، ولا منتهى لقراره .

« أمضى » بمعنى أنه سيقضى العمر كله فى تحصيل ذلك ، وأشق شيء على النفس أن تجمع ما مضى فى الزمن الماضى ، وأن تحقق ما خفى فى طيات الزمن المستقبل ، وما أيسر ذلك للساعة التى هى فيها ؟ لكنها تمر كلمح البصر ، على عكس ما مضى وما هو آت .

« حقبا » زمن لا حد له ، والعمر كله ، بل الدهر الذى طوى وسيطوى كل الناس .

« سفرنا » والسفر قطعة من العذاب ، يفنى العمر والجسد كما يطوى الإنسان الأرض بخطواته الوئيدة وهو لا يدرى ما تحفره الأرجل من عمره فى باطنها يوما بعد يوم .

« نصبا » التعب الشديد ، والجهد العنيف ، والمتابعة فى ذلك لتتصل المشقة من انقطاع كالشأن فى « النصب » وهو الجسم المتصل الأجزاء .

« أوينا إلى الصخرة » ولم يكن اللجوء إلى السهل من الأرض ، وكان ذلك فى الإمكان حتى لا يتجشم موسى عليه السلام وفتاه المتاعب : لكنها رحلة العلم ، التى يركب فيها الإنسان أشق المراكب ، ويصعد إليها أوعر الصخور ، لأنه يقدر فى ذلك أن ثواب العلم على قدر المشقة ، والإيواء الذى كان بمعنى السرعة فى قصة أصحاب الكهف أصبح هنا ثقيلا صعبا أشد من اللجوء ، لأنه كان طريقهما للصعود إلى الصخرة وما أشد المعاناة فى ذلك ، إنه الإعجاز الذى يجعل السهل صخرا ، ويحيل السرعة بطأ .

ولو تأملت فى بقية الألفاظ من حيث المعانى لوجدت العجب العجاب وإليك بعض الكلمات لتنظر فيها على النحو السابق .

(أنسانيه — الشيطان — نبغ — فارتدا — لدنا — لن تستطيع — صبرا — أعصى — لتغرق — إمرا — ترهقنى — عسرا — قتلت — فأبوا — جدارا — غصبا — طغياناً — كفرا — تحته — كنز — أشدهما — أمرى) .

وأما المبانى الضخمة التى صورت رحلة العلم الشاقة فهى كثيرة على امتداد القصة منها : تأمل البناء الموسيقى للتصوير القرآنى فى مطلع القصة : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ، فالمعاناة فى الرحلة من معانى الكلمات هنا يؤازرها معاناة أشد من مبانى الكلمات فى مخارج الحروف من حيث موسيقاها وتثاقل الحركات والسكنات عليها ومن حيث إيقاعها ، وتلاحم الأصوات فى المدات والشدات فى ذلك ثم النسق الموسيقى للنظم كله فى الآية .

أما صوت الموسيقى الثقيل فى مخارج الحروف فيتجسم الثقل والمعانى فى حروف الحلق ؛ وما أشقها على النفس فى النطق ؟ وخاصـــة فى أول الأمر ، وهى كثيرة فى الآية الأولى : فتجمع من الحاء أربع ، ومن الهمزة أربع ، والعين ، والغين ومن الحروف الثقيلة فى النطق : الضاد ، والقاف ، ثم المد إلى ست حركات فى « لآ » وفى « حتى » مع للتضعيف فى التاء . وأما الثقل الموسيقى فى الحركات والسكنات فيلتقى فى اجتماع ثلاث حركات متوالية وسطها ضمة « أبرح حتى » ، وما أثقل صوت الضمة بين فتحتين ؟ وكذلك فى اجتماع ثلاث حركات أولها ضمة « أبلغ مجمع » والأشد من كل ذلك فى الثقل ما جاءه فى ختام الآية ، كأنه يبلغ الغاية فى النهاية وذلك فى خمس حركات بينها ضمتان متتاليتان ، وفى ذلك من الثقل فى الصوت الموسيقى ما فيه ؟ : « أمضى حقباً » .

وأما من حيث النسق الموسيقى فى التركيب كله ، فترى نفسك تمشى الهوينى فى القراءة وكأنك تعانى ثقلا بين الكلمات ، ولا تستطيع أن تعجل به حين تحرك لسانك حتى المـــدات الست فى الألف قبل الهمزة لا تستطيع اختزالها أو الإسراع فيها ، حتى اختزال الألف واللام التى تختفى أحيانا فى الوصل ، تراها شاخصة هنا لا تنفلت من اللسان : « مجمع البحرين » ، وكذلك الأمر فى همزة أو أمضى ، فهى شاخصة فى التعبير مع وقوعها بعد همزة بينهما واو ؛ وعاود القراءة فى الآية المرة بعد المرة تزداد ثقلا على ثقل .

وعندما أخذ التعب منهما مأخذاً كبيراً وأقعدهما الجوع عن الحركة ترى الثقل فى الصوت الموسيقى حتى تكاد منه أن تتوقف عن القراءة وينقطع التنفس وتأمل معنى الآية على النحو السابق فى التحليل الموسيقى .

« فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » .

ولما ذكر موسى عليه السلام فتاه بالغذاء ، اعتراهما ما يشبه النسيان من الإبهام ويقتضى الإبهام الامتداد وطول النفس ما شاء للإنسان أن يفكر بعد نسيان مضى عليه يوم وليلة ؛ بعد التحرك من الصخرة . قال: «أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت» إلى آخر الآية .

وتأمل أثناء القراءة ما حدث من التحلل فى موسيقى الآية الأولى . وحين تومض بارقة أمل أثناء ذلك استدعاها الموقف ، تجـــد الإيقاع الموسيقى يسرع كالبرق ، على قدر ما وقع فى نفس موسى من كشف السر ؛ الذى استغرق منه لحظة من الزمن حين علم أن الحوت أحياه الله تعجات الموسيقى بقدر هذه اللمحة فقال : « ما كنا نبغ » بل حذفت الياء هنا فى الفعل من غير داع نحوى فى الحذف ؛ إلا لداع التلاؤم الموسيقى بين صورة العبارة وبين اللمحة السريعة فى نفسه حين تعرف على السر من حكاية فتاه وبعد أن انقضت اللمحة عاد الثقل الموسيقى يجر أذياله مرة أخرى فيما بعد ذلك من آيات وخاصه فى الحوار الذى وقع بين موسى والعبد الصالح عليهما السلام ؛ وهكذا فى بقية آيات القصة .

« فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا

فما أروع التصوير القرآنى فى هذه الآية وفى كل آية ؟ الذى جمع من آى الإعجاز ما يعجز أمامه البليغ حتى يحيط بأسراره ، ومكنون جلاله . مزق موسى عليه السلام وثيقة أستاذه مرتين حين أنكر عليه صنيعه مرة فى السفينة وكانت نسيانا ؛ وحينئذ لم ينكر عليه الخضر النسيان وإنما أراد أن يقرر له ما سبق من عهد ، ويذكره بذلك فى قوله « ألم أقل إنك » فالأولى بالاستفهام هنا أن يكون للتقرير لا للإنكار أو التعجب

على السواء ؛ ولذلك حدد موسى عليه السلام نهاية الرحلة بقوله : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى » الآية فقال محمد ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » ، ومع هذا الخروج عن العهد فى كل مرة كان يخطو بخطى أستاذه خطوة بخطوة ، ويرافقه فى السير على قدم وساق . ويمشيان معاً وكأنه لم يحدث من قبل تمزيق ولا نسيان ولا عتاب وهذا ما يفيده معنى الانطلاق والتسوية فى همزة التثنية ، وخاصة فى المرتين الأخيرتين ؛ وهو ما ينبغى أن يكون عليه الأستاذ مع تلميذه ينزل إليه ويسوى بينه وبينه ما دام فى حلقة الدرس تتكسر الحواجز فى منافذ الإدراك ، فتصل إليه المعلومات زاكيه من غير تهيب أو خوف .

وفى القرية دفعهما ألم الجوع إلى طلب الطعام من أهلها ، وكما كان جوع موسى فى البداية سببا فى تذكر الحوت ، وفى نهاية البحث عن الخضر كان الجوع أيضا مصاحبا لنهاية الرحلة العلمية معه ، فما أنسب الجوع هنا وهناك فى البداية والنهاية ؟ للدلالة على تعطش الإنسان للعلم ومبلغ الحاجة إليه فهو لا يقل عن الطعام فى حفظ الحياة ؛ وجاء ذكر القريه بجانب الضيافة ، وذكر المدينة بجانب تغيير الجدار فى الآية الأخيرة من القصة ؛ للدلالة على الشأن فى القرى من كرم الضيافة ، والشأن فى المدينة من التعمير والبناء والصناعة والتشييد ، لكن أهل القرية كانوا فى غاية البخل ، ونهاية الحرص ، وهذا ما يدل عليه ذكر لفظ الأهل دون ضميره فى « استطعما أهلها » ، وكان يكفى هذا الإضمار : « استطعماها » لئلا يعود الضمير على القرية ؛ وهى لا تستطعم إلا حين التأويل فقط ؛ فى أهلها ، أو يعود الضمير على الأهل ، وفى عودته إبهام قد ينصرف البخل فيه إلى بعض أهلها دون البعض ، على عكس ذكر الأهل فإنه يدل بذاته

على حرص الجميع وبخلهم ؟ لذلك صور الفعل « فأبوا » الحرص فى أنفسهم ينازعهم حياتهم ؛ وفى الإباء من معانى الشد والأخذ والنزع والنكر ما فيه؟

والحرص فى القرية هو من دواعى إهمال الجدار حتى كاد أن يسقط وهو أيضا من دواعى الخوف على ما تحت الجدار عندما يسقط وينكشف الكنز ؛ وكأن هذا حجة من الواقع فى بناء الجدار ، الذى يشعر ويحس ويحفظ العهد لأصحابه ، ليجود بما يحويه من أمانة لليتيمين ؛ نزعت الحياة من بخلاء القرية فهم لا يستحقونها لشحهم ؛ وسرت فى الجدار حتى أصبح شخصا يجود بما فى باطنه من الكنز للخضر ، فهو أولى بالحياة والبناء من أهل القرية لأمانته وجوده ، « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ، فما أروع التشخيص فى تصوير الجدار ، فأصبح ذا إرادة يتم بها عن مكنونه ، وذا فعل يريد أن يسقط ليدفع الغير إلى أن يعينه فى بنائه وقوام حياته ، كل هذه الحياة التى سرت فى الجدار والتشخيص الذى جعل الجماد إنسانا يشخص فيه قعودا وقياما ، كل هذا جاء من نسق الكلمات ونبضت الحياة فيها متدفقة من التصوير القرآنى فى « يريد » وفى « ينقض » .

. وفى المرة الثالثة يتحول الإنكار إلى عتاب رقيق يكون فى ظاهره نوعا من الإشفاق على أستاذ موسى ، ونوعا من صنع المعروف فى غير أهله ، فأهل القرية بخلاء لا يستحقون الصنيعة ؛ ولا يمنحون عليها أجرا ، يسد رمق الجوع فيهما ، وفى باطنه إنكار وخروج عن المألوف ، وهذا ما دعا الخضر إلى إعلان الفراق ، وقطع المواصلة فى الرحلة العلمية : « لو شئت لاتخذت عليه أجرا » ، وهو تصوير يختلف عن سابقيه فى الإنكار ، فإنكار الصنيع فى السفينة جديد بحدوث العيب فيها ، وما يترتب على ذلك من الغرق

لأهلها وهو إفساد ظاهر ، وإنكار الصنيع فى قتل الغلام إفساد ظاهر أيضا أما بناء الجدار فهو إصلاح لافساد فى الظاهر والباطن ؛ وإن كان فى غير محله عند موسى عليه السلام .

وما أروع التصوير القرآنى في: « فأردت أن أعيبها » حيث نسبت إرادة الخرق إلى الخضر ؛ كراهة نسبة العيب إلى الله سبحانه وتعالى وتنزيها ؛ فهو يريد الخير لعباده ، وإن كان شراً فى الظاهر عندهم ؛ وفى: « فخشينا » ، وفى: « فأردنا » حيث نسبت الخشية والإرادة إلى الخضر دون الإبدال فى « أن يبدلهما ربهما » ودون إرادة البلوغ وفعله واستخراج الكنز فى: « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما » حيث نسبت إلى الله سبحانه وتعالى مباشرة ؛ وذلك للدلالة على تنزيه الله مما كان سيحدث للوالدين من الإرهاق بسبب طغيان الغلام وكفره إذا كان حياً ؛ وذلك الإرهاق لم يحدث لأن الله قضى بقتله رحمة ، ونسبة ما لم يحدث من الخشية لله باطل ، فنسبت النسبة فيها إلى الخضر ، كما صحت النسبة فى الإرادة إليه للدلالة على أنه دعا الله أن يرزق الوالدين خيرا منه ، فاستجاب الله دعاءه — وهو نبى — وأبدله بخير منه زكاة وأقرب رحما ، ولذلك صح نسبة الإبدال إلى الله كما صحت النسبة إلى الله فى رعاية اليتيمين حتى يبلغا سن الرشد ؛ وفى استخراج الكنز لهما بعد ذلك لأن الخضر لا علاقه له بها ولا باستخراج الكنز لهما ، فمهمته بناء الجدار فقط ثم انصرف .

وفى النهاية يعود الخضر بموسى إلى عتاب ربه له فى البداية حين اغتر بعلمه ولم ينسبه لله فى قوله : « ومافعلته عن أمرى » حيث يرد الخضر عليه بهذه الأسرار الإلهية والتى يجهلها موسى إلى الله سبحانه وتعالى ، ليعاتبه هو مرة أخرى ، وليوضح له أن علمه وعلم موسى وعلم الناس لا ينقص

من علم الله « إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر » ، وليعلم موسى أن الله قد يخص بعلمه من يشاء من عباده كالخضر عليه السلام ـ وهو نبي فقط كما هو مفهوم من قوله وما فعلته عن أمري ـ ولا يعلم به موسى عليه السلام وهو نبي الله ورسوله ، وأفضل عند الله من هذا العبد الصالح ؛ الذى خصه الله بهذا العلم الإلهى ؛ فما أبدع التصوير القرآنى فى جانب علم الله باللدنية « من لدنى علما » وفى جانب الرحمة بالعندية « رحمة من عنـــدنا » لأن استعمال « لدن » خاص بالله تعالى غالبا واستعماله « عند » شائع بين الله وخلقه ؛ ولأن الرحمة قد تكون من عند الله وقد تكون فى نفس المؤمن فيرحم أخاه ؛ أما العلم الإلهى فلا يتحقق إلا لله وحده وكذلك حسن التصوير باللدنية فى جانب الله .

وكان هذا منطلقاً لبعض المبالغين من رجال الصوفية حيث يدعون أن علمهم لدنى انكشف لهم عند الله عن طريق رياضة النفس وصفاء الروح ؛ فيعلمون من الغيب مايجهله غيرهم ؛ ولعل ما اتضح من علم الخضر وأمره ؛ ما يرد هذا الزعم ويبطله ؛ والخضر نبى مأمور من قبل الله تعالى

ولو تأملت الفاءات فى قصة موسى هذه ، لرأيت الإعجاز فى تصويرها للمعانى التى تختفى وراءها وهى نفسها فاءات أصحاب الكهف ؛ لكنها على النقيض منها هناك ، فأصحاب الكهف يتعجلون الخطى جريا ؛ ويسرعون إلى الكهف خوفاً من قبضة الملك الظالم ، الذى أراد أن يقتلهم لأنهم على غـــير دينه ؛ لذلك أوحت الفاءات هناك بالسرعة والحذر والخوف يقتضى الترتيب والتعقيب والمتابعة وعدم الفصل وهذا هو معناها فى التصوير هناك .

أما رحلة العلم عند موسى فما أشقها ؟ وما أطولها ؟ « أو أمضى حقباً »

وما أصعب التحصيل فيه؟ وفيم أسراره، ثم ما أشد البحث عن المجهول سواء أكان العلم أو كان الخضر، وفى هذا من الامتداد والاتساع واختفاء الأحداث، وأصحاب المشاهد، ما فيه، وهكذا كانت الفاءات هنا، قد طوت فى حواشيها أحداثا، واحتجبت خلفها مشاهد، وطلت من محاربها أسرار ومجاهل، وفى هذا كله من المشقة والعناء ما يتناسب معهما فى رحلة العلم، وعلى سبيل المثال: فالفاء فى قوله تعالى: « فلما بلغا » حيث أعلم موسى فتاه بالرحلة ووصفها بالطول ولكنه فجأة بعد الإعلان بلغا مجمع البحرين، فانطوى خلف الفاء الاستعداد للرحلة وإعداد الزاد. وتكليف الفتى بحمله وحفظه، ووضع الحوت فى المكتل، وخروجهما من البلد، وقطعهما أشواطا فى السفر وما دار بينهما من حوار، وسوى ذلك حتى بلغا مجمع البحرين، وهكذا احتجبت أحداث ومشاهد كثيرة وما أكثر هذه الفاءات، منها:

(فاتخذ سبيله - فلما جاوزا - فإنى نسيت الحوت - فارتدا على آثارهما - فوجدا عبداً - فإن اتبعتنى - فانطلقا - فقتله - فأبوا - فوجدا فيها جدارا - فأقامه - فأردت أن أعيبها - فخشينا) وسواها كثير.

المصدر الثانى: الحديث الشريف:

من أدب الحديث الشريف

الإسلام والإيمان والإحسان

عن عمر بن الخطاب(١) رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفه على فخذيه . وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة . وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، قال ثم انطلق ، فلبثت ملياً ، ثم قال لى : ياعمر أتدرى من السائل ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم(٢) .

---

(١) الإسلام : من أسلم إذا انقاد وصار مسلما ، والإيمان : التصديق وإظهار الخضوع وقبول الشريعة ، والثقة والأمن.

(٢) رواه مسلم ، وأصحاب السنن ، وجاء فى مسند الإمام أحمد عن ابن عباس وجاء فى الصحيحين وعند ابن ماجه والجامع الصحيح عن أبى هريرة.

حقيقة الإيمان بالله تعالى والتعرف عليه :

فى هذا الحديث الجامع لتعاليم الشريعة الإسلامية تحددت مراتب التعاليم الإلهية ، ودرجات المعرفة التى يمر بها المؤمن مرحلة بعد مرحلة حتى يصل إلى الغاية من الإسلام ، والهدف من التشريعات السماوية للبشر وهى التى تقود المسلم إلى معرفة ربه ، والإيمان به عن يقين وصدق بحيث لا يرى فى الوجود غير الله .

والحديث بمضمونه وبترتيب أجزائه ، وبطريقة عرضه كالشأن فيما ينزل عليه ﷺ من قرآن ، بلغ الغاية ، وأشرف على النهاية فقد اشتمل كل سؤال بإجابته على مرحلة من المراحل التى يمر بها المؤمن الحق فى إسلامه حتى يصل إلى المرحلة التى يكتمل بها الإيمان فى النفس فلا يصح أن يوصف بالزيادة أو النقصان ، وإن صح هذا الوصف فى المراحل السابقة.

جاء جبريل عليه السلام بأمر من ربه ، ليعلم المسلمين كيف يسألون رسول الله ﷺ ؟ وفيم يسألون ؟ وكيف يرتبون الأسئلة ترتيباً منطقياً؟ من الأدنى إلى الأعلى ، ثم يعلمهم المراحل التى يمر بها المسلم فى إيمانه ، حتى يصل إلى درجة الإحسان فى الإيمان ، وهى الغاية التى ينتهى بها المؤمن إلى معرفة الله حق المعرفة ، والرسول ﷺ يوضح فى إجابته هذه المراحل وهو ألا يكشف النقاب عن كل مرحلة بوحى من عند الله وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وجبريل يصدقه فى كل مرة ، حتى تعجب الحاضرون منه ، كيف يسأل ويصدق فى وقت واحد ؟ ويتصاعد معه فى كل مرحلة .

أما المرحلة الأولى : فهى الانقياد والتسليم بما جاء به الرسول الكريم ليدخل الإنسان بها الإسلام ، وتكون له حرمة المسلمين وحقوقهم

وإذا صح التقليد فى الإسلام فإنما يصح فى هذه المرحلة فقط ، إذ معنى الانقياد والتسليم ، هــو الطاعة ، وتنفيذ الأمر بالمعروف واجتناب المنكر ولو على سبيل التقليد ، حيث لم يتغلغل الإيمان فى قلب المسلم ولم يهز أعماقه ، ولذلك فالذين ارتدوا فى حركة الردة كانوا من عرب البوادى . لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولم ينعموا بصاحبة الرسول الكريم كأصحابه فى المدينة فى معظم أوقاتهم ، فهم بعيدون عنـه ، ولو اتصل الإسلام بأعماقهم لمـا ارتدوا عنه ، فقد ينطق المسلم بالشهادتين ويقف بين يدى ربه مصلياً ، ويصوم رمضان ؛ ويؤدى زكاة أمواله ، ويحج البيت ؛ قد يقوم بهـــذه العبادات فى الظاهر ؛ ليكون من جملة المسلمين رهبة أو خوفا أو صونا ؛ وفى هذه الحالة قد حرم نفسه من نعمة الإخلاص فى العبادة وانفصم عن العروة الوثقى فى إيمانه ؛ مما لا تتحقق له إلا بالإحسان فيـه ؛ فالمؤمن : هو الذى يرتقى مرحلة بعـد الإسلام وهى إسلام الوجه لله ؛ بمعنى الاعتقاد الكامل فيما يقوم به من أركان الإسلام ودعائمه ؛ فإذا ارتقى بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة كان هو الإحسان فى الإيمان قال تعالى : «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» .

فاشتملت الآية على مرحلة الإيمان ؛ وهى إسلام الوجه لله ؛ ومرحلة الإحسان فى قوله وهـو محسن ؛ أما الإسلام فهى مرحلة سابقة عليهما لذلك كانت الإجابة عنه فى قول الرسول الكريم بياناً لأركانه ؛ وتوضيحاً لتعاليمه ؛ ليهـذب المسلم بها نفسه ؛ ويصفى بهـا روحه ؛ ويستقيم بحلاوة العمل بها ؛ وكان رد القرآن على الأعراب صريحا بأنهم مسلمون ؛ ولمـا يتجاوزوا مرحلة الإيمان قال تعالى : «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم» .

وإجابة الرسول ﷺ عن الإسلام تؤكد ذلك ، فالنطق بالشهادتين قد يكون باللسان فقط وهو الإسلام ، وهو ما عليه المسلم أول الأمر فى الواقع ، فإذا ما صدق بها القلب ، وامتزجت بنفسه يقينا وصدقا فذلك هو الإيمان .

فالشهادة فى « أن تشهد » تكون باللسان أولا وفى الظاهر ، وكذلك الأمر فى التعبير بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وما أروع التعبير بالمضارع فى كل ذلك إيماء إلى وقوعه فى المستقبل لكى يروض المسلم نفسه عليها . حتى تصير العبادات عقيدة فى نفسه والتأكد من ذلك فى علم الله . فربما يصدق المسلم أو لا يصدق ، ولذلك لم يأت النبى بالماضى لتحقق الوقوع فيه ، ولا ينبغى التعبير به إلا فى جانب الإيمان . وكذلك لم يعبر بمشتقات الأفعال أو مصادرها فلم يقل إقامة الصلاة ، وإيتاء ، وصوم ، وحج ، لأن الإسمية تفيد اللزوم والثبوت وهذا لا يتلاءم مع ضيف جديد على الإسلام الذى يزداد فيه يوما بعد يوم ، كلما أمعن فى المستقبل وللإيمان .

والاستطاعة فى الحج لا توجد عند كل مسلم ، وهو مفاد حرف «إن» الذى يصور الاستطاعة وعدمها فى لمحة ، وبالشك الذى يفيده ، لتترجح الناس بين الفقر والغنى فيفضل بعضهم على بعض رحمة ، لذلك كان الحج معلقا بالاستطاعة . وفى الشرط معنى التعليق إن جعلت « إن » شرطية وجوابها محذوف يدل عليه ما قبلها وهو إن استطعت إليه سبيلا تحج البيت .

وأما المرحلة الثانية التى تتبع مرحلة الإسلام وهى مرحلة الإيمان فى السؤال الثانى . والإيمان هو الصدق . وكمال الثقة ، وظهور الخضوع

الصادر لله وحـــده فى كل شىء ، وقبول الشريعة عن حب وعقيدة وما توحيه هذه المعـانى فى نفس المؤمن من الأمن والأمانة والطمأنينة والقوة والإخلاص والشرف والثبات واليقين والصدق والرحمة والرضى والسعادة .

كل هذه المعـانى وما توحيها داخل فى مفهوم الإيمان ، ولذلك حسن التعبير بلفظ « أن تؤمن » لأن الفعل هنا يدل على المعانى السابقة للإيمان وصيغة المضارعة فيه تدل على الزيادة يوماً بعد يوم ، حتى يصل إلى المرحلة الثالثة وهى الإحسان فيه ، ولم يتكرر الفعل هنا مع الملائـكة والـكتب والرسل واليوم الآخر ، كما لازمت هناك الأركان الخمس أفعال تتناسب مع كل ركن ، كتلاؤم القيام مع الصلاة ، والصوم فى رمضان وهكذا لضرورة هذا التلاؤم ، ولأن المسلم فى المرحلة الأولى يحتاج إلى التنصيص على الفعل فى كل مرة ، ولأن الزيادة فى إيمانه أصبحت قائمة على التصديق والثقة فيما سبق ، ولا يمنع هذا من تـكرار الفعل مع القدر فى : « وتؤمن بالقدر خيره وشره » لأن توازن القضاء تهز أعماق المؤمن ، وتأخذ به ولو لفترة قصيرة ، فالقدر أمر خارج عن إرادته لذلك كان تـكرار الفعل معه أبلغ وأنسب .

وهذا الصدق فى الإيمان هو مانفاه الله سبحانه وتعالى عن الأعراب الذين أسلموا فى الآية السابقة ، وهو نفسه ما أثبته للمؤمن بعد إسلامهم فى قوله تعالى :

« إنمـا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

وأما المرحلة الثالثة : وهى الإحسان فى الإيمان ، التى يبلغ فيها المؤمن

الغاية فى إيمـــانه ، حيث تتخلص النفس شيئاً فشيئاً عن طريق ترويضها بالعبادة وتهذيبها بتعاليم الإسلام ، وتصفو الروح بمجاهدة النفس فى التشريع ، واعتاقها من مادية الجسد بالإيمان الخالص لله ، واليقين الصادق بالملائكة والكتب السماوية والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، لذلك تتصل الروح بربها كما كانت فى الأزل حين خلقها الله وشهدت له بالربوبية قبل تمكنها من جسد صاحبها المحدث وقت خلقه . قال تعالى :

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»

« فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »

وحين تسمو الروح إلى هذه المنزلة عن طريق التشريع الإسلامى ترى سبحانه وتعالى فى كل شىء : تراه فى الصـــلاة ، وفى الصوم ، وفى سائر العبادات ، وتراه فى خلق الإنسان وخلقه ، وفى حسن التعامل معه ؛ وتراه فى كل ما خلقه الله فى السماء والأرض ؛ ترى كل هذا عن يقين وحقيقة وهذه الرؤية هى رؤية القلب والروح ورؤية البصيرة ، لا رؤية العينين ولا عن طريق الحواس الأخرى :

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

وقد يغفل الإنسان عن ربه لعوارض الحياة : فهو بشر مهما بلغ من صفاء الروح، وحينئذ يعتقد المحسن فى إيمانه أن الله يراه وقت الغفلة ، وأنه يعلم منه كل صغيرة وكبيرة حتى لا يستمر فى غفلته، ويعود الصفاء والرشد إلى الروح كما كانت لتتصل بربها ، وتراه كما كانت ، ومن هنا يكون المؤمن دائم الصلة بربه حتى فى الساعة التى يستجيب فيها لبشريته ، فيظل

معتقداً أن الرؤية ما زالت موصولة فى جانب الله وإن انقطعت منه حيناً وهذا معنى الإحسان فى الإيمان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وحين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة من الرؤية لله تعالى فإنه يؤمن بما هو غائب فى الظاهر أو ما سيحدث فى المستقبل كيوم القيامة ويرى ما فيها من نعيم وعذاب ، وهو ما جاء فى السؤال الأخير حيث أخذ موقعه من المراحل السابقة . فسأل جبريل النبى ﷺ عن الساعة بعد أن بلغ للمؤمن أعلى درجات التصديق فى مرحلة الإحسان .

ورؤية البصيرة فى القلب والروح لا تحدث إلا للصفوة من خلق الله ولقلة من المؤمنين الذين انتصروا على أنفسهم :

« إن تنصروا الله ينصركم » ، وسموا بروحهم عن شياطين الهوى وأثقال المادة فى الحياة الدنيا إيماناً وزهداً عنها ، وإخلاصاً وحباً لله والدار الآخرة . والرسل والأنبياء هم فى المنزلة الأولى منها على تفاوت بينهم فى هذه المنزلة ، لينال سيد الخلق وخاتم النبيين الدرجة الرفيعة وأصحاب محمد ﷺ على تفاوت بينهم هم أولى بالمنزلة الثانية .

سئل رسول الله ﷺ : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب قائلا :

« نور أنى أراه ؟! »

وسئل أبو بكر رضى الله عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى !! قيل فكيف عرفته ؟ فقال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك .

ويفسر عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قول الله سبحانه: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » بقوله : يعنى إلا ليعرفونى ، فإذا عرفونى

عبدونى عبادة معرفة ، لا عبادة تشريع فقط . ودعا له الرسول ﷺ اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل .

ويقول الله عز وجل : واتقوا الله ويعلمكم الله ، فهؤلاء اتقوا ربهم وبالتقوى علموا بأنفسهم أنهم عبيدالله ، وبالعبودية عرفوا الله معرفة حقيقية من غير حدود أو مقياس .

وهو النور الذى يشرح به صدر المؤمن : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ولذلك كان الرسول ﷺ يدعو ربه بالنور فيقول : « اللهم اعطنى نورا ، وزدنى نوراً ، واجعل لى فى قلبى نوراً ، وفى قبرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً » وبه يرى المؤمن ربه قال الرسول الكريم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى(١) » .

وحديث الحارث بن مالك ، الذى تكامل الإيمان فى نفسه إلى حد الرؤية حين سأله النبى ﷺ ذات يوم فقال له : كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال انظر ماذا تقول ، فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ .

قال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، واظمأت نهارى وكأنى انظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى اهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . « اى يصرخون فيها » .

فقال النبى ﷺ : عرفت ياحارثة فالزم » (٢)

---

(١) إحياء علوم الدين : الغزالى

(٢) رواه الطبرانى ، ورواه البزار عن أنس رضى الله عنه ، وقيل سنده ضعيف .

ويبلغ المؤمن درجة الإحسان فى الإيمان بأداء ما عليه من فرائض فرضها الله عليه ، لا يبتغى فى ذلك إلا مرضاته فيزداد قربا ، ويرى ربه حقا بالبصيرة ، وكلما تقرب بالنوافل بعـد ذلك عرف ربه أكثر والصحابى الجليل حارثة رضى الله عنه عفت نفسه عن الدنيا وشهواتها فكان ليله قائما ، ونهاره صائما ، حتى رأى عرش ربه ورأى أهل الجنة وأهل النار بعين بصيرته ، لأنه تقرب بالنوافل بعد أن أدى ما عليه من فرائض . وكلاهما أحب الأعمال ، التى يتقرب بها العبد إلى ربه يقول الله عز وجل فى حديث قدسى عن رسول الله ﷺ :

« ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه(١) » .

طاعة الله ورسوله هى أساس محبة الله تعالى ، فأعظم القربات التى ينال بها المؤمن محبته هى أداء ما فرضه الله تعالى عليه . واتباع ما أمر به نبيه الكريم قال تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . ويحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » .

ومحبه الله لا يحظى بها إلا من آمن به ، وأخلص قلبه إليه . أما الدنيا فقد يعطيها الله للكافر والفاجر ، وقد يمنحها للمؤمن والمحسن ، وهى قاسم مشترك برحمته ، ولولا ذلك ما سقى الكافر منها شربة ماء . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه البخارى . والإمام أحمد بن حنبل والطبرانى وغيرهم وجاء فى الأحياء : للغزالى فى أكثر من موطن ٢٩٨/٤ .

« إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب . ولا يعطى الإيمان إلا من يحب »(١) .

وإذا ما تقرب العبد بالنوافل فقام الليل ، وصام النهار ، وقرأ القرآن وتخلق بآدابه . وتصدق بماله للفقراء والمساكين ، وفى وجوه الخير وأطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وأحب أخاه لله وفى الله . وكظم الغيظ وعفا عند المقدرة واستحيا من الله حق الحياء ؛ فحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى ، وذكر الموت والبلى ، وكان سمحا إذا باع ؛ سهلا إذا اشترى ، يتعامل بالمعروف ؛ وينهى عن المنكر ، طلق الوجه ، واسع الصدر ؛ عذب اللسان ، يعود المريض ، يستر على المعيب ، ويفرج كربة أخيه ؛ ويكرم ضيفه ؛ ويحفظ جاره ؛ وغير ذلك من النوافل التى جاء بها الرسول الكريم ؛ فإذا ما اكتملت فيه هذه الصفات كشف الله عن بصيرته ؛ وأصبح من أهل رحمته ؛ ورضى عنه ؛ قال ﷺ لابن عباس : اعمل لله باليقين فى الرضا ؛ فإن لم يكن فإن فى الصبر خيراً كثيراً ؛ وقال أيضاً : من خير ما أعطى الرجل الرضا بما قسم الله تعالى له(١). فإن رضى الله تعالى عنه أحبه ؛ وقد يبتليه ليختبر محبته وصدق إيمانه .

وإذا أحب الله تعالى ورضى عن العبد ؛ صار العبد يمشى بنور الله : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » فإن أبصر بعينيه فيما حوله لا يرى فى المخلوقات إلا الخالق سبحانه وتعالى ؛ وإذا سمع صوتا ينادى لا يكون إلا من مخلوق يدل على عظمة الله ولسان يوحده ؛ وإذا أحس بقلبه يخفق يرى فى نبضاته الشوق إلى الله ؛ وإذا بطش بيديه رأى قدرة الله وعجيب صنعه فى مخلوقاته ؛ وإذا مشى على رجليه : إنما يمشى فى سبيل

---

(١) عوارف المعارف : السهروردى هامش الأحياء ٤/٣٢٠ .

الله وابتغاء مرضاته. وهو فى كل أحواله موصول الذكر بربه، مأخوذ بجلاله، ومن كان هذا حاله وتلك صفته. إن استعاذ بالله أعاذه وحفظه وإن ناجاه وجده فى قلبه ورآه فى نفسه ، وإن دعاه استجاب دعاءه ؛ ولبى نداءه : «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون»، وقال ﷺ رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره »(١).

وهــــذا هو معنى الحديث القدسى ؛ فتعالى الله عن المحسوسات والمدركات ، وتنزه عن المقامات والأحوال ، « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» .

ويقول أيضاً : من تواضع لله رفعه ؟ ومن تكبر وضعه الله ؛ ومن أكثر ذكر الله أحبه الله(٢) .

وطاعة الله ومحبة رسوله الكريم والعمل بما جاء به من التشريع الإسلامى الحنيف والتخلق بالنوافل والسنن ، هى أساس الإيمان بالله والتعرف عليه سبحانه وتعالى . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

---

(١) الإحياء : الغزالى ٣٤٧/٤ .
(٢) رواه ابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده .

المصدر الثالث:

أدب الصحابة رضى الله عنهم

كان لأصحاب الرسول ﷺ أدب إسلامى رفيع تسرى فيه روحية الإسلام ، ويرجع إلى مصدرين أساسيين ، هما القرآن الكريم والسنة الشريفة ؛ ينهلون من معينهما ، ويتأدبون بفيض منهما فلا تسمع منهم إلا ترتيلا للقرآن وترديداً لآياته ، فقد وجدوا فيه غناء عن كل قول ، وشغلتهم حلاوته عن ابتداع نظم الشعر ؛ لذلك هجر لبيد الشاعر الجاهلى الفحل قول الشعر فى الإسلام ، فتسمع منهم من يتحدث بأدب الرسول ، ويهذب لسانه ونفسه بأحاديثه الشريفة ، وإذا كان لبعض كبار الصحابة أدب نثرى تراه يتمثل بالقرآن والحديث ، ويتآصر بألفاظه ومعانيه ، ويترابط بتعاليمه وحكمه ، ويشتمل على تشريعاته وروحيته السامية ، وهذا اللون من الأدب هو الغالب عندهم ، فالنثر أشد طواعية لاستقبال الدعوات الجديدة من الشعر .

وهو أقدر على تصوير مراحل الانتقال ، وأسرع استجابة لها بينما الشعر يحتاج من الروية والتأنى فى نظمه لكل جديد ، وخاصة أن الإسلام جاء بحياة جديدة وروح جديدة ؛ تنكر ما تعارف عليه الشعراء من التقاليد الشعرية فى الجاهلية ؛ ولذلك رق الشعر ولان فى صدر الإسلام ، وانصرف الناس عنهم لانشغالهم بالقرآن ؛ وانبهارهم بالإسلام. يقول ابن سلام : فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته(١) .

وما كان من شعر فى هذه الفترة لقلة من الشعراء يتمثل فى الدفاع عن

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ابن سلام ١٧.

الإسلام ، ومعاوضة شعراء الكفر فى مكة ، والحث على الجهاد ، وتصوير معارك المسلمين فى الغزوات ، ورثاء الشهداء فى المعارك ، ومدح النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، وكان الشاعر يسجل فى شعره فضائل الإسلام وخلق القرآن ، وتعاليم الحديث النبوى ، التى تأصلت فى نفس الرسول وأصحابه ، واتصفوا بها عن إيمان ، وأخلصوا فيها عن عقيدة ، فتخلقوا بخلق القرآن ، وتأدبوا بأدب رسول الله ، فكان الشعر فى جميع أغراضه وصف لجند الإسلام وتسجيلا لمآثرهم ، وبطولاتهم ، حتى أطلق عليهم البعض شعر التدين(١) . والبعض الآخر شعر المدائح فى مولدها الأول(٢) ، والذى كان أساساً للمدائح النبوية فى مرحلة متأخرة من مراحل الأدب الإسلامى ، ومن أشهر الشعراء شاعر الرسول حسان بن ثابت ، الذى يقول فى فتح مكة منها :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... يُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الفَتْحُ وَانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِينُ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْداً ... يَقُولُ الحَقَّ إِنْ نَفَعَ البَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ ... فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْداً ... هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ

---

(١) التصوف الإسلامى : الدكتور عبد الحكيم حسان ١٤٣ .
(٢) المدائح النبوية : الدكتور زكى مبارك

لَنَا فِي كُلِّ يومٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أو قِتَالٌ أو هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ القوافي فِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدماءُ
أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الخَفَاءُ
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عبداً وعبدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ
هَجَوتَ محمداً فأجبتُ عَنْهُ وعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجزاءُ
أتهجُوه ولَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ
هَجَوتَ مبارَكاً بَرّاً حَنِيفاً أمينَ اللهِ شِيمَتُه الوفاءُ
أَمَنْ يهجو رسولَ اللهِ مِنْكُمْ ويمدَحُه وَيَنْصُرُه سَواءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وعِرْضِي لِعِرْضِ محمدٍ مِنْكُم وِقَاءُ
لِسَانِي صارِمٌ لا عَيْبَ فِيه وبَحْرِي لا تُكَدِّرُه الدِّلاءُ(١)

ويقول كعب بن مالك فى يوم بدر الكبرى :

لَعَمْرُ أَبِيكُمَا يا بَنِي لُؤَيٍّ عَلَى زَهْوٍ لَدَيْكُمْ وانْتِخَاءِ
لَمَا حَامَتْ فوارِسُكُم بِبَدْرٍ وَلا صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللقاءِ
وَرَدْنَاه بِنُورِ اللهِ يَجْلُو دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا والغِطَاءِ
رسولُ اللهِ يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ مِنْ أَمْرِ اللهِ أحكمَ بالقضاءِ
فَمَا ظَفِرَتْ فوارِسُكم ببدرٍ وما رَجَعُوا إِلَيْكُم بالسَواءِ
فَلَا تَعْجَلْ أبا سُفيان وَارْقُبْ جِيادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ من كَدَاءِ
بِنَصْرِ اللهِ رُوحُ القُدُسِ فِينَا ومِيكالٌ فَيَا طِيبَ المَلَاءِ(٢)

وهكذا يمضى شعراء الصدر الأول من الإسلام على هذا النحو من المدح لرسول الله وأصحابه الأطهار الذين اصطبغوا بصبغة الإسلام فى أسلوب قوى ، ولفظ جزل ، وتصوير يرتبط بنظام القصيدة فى العصر

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/٤٢٣ ، ٤٢٤ .
(٢) المرجع السابق ٢/٥٢٦ .

الجاهلى من حيث اللفظ والأسلوب والمطلع وتعدد الأغراض ووحدة التصوير، وقرب المعنى، ودنو الخيال فى تشبيه مألوف واستعارة قريبة وكناية جرت مجرى الأمثال اللهم إلا فى القليل النادر من عذوبة اللفظ وسهولته وليس فى كل الأحيان .

أما النثر الأدبى بفنونه المختلفة فقد كان أحسن حظاً من الشعر ، لم يصل إلينا إلا القليل كالشعر الجاهلى ، ولولا ارتباط النثر بالرسالة الإسلامية وبحديث الرسول الكريم ، وبالصحابة والخلفاء لاندثر وضاع كله ، لأن المسلمين رأوا فى الحفاظ عليه حفظ للإسلام وحفظ لرجال الإسلام ؛ ولذلك وصل إلينا الكثير من خطبهم ووصاياهم وحكمهم ووعظهم ، وتفسيرهم ، ورثائهم ، ونثرهم بصفة عامة ، وأدب الصحابة فى ظلال حكم الخلفاء الراشدين يسير فى منهجه وروحه على نحو ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف من الإحسان فى الإيمان والعمل ابتغاء مرضاة الله ، واتباع نبيهم فيما جاء به ، والاقتداء به فى طاعة الله والتعرف عليه مخلصين له الدين ، وظهر ذلك فى أدبهم الإسلامى ، وحكمهم المأثورة الخالدة ، فصار تراثاً لمن بعدهم وذخراً لمن تأدب بأدبهم فى عصر بنى أمية وفيما بعد ذلك من عصور .

وحين يلبى النثر الأدبى بأمواعه الحياة الإسلامية يكون أسرع من الشعر تبدو فيه ملامح السمو الروحى ، وتتشكل منه خصائصه الفنية المتميزة وتبرز معالم جديدة فى شكله ومضمونه ، فأما الشكل فقد نأى النثر الأدبى كثيراً عن الكلام الغريب ، واللفظ الوحشى ، والتركيب المغمى والأسلوب المحجب ، فكان سهلا عذبا ، قوياً فخما ، رقيقا جزلا ، قريبا إلى الفهم ، دانيا إلى النفس ، لا يستعصى على النظر ، ولا يكد الخاطر

أكسب بعض الألفاظ معانى لم تكن له فى العصر الجاهلى ، وتعمت بمصطلحات إسلامية ، كما شرف الإنسان بالسمو الروحى من الدعوة الإسلامية وذلك مثل ألفاظ : الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والوضوء والإسلام ، والإيمان ، والإحسان فيه ، والزهد ، وسواها كثير . وأما المضمون فقد حفل بما جاء به الإسلام من مبادىء سامية ، وخلق كريم وتعاليم سمحة بناءة ، وتشريع سماوى صالح للبشرية ، وسمو روحى يكشف عن أصالة الفطرة فى النفس البشرية ، وحياة جديدة يعرف فيها الإنسان حقيقته أولا ، لكى يعرف ربه ثانيا ، فتكون له السعادة فى الدنيا والآخرة .

لذلك كان للسمو الروحى أثره النابض فى النثر الإسلامى ، وخصائصه الفنية الحية التى تفصح عن الحياة الروحية ، وظهر أثره أيضاً فى أنواعه الأدبية ، التى تحولت إلى فنون جديدة ، لبروز الخصائص الإسلامية فيها وغلبتها عليها وستعرض بعضها لنقف على خصائصها الجديدة للاتجاه الذى جاء به الإسلام .

الخطب فى الحكم والخلافة :

اشتهر الصحابة رضى الله عنهم عامة ، والخلفاء الراشدون منهم خاصة بالخطابة ، فكانوا يخطبون فى المناسبات الدينية ، والمحافل الإسلامية وعند لقاء الوفود ، وفى توجيه الجيوش ، وإعدادها للغزو الإسلامى كما كان القواد أيضاً والخطباء من غيرهم يخطبون فى فرق الجيش ليذكروهم ويعظوهم ويحضوهم على النصر أو الشهادة ، كما حدث ذلك قبل المعركة الفاصلة بينهم وبين الروم وهى معركة اليرموك ، وكلها تحض المؤمن على

التقوى والخوف من الله ، وهجر الآثام والزهد فى الدنيا ، والطمع فى لقاء الله ، والسعادة بنعيمه ، وبذل الروح والمال والولد فى سبيله ، وإعلاء كلمة الله ، والانتصار على النفس قبل الانتصار على العدو ، وسوى ذلك مما نراه فى هذه الخطبة ، التى توضح ما يجب أن يكون عليه الحاكم ، حين يتولى أمر المسلمين ، والدنيا تذوب فى يديه .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته بعد أن فرغ من الحمد والصلاة على النبى ﷺ .

إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك ، فرفع الناس رؤوسهم فقال : ما لكم أيها الناس : إنكم لطاعنون عجلون ، إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما عنده ، ورغبه فيما فى يدى غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يحسد على القليل ، ويتسخط الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة البهاء . لا يستعمل العبرة . ولا يسكن إلى الثقة ، فهو كالدرهم القسى . والسراب الخادع . جذل الظاهر . حزين الباطن . فإذا وجبت نفسه . ونضب عمره . وضحى ظله . حاسبه الله فأشد حسابه . وأقل عفوه ، ألا إن الفقراء هم المرحومون . وخير الملوك من آمن بالله . وحكم بكتابه وسنة نبيه ﷺ . وإنكم اليوم على خلافة النبوة . ومفرق المحجة . وسترون بعدى ملكا عضوضاً . وملكا عنوداً . وأمة شعاعاً . ودماً مفاحاً . فإن كانت للباطل نزوة . ولأهل الحق جولة يعفو بها الأثر . ويموت لها البشر . فالزموا المساجد . واستشيروا القرآن . والزموا الطاعة . ولا تفارقوا الجماعة . وليكن الابرام بعد التشاور . والصفقة بعد طول التناظر . إن بلادكم خرسة . إن الله سيفتح عليكم

أقصاها ، كما فتح عليكم أدناها(١) .

موضوع الخطبة :

فى هذه الخطبة الجامعة وضح الخليفة الأول منازل الملوك فى الدنيا . وخطورة المسئولية الملقاة على عاتقهم ؛ فالملك ليس أمراً سهلا ، والحكم ليس سراحاً مباحاً ، وإنما الشقى فى الدنيا والآخرة من لم يتحمل أمانة الأمارة وينوء بأعبائها . وما أشدها على النفس ؟ وما أصعب الصبر عليها ؟ لأن الدنيا تمكنت منه وتمكن منها ، وأصبحت تحت يديه تفتحت له أبوابها من كل جانب ؛ فإن مرق منها بغير حق ؛ كان من أشد الناس حساباً ؛ وإن زهد فيها ، وعف عما ليس من حقه ؛ فهو من خير الملوك مواصل السير على سنة الخلافة المحمدية ؛ والمحجة الأسلامية الواضحة لذلك حدد الصديق رضى الله عنه درجات الناس من المسئولية والامارة ؛ وفرق بينها عن واقع فى نفسه ؛ وتجربة يعيشها فى خلافته للمسلمين بعد طول الصحبة لإمام المتقين محمد ﷺ . وحسن الاقتداء به فى الحكم ؛ وتحمل المسئولية فى الخلافة ؛ كل ذلك عن وعى وبصر ؛ وإدراك وبصيرة ؛

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١/٢٣٤، ٢٣٥ — الاشفاق : التقليل والشعور بالقلة والحرص والميل . الباء : من قولهم بأبى أنت . أو وسط الشىء والمراد لهذة التوسط . الدرهم القسى : الزائف . السراب : ما تراه وقت الظهيرة كأنه ماء . جذل . فرح . نضب : جف والمراد انتهى . عضود : فيه عسف وظلم . عنود : مائل . الشعاع : التفرق والانقسام . مفاحاً : من فاح إذا شاع واتسع نزوة : وثبة وتقلباً . خرسة : لا يسمع لها صوت . أى خرسه : صمتت من كثرة الدروع الصفقة : الضرب والتصرف .

وإيمان وتقوى : وسوى ذلك مما أعطى لخطبته الخلود والبقاء فى أدب الملوك ، ومع ذلك فهو يكره الإمارة : ويتقلدها راغباً عنها ، وزاهداً فيها ، والناس فى المسئولية ثلاثة :

فأما أشق الثلاثة من الناس فى الدنيا والآخرة فهم الملوك الذين تقلدوا الحكم بغير الكتاب والسنة ، مستهينين بالإمارة . فارين من المسئولية ، فلم يؤدوا حق الله فيها وحق الرعية فى الحكم فيزهد الحاكم فيما هو خير له عند الله ، وينكب على وجهه راغبا فيما تفجره الدنيا من مغريات ذاهبة ، ومتاع قليل . ويمتلىء قلبه بالجشع والطمع ، فيحسد المقل على فقره . ويسخط على المكثر طمعا فيما عنده ، وهو مع هذا يمل النعيم ويقتله الرخاء ، ويحرم لذة التوسط فخير الأمور الوسط ، ويموت قلبه فلا يتعظ ، ويجمد شعوره فلا يهدأ ، فهو دائما مضطرب الفؤاد مزعزع الثقة ، لا ترجو خيرا من نفسه ، ولا خير فيه لغيره ، فهو أبتر لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى . فهو كالدرهم الزائف ، والسراب الكاذب ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، ومن كان هذا حاله فعمره قصير ، ودولته ذاهبة . فإذا ما انقضى أجله ، وانقشع ظله ، لقى أحكم الحاكمين ، شديد العقاب فحاسبه حسابا عسيراً ، وحرمه من عفوه لأنه لم يحاسب نفسه فى الدنيا فلقى جزاءه فى الآخرة .

والفقراء أعظم عند الله من الملوك الأشقياء الذين أخذتهم الدنيا فى الصنف الأول فالله ارحم بهم ، لأنهم عاشوا فى الدنيا على حذر منها وخوف من الرغبة فيها ، ومن الزهد فيما عند الله ، فلم ينزلوا فى حماها بل لم يحوموا حول الحمى ، لذلك سلموا من شرها واتقوا مغبتها عن بعد منها ، ونفور عنها وهم — ولا شك — دون الحكام السعداء فى الدنيا

والآخرة ، الذين نزلوا فى حمى الدنيا وانصهروا فى معامعها : فهم الصنف الثالث وهم عند الله خير الثلاثة .

وخير الملوك ، بل خير الناس جميعاً . هم الذين آمنوا بالله ، وحكموا الدنيا وهم فيها بكتاب الله وسنة رسوله ، عن زهد فيها ، ورغبة فيما عند الله ، فهذا خير وأبقى ، وهم بهذا يسيرون على خلافة النبوة ، ويحرصون على التمسك بتعاليم الإسلام فى الحكم والإمارة ، والأجدر بهم أن يكونوا فى حكمهم خلفاء لا ملوكا ، لأن الملوك يحرصون على الدنيا فى حكمهم ، ويملكونها طمعا فيها ، ولذلك حذر أبو بكر رضى الله عنه من الملك وخاصه بعد أن يفتح الله على المسلمين أقصاها وأدناها ، فتزداد خيراتها ، ويزداد الحكام تمسكاً بها ، وانصرافاً إليها كما حدث ذلك فى ملك بنى أمية .

ويبرز الجانب الإسلامى من خلال التصوير الأدبى كما اتضح من العرض للنماذج الإنسانية الثلاثة :

١ — ابتدأ الصديق خطبته بالحمد لله وحده . وبالثناء عليه ، والصلاة على نبيه خير خلقه وإمام الأئمة .

٢ — خير الملوك من حكم بكتاب الله وسنة رسوله ، لأنهم خلفاء الرسول الكريم .

٣ — وشر الملوك من لم يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، حباً فى الدنيا وطمعاً فيها .

٤ — ينبغى الزهد فى الدنيا ، والرغبة فيما عند الله وإنما الشقاء فى الزهد فيما عند الله والرغبة فى الدنيا .

٥ — الرغبة فى الدنيا تنذر بزوال الملك ، وبقصر العمر ، فلا بركة فيه وإن طال الأجل ، فى قوله : وانتقصه شطر أجله .

٦ — الرغبة فى الدنيا تقتل القلب بالحرص ، والحسد . والسخط وتقتل النفس بالشفاء فلا يستقر على حال ، ولا يطمئن له فؤاد ، فقد خلا من العظة ، وتجرد من العبرة .

٧ — المفتون بالدنيا لا خير فيه لنفسه ولغيره ، فهو كالسراب الخادع حتى إذا جاء جاءه لم يجده شيئاً .

٨ — الزهد فى الدنيا يقتضى معاناة الفقر واختياره : رغبـــة فى الباقيات الصالحات ، وتوقى الفتنة .

٩ — من السمو الروحى الهروب من الدنيا إلى بيوت الله والتزام طاعتــه .

١٠ — تلاوة القرآن ، وتنصيبه حكما بين الناس ، والرجوع إليه إذا استحكم الأمر .

١١ — الإلتزام بأمر الجماعة ، وعدم الخروج عليهم .

١٢ — إبرام الأمر بعد التشاور فيه ، وإحكامه بالتأمل والروية وطول النظر .

١٣ — ألا يسعى الإنسان إلى الإمارة ولا يطلبها إلا إن سعت إليه وجاءته وهو لهـا كاره ؛ وأشقى الناس الملوك ؛ لأن ملـكهم عضوض وممالكتهم عنود .

١٤ — التزام الرضا على أى حال ؛ سواء فى عدم السعى إلى الإمارة وفى قبولها وهو كاره لها ؛ وفى كلتا الحالتين يبتلى الله بها عبده .

١٥ — وبالرضا يتحقق الصبر. والقناعة . والزهد ،والتوكل على الله .

١٦ — وفى التوكل المواقبة لله والقرب منه ، والخوف من عذابه ورجاء عفوه ، وابتغاء مرضاته ومحبته .

هذه هى معالم الاتجاه الروحى فى الخطبة ، والقيم الإسلامية السامية فى إعداد الحاكم الصالح . الذى يتولى أمور المسلمين فيسير على نهج كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فيظفر بالسعادة فى الدنيا والآخرة .

الخصائص الفنية :

هذه الخطبة صورة صادقة للخطابة فى صدر الإسلام ، التى تميزت بسمات جديدة جعلتها تمثل مرحلة تالية لأطـوار الخطابة بعد العصر الجاهلى ، وأصبح لها من المقومات والعناصر بقدر ما تستمده من تعاليم الإسلام كما سبق أن وضحنا ، ولهـا من الخصائص الفنيه بمقدار استجابة الذوق الأدبى للإعجاز فى القرآن الكريم و بلاغة الحديث الشريف ومن هذه السمات الأدبية للخطبة :

١ — صار للخطبة مقدمة تشتمل على الحمد لله والثناء عليه ، ثم الصلاة على رسول الله ﷺ ؛ وموضوعاً يلى المقدمة وهو الغرض منها ، حيث بين فيه حال الملوك من الخلفاء والأئمـة وأمراء المؤمنين ، ومكانهم من المسئولية فى الحكم أمام الله والناس ، ثم خاتمة للخطبة ينتهى بها الموضوع .

٢ — اشتملت على ركنى الخطبة الجيدة : من الإقناع ، والتأثير : فأما الإقناع الذى أسكت المستمعين حين رفعوا رؤوسهم من قول أبى بكر إن الملوك هم أشقى الناس ، فألزمهم الحكم بالدليل حينما يزهد الملك فيما عند الله ، ويرغب فى الدنيا ، ويستبد به الحرص فيحسد المقل ويسخط

على المستكثر ، ويحرم من حلاوة النعمة ، ويسأل الرخاء ، ويظل منغص العيش ، وكذلك حين يقيم الدليل على إزهاق الباطل وإحقاق الحق يقول: فالزموا المساجد ، واستشيروا القرآن إلى آخره ، وأيضاً أن الحكم الصحيح لا يكون إلا بعد المراجعة والتشاور ، وطول التأمل ، وغير ذلك من الأدلة والوسائل التى ساعدت على تشخيص عنصر الإقناع فيها .

وأما التأثير فيها فقد سار بجانب الإقناع لتأخذ الخطبة مكانها من الجودة والقوة ، ولا يظهر التأثير إلا فى القدرة على التعبير ، وجمال الأسلوب . وروعة التصوير الأدبى ؛ فترى ذلك فى اختيار اللفظ وسبك العبارة ، وجمال الصورة ، وروعة الكناية ، وقصر الفقرة وتناسب موسيقاها مع المعنى . وملاءمة ذلك كله مع الغرض من الخطبة.

(ا) فالألفاظ مع جزالتها وقوتها فهى سهلة عذبة سلسلة تنساب مع المعنى ، فى غزارة وتدفق ، فتأمل قوله : أشرب قلبه الإشفاق ، فى معنى الحرص ، فلفظ « أشرب » مع عذوبته وسهولته تحس فيه معنى القوة حيث يتمكن الحرص من النفس ويسرى فيها كسريان الماء فى الجسد واختلاطه بالدم واللحم ، وعبر بالقلب وهو لفظ عذب سلس لكنه جزل قوى ، لمكانته من الجسد فهو سيد الأعضاء ، وعصب الجسد فإن صلح القلب صلح سائر الجسد ، وإن فسد القلب فسد سائر الجسد وكذلك الحرص حين يتمكن من النفس يفسد على الإنسان حياته ويضحى شقيا ، أما الإشفاق فسهل رقيق ، لكنه يتحول بالاستعمال فى الحرص إلى قوة دامغة فهو فى الظاهر بمعنى الرحمة والعطف ، لكنه فى الحقيقة المرادة بمعنى الحرص والميل والمعاندة وهى صفة الحاكم الذى غمرته الدنيا ،

وهكذا في كل ألفاظ الخطبة . تسير على هـــذا النحو من الخصائص السابقة للفظ .

وما أروع التناسب بين اللفظ فى تصويره للشخصيات الثلاثة فشخصية الملك الشقى تتحدد معالمها فى الكلمات : يحسد ، ويتسخط وانتقصه ، ويسأم ، وينقطع السراب الخادع والقسى ، الظاهر ، حزين نصب ، حاسبه الله وغيرها .

وشخصية الفقير لجديرة بالرحمة والإشفاق ، فى «المرحومون» وفى «ألا» التى تفيد العرض وطلب الرحمة . أما شخصية الملك السعيد ، فنراها من خلال الكلمات «خير ، آمن بالله . كتابه ، سنة نبيه ، خلافة النبوة مفرق المحجة » .

(ب) وجمال العبارات وقوة التركيب ، وروعة النظم فى الخطبة لا يكاد يفارقها حتى النهاية ، ونرى ذلك فى قصر الجمل ، وتأمل فيها ، فلن تجد جملة طويلة ، تضطر القارىء أن يستريح خلالها ، وجمال الخطبة فى القصر لأن امتداد الجملة ينيم السامع ويغفل معها القارىء ، على خلاف الإيقاع السريع فى القصر ، فإنه يشد الانتباه دائما ، ويجدد المتابعة فى النفس كمن يجد فى السير لا يعتريه الوهن أثناءه ، وإن تراخى فيه أثقلته التغلة والتعب ، ومن روعة النظم على سبيل المثال قوله : فإذا وجبت نفسه ونضب عمره ، وضحى ظله ، حاسبه الله فأشد حسابه ، وأقل عفوه ، فعبر بإذا فى حتمية القضاء وحلول الأجل لاريب فيه ، لأنها تفيد التحقيق وخاصة حين يجىء بعدها مباشرة لفظ « وجبت » فمعنى الوجوب الحتم ويوحى بجانب الحريص والشقى بالحزن والكآبة حين يدركه الموت وأسند فعل الموت هنا للنفس ، والفاعل الحقيقى هو الله الذى يحى ويميت

للدلالة على شدة النزع ، وقسوة المعاناة حين تتخلص الروح من جسد الشقى ، وذكر لفظ الجلالة يوحى بالرحمة واللطف وحسن الختام ولا يستحق الشقى شيئاً من ذلك .

وكذلك الأمر فى إسناد « نضب وضحى » للعمر والظل ، لا لله ، على خلاف الجملة الأخيرة « حاسبه الله » ؛ لأن المحاسب هو الله ؛ والشقى أصبح من أهل الآخرة ، فلابد أن يلقى جزاءه ، وحين يلقاه من الله ، يكون أشد الجزاء وأنكى العذاب على مافرط فى الدنيا ، ثم تأمل قوله : نضب عمره بمعنى جف عوده الطرى ، وانتهت أيامه فى الدنيا ، وتساقطت أوراقه فى نهاية الخريف ؛ وما أعظم التلاؤم فى استعارة لفظ « نضب لا نتهاء العمر ، حيث شبه حلول الأجل بجفاف الماء من عين جارية والاستعارة مع جمال التجسيم للأجل وهو شىء معنوى فى صورة محسة تألفها النفس إلا أنها توحى برقرقة الروح فى الجسد ، كرقرقة الماء فى العين وجفاف الروح من الجسم كجفاف الماء فى العين ، وفى الماء حياة وفى الجفاف موت ، وما أقساه على نفس الشقى .

وكذلك الأمر فى استعارة زوال الظل لانتهاء العمر فى قوله : ضحى ظله . فإنها تجرى على النحو السابق من التحليل . وما أجمل إضافة العمر والظل إلى ضمير الشقى ، فهو الجانى على نفسه ، وأولى به من غيره ؛ لإفادة الاختصاص بهذه الصفات الذميمة ، وتأكيد المعانى المنفرة له ؛ وفى قوله: وأقل عفوه: أعظم الدلالة على قوة إيمان أبى بكر ؛ لأن الظاهر ألا يعفو الله عن الشقى ، ولا يجب على الله شىء إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ولذلك قال : وأقل عفوه احتراسا من الإلزام وإضافة العفو إلى ضمير الجلالة تؤكد هذا الاختصاص لله وحده .

وروعة التصوير الأدبى تبدو فى سوى ذلك من العبارات فترى التشبيهات فى قوله فهو كالدرهم القسى، والسراب الخادع ؛ والاستعارات فى قوله : انتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الاشفاق ، ويسأم الرخاء لا يسكن إلى الثقة ، وملكا عضوضا وأمة شعاعا ، للباطل نزوة ويعفو الأثر ، والكنايات فى قوله : وتنقطع عنه لذة الباء كناية عن التوسط وألزموا المساجد كناية عن الصلاة ، واستشيروا القرآن كناية عن تحكيمه وإقامة أوامره ، ولا تفارقوا الجماعه كناية عن الترابط والوحدة وليكن الإبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التأمل كناية عن حصافة الرأى وسلامته ، إى بلادكم خرسة ، كناية عن تدفق الخيرات فيها وكثرة النعم ، وآخر عبارة كناية عن اتساع الدولة الإسلامية وبعد أطرافها وغير ذلك كثير لمن تأمل فى هــذه الخطبة التى تصور أنواع الحكام خاصة ، وموقف الإنسان من الدنيا بصفة عامة من أقوى ألوان الأدب الإسلامى عند الصحابة رضى الله عنهم ، فهو أدب ينبع من تجربة صادقة فى الحياة ، يصور الخليفة والحاكم الذى لم يسع إلى الحكم ، ولكن الخلافة هى التى سعت إليه ، فقبلها وهو لا يبغيها ، وخضعت له الدنيا وهو فيها فإن زهد فيها وعف عنها ، فقــد خرج بتجربة روحية صادقة بعد أن انصهرت نفسه فقاومت كل ما فيها ، وأبت إلا أن تحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، والفرق كبير . بين من يسمو الجانب الروحى فيه عن تجربة وبين الذى سمت روحه وهو بعيد عن الدنيا والتحكم فيها ، فرق بين السماء والأرض ، فهذا عن تجربة وهى النزول إلى الدنيا ، وذلك عن حذر من الدنيا وهو بعيد عنها ، وتلمح مثل هــذا فى خطب الصحابة فى الحكم والوصايا وغيرها من ألوان النثر الأدبى عندهم . يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى خطبة له منها :

أصدق الحديث كتاب الله تعالى . وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم عليه السلام ، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وخير الأمور عزائمها ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها ، خير الغنى غنى النفس ، خير ما ألقى فى القلب اليقين . الخمر جماع الآثام والشباب شعبة من الجنون ، حب الكفاية معجزة ... أقبح الضلالة الضلالة بعد الهدى أشرف الموت الشهادة من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره(١) .

وفقرات الخطبة لإيجازها فى اللفظ والمعنى ، وإحكام الإصابة فيها تكاد تكون مثلا يضرب ، أو حكمة يتمثل فى مواقف الوعظ والاعتبار فهو لا يفر من الدنيا إلا إذا عجزت النفس أمام الطغيان المادى فيها ، عند ذلك فالخير لها أن تكتفى بالقليل فالغنى غنى النفس، حين يغنى القلب باليقين .

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ٢٤١/٢ .

الوصـــايا

ومن ألوان الأدب الإسلامى الذى يصور السمو الروحى عند الصحابة: الوصايا ، سواء أكانت وصية الخليفة لجند الإسلام حينما يتحرك الجيش . أو قبل الالتحام مع العدو أو وصية الخليفة لمن يلى أمر المسلمين من بعده ، وحيث يفرغ فيها تجربة حياة و يقدم إليه وثيقة الحكم، أو وصية والد لولده . يحذره من الدنيا والاغترار بها ، وجميعها يقوم على التخلق بخلق القرآن . والتعبير عن حديث رسول الله ، فيزهد الإنسان فى الدنيا وشهواتها ، ويقبل على الله ، فما عنده هو خير وأبقى . ومن هذه الوصايا وصية عمر بن الخطاب إلى قائد المسلمين فى حرب الفرس سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما فيها قال الخليفة الثانى بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

أما بعد . . . فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى ، منكم على عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عـــددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل فى القوة، وإلا ننصر بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيله ولا تقولوا! عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط الله عليهم شراً منهم ، كما سلط على بنى إسرائيل — لما عملوا بمساخط الله — كفار المجوس « فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا » ،

واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين فى مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم؟ ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم جام الأنفس والكراع (أى الخيل)، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة، حتى تكون لهم راحة يحمون بها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فوفوا لهم، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق فى بعضه والغاش عين عليك وليس عيناً لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة

أهلها فتصنع بعدوك كصنيعه بك، ثم أذك أحراسك على عسكرك وتحفظ من البيات جهدك ؛ ولا تؤتى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدوك وعدو الله ، والله ولى أمرك ومن معك ؛ وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان »(١) .

المناسبة فى الوصية :

أعـــد الفرس جيشاً لقتال المسلمين فى المدينة المنورة عاصمة الحكم والخلافة فأرسل إليهم الخليفة الثانى جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ليرد كيدهم ويؤدبهم، وكتب له وصية يعمل بها هو وجنده قبل أن يقدموا على حربهم .

خصائص الوصية :

اشتملت الوصية على معان واضحة عميقة ، قوية جديدة ، ظهر فيها الروح الإسلامى . تستمد عناصرها من التشريع ومبادئه السامية ؛ لتتكون منها اللائحة العسكرية ، ومبادىء الانتصار على العدو قبل وضع خطة المعركة . منها :

١ — تقوى الله أجلب للنصر من كثرة العـــدو وغزاره الأسلحة وعبقرية التخطيط العسكرى . فمهما مكر العدو فالله خير الماكرين ، لأنه سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا .

٢ — البعد عن المعاصى : والاحتراس من الذنوب هو أساس النصر . لأن انتصار المسلمين لا يرجع إلى قوتهم وشجاعتهم وعددهم فحسب . ولكن يرجع إلى معصية عدوهم .

---

(١) العقد الفريد : ٤٩/١ — نهاية الأدب : ١٦٨/٦ .

٣ — مراقبة الله فى كل ما يقع منهم . وأن يكونوا موصولين بالله دائماً وعلى ذكر منه . لأنه معهم . يحصى عليهم الخير والشر . بحفظة من عنده يعلمون ما يفعلون .

٤ — التحذير من الغرور : لأنه يؤدى إلى الهزيمة . وألا يخالطهم فسادعدوهم. وأنه شر أهل الأرض فقد يسلط الله عليهم شر أعدائه . كما سلط الله على بنى إسرائيل لما عاثوا فى الأرض فسادا كفار المجوس ؛

٥ — رجاء النصر من الله دائما . ومواصلة الدعاء له بالليل والنهار . فالرجاء من الله . والدعاء له هما مخ العبادة . وفيها إثبات للعبودية وضعف المخلوق . فهو ولى النصر . فنعم المولى ونعم النصير .

وانسابت هذه المعانى الروحية . فى ألفاظ تشف عنها . وتحمل فى مضمونها خصائص جديدة . لم تكن لها قبل الإسلام مثل لفظ « التقوى » بمعنى الخوف من الله واتقاء المعاصى بالطاعة له والإنقياد إليه . وكانت فى الجاهلية بمعنى الوقاية من الشىء . وكذلك لفظ « المعاصى » فليس معناها الخروج على التقاليد والعادات فى الجاهلية . ولكنها هنا بمعنى المنكر الذى حرمه الإسلام مما يغضب ألله عز وجل . وغيرها من الألفاظ . كما اتسمت الألفاظ بسماحة الإسلام ويسر تعاليمه . فصارت هنا سهلة عذبة رقيقة سلسة . تنساب مع المعنى فى لطف . وحسن إيقاع . وجمال نسق . وزادها جمالا التحلى بآى القرآن . فجاسوا خلال الديار — حفظة يعلمون ما تفعلون — ثم الاكثار من لفظ الجلالة لتناسب ذلك مع رجاء النصر منه سبحانه وتعالى .

والتعبير بالحقيقة هنا — لا الخيال — يغلب على الوصية . فكادت تخلو من ألوان البيان . التى تعتمد على الخيال . لأنها تتضمن تعليمات

عسكرية ، ومبادىء حربية ؛ بألفاظ محددة غير فضفاضة ، لا تحتمل وجها آخر، بل كانت دقيقة فى تصوير الحقائق واضحة ؛ والأوامر صريحة ؛ لكى لا تحتاج من القائد إلى كبير تأمل يضيع معـــه الوقت ، وإلى إستنباط تكون فيه المجازفة والبعد عن الغرض ؛ لأن العقل والحقيقة ـ لا العاطفة والخيال ـ هما المصدران الأساسيان. حيث لا يعطى الخيال فرصة للاتساع والشمول ، مما يتنافى مع طبيعة الوصايا ، التى تعتمد على الحقائق الصرفة المجردة من الخيال على وجه التقريب ، ولقد ازدادت الحقائق هنا ثراء بالروح الدينية وبالصدق فى الإيمان ؛ فتحقق لها من التأثير الروحى فى النفس ما يعجز الخيال عن تحقيقه ؛ فتستجيب لها الروح المؤمنة وتتلاقى معها . لأن الأرواح جنود مجندة . ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ؛ ولذلك حين قرأها القائد ابن أبى وقاص على جنوده تأثروا بها وعملوا لها . فنصرهم الله على عدوهم،فالقوة الروحية فى الأدب الإسلامى هى جوهره وعماده . ولذلك كان لهذا الأدب أثره القوى فى تهذيب النفس وترويضها للتعرف على الله .

أما منهج الوصية فى العصر الإسلامى الأول يشبه منهج الخطبة إلى حد كبير . وهو يخالف منهج الوصايا فى العصر الجاهلى فهى :

١ ـــ تعتمد على مقدمة تشتمل على الحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسول الله .

٢ ـــ ويلى المقدمة موضوع الوصية والغرض منها . وهو بيان الأسباب الحقيقة التى تؤدى إلى النصر لجند الإسلام . مهما بلغت قوة العدو

٣ ـــ وفى النهاية ينتهى الموضوع بخاتمة تتصل بالموضوع . وكان هنا الدعاء بالنصر .

٤ — الترابط التام بين عناصر الخطبة ومنهجها حيث تبدأ بمقدمة تمهد للغرض ؛ وتنتهى بخاتمة نابعة من الموضوع ذاته ، ونتيجة له وذلك من قوله : واسألوا الله العون إلى آخرها .

٥ — ارتبطت الوصايا بهدف واحد وهو تقوى الله والعمل على طاعته والتزود من الدنيا للآخرة . وان اختلفت مقاماتها ، فالتى معنا موجهة لجيش الإسلام وكذلك الأمر فى وصية أبى بكر الصديق لجيش المسلمين قال فيها :

« قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى ؛ لا تخونوا ؛ ولا تغلو ولا تغدروا ؛ ولا تمثلوا ؛ وتقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ؛ ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ؛ ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان من الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه » .

وقد يكون مقام الوصية الاستخلاف والحكم مثل وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه للخليفة من بعده (١) ووصية أبي بكر الصديق لعمر رضى الله عنهما من بعده(٢) ، أو وصيته التى يودع فيها الحياة على فراش الموت فى التحذير من الدنيا ومثل وصيته لسلمان الفارسى رضى الله عنه(٣) أو وصية والد لولده يفرغ فيها تجربة حياة لينتفع بها ، فيضيف تجربة عمره

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ٢/٢٣٥ .

(٢) المرجع السابق : والإحياء : الغزالى ٤/٤٦١ .

(٣) الإحياء : الغزالى ٤ / ٤٦١ .

إلى عمر ابنه ، ويبدأ الإبن من حيث انتهى الأب فى تجاربه، فيأخذ العبرة منها وذلك مثل وصية على بن أبي طالب لابنه الحسن رضى الله عنهما، كتبها له من حاضرين فى نواحى صفين وهى طويلة منها :

فإنى أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله ؛ وأى سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به ؟ أحي قلبك بالموعظة .وأمته بالزهادة وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء وبصره بفجائع الدنيا . وحذره صولة الدهر . وفحش تقلب الليالى والأيام . واعرض عليك أخبار الماضيين . . فأصلح مثواك . ولا تبع آخرتك بدنياك . ودع القول فيما لا تعرف ، والخطاب فيما لم تكلف . وامسك عن طريق إذا خفت ضلالته . فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال وأمر بالمعروف، تكن من أهله . وأنكر المنكر بيدك ولسانك . وباين من فعله بجهدك . وجاهد فى الله حق جهاده ولا تأخذك فى الله لومة لائم. وخض الغمرات للحق حيث كان . وتفقه فى الدين. وعود نفسك التصبر على المكروه. ونعم الخلق التصبر فى الحق . . إلى آخرها(١).

ومثل هذه الوصايا كان رافداً قوياً من روافد الأدب الإسلامى . وجوهراً أصيلا فى النثر الأدبي بعد ذلك إذ استمد منه أصوله وقواعده واستشف منه روحه وجوهره، وأصبح الأدب الإسلامى فى مختلف عصوره موصولا بهذا الأدب الرفيع .

---

(١) نهج البلاغة : للإمام على رضى الله عنه جمع الشريف الرضى : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ٤٤/٣ ؛ ٤٥ مطبعة الاستقامة .

التحذير من الدنيا :

ومن ألوان الأدب الإسلامى عند الصحابة رضوان الله عليهم أدب التحذير من الدنيا ، والتنفير منها ، وكانوا أصدق الناس نظـــراً إليها وأعظمهم عظة بها ، ولقد ابتلى على رضوان الله عنه بمحن فيهـا ، فصبر عليها وجاهد نفسه فيها . وفهم حقيقتها ، ليفر منها ، خاصة وقد حدثت فتنة الخلافة والحكم فى عهده ، فلم تسلم له الخلافة بغير معارضة ، ودارت معارك يحكم فيها كتاب الله لا يبتغى من وراء ذلك حكما لكن استتب الأمن فى الأمة ، والقضاء على المحنة ، وعودة سنة الخلفاء من قبله للحكم ولذلك نجد مواعظه تدور حول التحذير من الدنيا ، والعمل للآخرة ، فما عند الله خير وأبقى ، يقول الإمام على رضى الله عنه فى الدنيا :

« وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة ، وليست بدار نجعة ، قد تزينت بغرورها وغرت بزينتها ، هانت على ربها ، فخلط حـــلالها بحرامها وخيرها بشرها ، وحياتها بموتها ، وحلوها بمرها ، لم يصفها إلا لأوليائه ولم يضن بها على أعدائه ، خيرها زهيد . وشرها عتيد . وجمعها ينفد وملكها يسلب . وعامرها يخرب . فما خير دار تنقض نقض البناء ؟ وعمر فيها يفنى فيها فناء الزاد . ومدة تنقطع انقطاع السير . اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبكم . واسألوه من أداء حقه ما سألكم وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم ؟ إن الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وإن ضحكوا ويشتد حزنهم وإن فرحوا . ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا . قد غاب عن قلوبهم ذكر الآجال . وحضرتكم كواذب الآمال . فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة . والعاجلة أذهب بكم من الآجلة . وإنما إخوان على دين الله . ما فرق بينكم إلا خبث السرائر . وسوء الضمائر

فلا توازرون ، ولا تناصحون . ولا تبادلون ، ولا توادون ، ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تملكونه ، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ؟ ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك فى وجوهكم وقلة صبركم عما زوى منها عنكم ؟ كأنها دار مقامكم ، وكان متاعها باق عليكم وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلا مخافة أن يستقبله بمثله ، قد تصافيتم على رفض الآجل ، وحب العاجل ، وصار دين أحدكم لعقة على لسانه، صنيع من قد فرغ عن عمله ، وأحرز رضا سيده.(١)

فى هذا الوصف غاية البلاغة إذ بلغ الإمام أعماق الدنيا ، ووقف على حقيقتها ، فهى دار ممر لا قرار فيها تزينت بالغرور ، واختلط الخير بالشر فيها ، ولذلك هانت على خالقها ، فلا تساوى عنده جناح بعوضة فطوبى لمن زهد فيها ، وويل لمن افتتن بها ، وذلك فى صور بليغة ، جمعت ألوان الفصاحة ، وفنون البلاغة فى أوجز عبارة ، وأبلغ منطق ، فتأثر به كل بليغ ، واستمد منها كل واعظ أقواله البليغة ، ومعانيه التى تستولى على القلوب ، يقول الإمام فى إدبار الدنيا ، وإقبال الآخرة ، والحث على التزود منها للآخرة :

أما بعد : فإن الدنيا قد أدبرت ، وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أشرفت باطلاع ألا وإن اليوم المضمار ، وغدا السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار ، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ! ألا عامل لنفسه قبل بؤسه؟

---

(١) نهج البلاغة : ١ / ٢٢٠ : ٢٢٢ — القلعة : منزل من لا يستقر النجعة : طلب الكلأ . عتيد : حاضر . ذوى : أبعده ونحاه . اللعقة : هو التعبير باللسان دون تصديق القلب .

ألا وإنكم فى أيام أمل . وورائه أجل ، فمن عمل فى أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ، ولم يضره أجله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله ، وضره أجله ، ألا فاعملوا فى الرغبة كما تعملون فى الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ، ألا وإنه من لا ينفعه الحق ، يضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى . وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل وتزودوا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم به غدا(١).

لقد تهيأ للإمام على رضى الله عنه من الظروف ما سما بكلامه قاطبة بعد الرسول ﷺ ، فقد كان فصيح المنطق ، بارع التصوير ، قوى الحجة ساحر اللسان عالماً بالكتاب والسنة ، ذا رأى وبصر بالحكم والقضاء يملك زمام اللغة ، ويديرها كيف شاء عن سليقة واقتدار ، وخاصة إذا تحدث عن الدنيا ، ورهب فيها ، ورغب فى الآخرة ، ودعا إليها ، قال الشريف الرضى معلقا :

فهذا كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد فى الدنيا ، ويسمو بالنفس إلى الوقاية من عذاب الآخرة ، وكفى به قاطعا لعلائق الآمال ، وقادحا زناد الاتعاظ والازدجار ، ومن أعجبه قوله عليه السلام : « والسبقة الجنة

---

(١) نهج البلاغة : ١ / ٦٦ . وتحدث عن الدنيا فى مواطن كثيرة منها : ١ / ١٩١ ، ١ / ٢١٦ ، ٢ / ١١٨ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٦٢ ، ١٦ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ وغيرها — معانى المفردات : المضمار المكان التى تحبس فيه الخيل حتى تحول السبقة : هى الغاية المرغوب فيها . الظعن : الرحيل عن الدنيا . الزاد : العمل الصالح . الحرز : الحفظ . آذنت : أعلمت باطلاع : فجأة .

والغاية النار ، فإن فيه مع فخامة اللفظ ، وعظم قدر المعنى . وصادق التمثيل . وواقع التشبيه سراً عجيبا ، ومعنى لطيفا . . . فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين . ولم يقل السبقة النار والغاية الجنة ، لأن الاستباق إنما يكون فى أمر محبوب وغرض مطلوب وهذه صفة الجنة ، وليس هذا المعنى موجود فى . . . بل قال : والغاية النار . لأن الغاية ينتهى إليها من يسره الانتهاء ، ومن لا يسره ذلك ، فصلح أن يعبر بها عن الأمرين معاً(١) .

الزهــد :

ومن أغراض الأدب الإسلامى عند الصحابة رضى الله عنهم الزهد لكى يغرس فى النفس العزوف عن الحياة ، ويتخلص القلب من شوائبها وتتخلص النفس من كل ملابسة ترتبط بها ، وتقطع الصلة بينها وبين الله سبحانه تعالى إلا فيما يثبت العجز البشرى أمام الخالق ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ومن الزهد تنوعت منه الأغراض بعد ذلك ، وأصبح له وحده فنونا أدبية فى الأدب الزهــد ، وأغراضا سامية فى الأدب الإسلامى ليكون له النبع الأصيل ، والبحر الزاخر الثوار ، ولقد غلب هذا الغرض عند الإمام على رضى الله فى مأثور قوله كالشأن عنده فى وصف الدنيا والترغيب فى الآخرة قال فى وصف المتقين الزاهدين ذاكراً قوله تعالى : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ وآله ، ثم قال :

أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم ، غنيا عن

---

(١) نهج البلاغة : ٦٨/١ ، ٦٩ .

طاعتهم ، آمنا من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ؛ فقسم بينهم معايشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب ، عظم الخالق فى أنفسهم ، فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها ، فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها ، فهم فيها معذبون قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفية ، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها .

أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا يحزنون به أنفسهم ، ويستثيرون دواء دائهم ، فإذا مرو بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا ، وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف ، أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم .

وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف برى القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ويقول قد خولطوا ، ولقد خالطهم أمر عظيم لا يرضون من أعمالهم القليل

ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون . ومن أعمالهم مشفقون إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له . فيقول : أنا أعلم بنفسى من غيرى وربى أعلم بى من نفسى ، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيماناً فى يقين وحرصاً فى علم ، وعلماً فى حلم ، وقصداً فى غنى ، وخشوعا فى عبادة وتجملا فى فاقة . وصبراً فى شدة ، وطلباً فى حلال ونشاطاً فى هدى وتحرجاً عن طمع يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمشى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر يبيت حذراً . ويصبح فرحاً : حذراً لما حذر من الغفلة . وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة ، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره . لم يعطها سؤلها فيما تحب . قرة عينه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى ، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل .

تراه قريباً أمله ، قليلا زلله . خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، منزوراً أكله سهلا أمره ، حريزاً دينه . ميتة شهوته ، مكظوماً غيظه . الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، إن كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين وإن كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . بعيداً فحشه ، لينا قوله . غائباً منكره حاضراً معروفه ، مقبلا خيره ، مدبراً شره . فى الزلازل وقور وفى المكاره صبور . وفى الرخاء شكور .

لا يحيف على من يبغضه ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق ، قبل أن يشهد عليه . لا يضيع من استحفظ . ولا ينسى ما ذكر . ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار . ولا يشمت بالمصائب . ولا يدخل فى الباطل

ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغى عليه صبر، حتى يكون الله هو الذى ينتقم له، نفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة؛ أتعب نفسه لآخرته؛ وأراح الناس من نفسه، بعده عما تباعد عنه زهد ونزاهة؛ ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة؛ ليس تباعده بكبر ولا عظمة. ولا دنوه بمكر وخدعة (١).

الموضوع فى النص المأثور :

تنفست روح الإمام على رضى الله عنه بهـــذه الحقائق الربانية فى تصوير أدبى خالد حينما سأله أحد أصحابه عن أو صاف المتقين، ومقاماتهم عند ربهم، وأحوالهم فى الدنيا، لكى يراهم عن قرب، يرى مكانه منهم لكن الإمام تثاقل فى الإجابة وقال: ياهمام اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. ولكن همام العابد لم يقنع بهذا القول حتى عزم عليه أن يصف له المتقين؛ فوصف له المتقين فى هذا الأثر الروحى الخالد.

---

(١) نهج البلاغة: الإمام على رضى الله عنه ١٨٥/٣ : ١٩٠ — زفير النار: صوت وقودها. شهيقها: شدة الزفير فيها. القداح جمع قدح وهو السهم قبل أن يراش. بوى: بمعنى أن الخوف رقق أجسامهم وأضعفها: خولط: أصاب العقل ذهول من شدة الخوف من الله. مشفقون : خائفون؛ قصداً اعتدالا؛ التجمل فى الفاقة: التظاهر باليسر عند الفقر. التحرج: البعد عن الطمع. استصعبت: لم تلبه نفسه؛ ما لا يزول: الآخرة؛ ما لا يبقى. الدنيا. المنزور. القليل. الحريز: الحصين. الزلازل: الشدائد الوقور: الذى لايضطرب: وهو الذى لا يرتكب إثماً.

خصائص النص المأثور :

ناهيك بالجانب الروحى هنا . فقد جمع قواعد الزهد ، وأصول التقوى وحقائق المعرفة . وإحسان الإيمان ، مما جعل هذا النص الأدبى مثلاً أعلى فى الأدب الإسلامى يطهر النفس من أوساخ الحياة . ويجرد الروح من خبائث الجسد وشهواته التى تقيدها . وتكدر الصفاء الإلهى فيها . وكان مثلاً أعلى أيضاً فاض عنه الأدب الزاهد فى عصر بنى أمية ونسجت منه الأحزاب السياسية المناوئة أدبها الإسلامى الثائر على جور الحكام فيه ، وسترى ذلك الأثر واضحاً فى أدب الخوارج عامة ، وفى خطبة أبى حمزة الشارى خاصة . حين وصف أصحابه المتقين فى قوله :

شباب والله مكتهلون فى شبابهم . غضيضة عن الشر أعينهم إلى آخر خطبته . وفى مقطوعات قطرى بن الفجاءة الشعرية الزاهدة ، وغير ذلك مما سيأتى فى مكانه إن شاء الله تعالى ، وكان أثر الإمام واضحاً وقوياً فى أدب الإسلامى بعد ذلك فقد استمد مضمونه الروحى منه .

إلا أن المحتوى موصول بذلك الأدب الروحى الرفيع ، وفى الأدب الإسلامى تجد أن المتقين بالصفات السابقة هم أهل الإحسان : لأن منطقهم الحق وأسماعهم موقوفة على العلم النافع لهم . فهم يرون الله بروحهم عن قرب : (عظم الخالق فى أنفسهم) ويرون الجنة والنار : (فهم والجنة كمن قد رآها إلى آخره) ويزهدون مما فى أيديهم عن عفة وصبر (وأجسادهم نحيفة إلى آخره) ، وهم دائماً فى يقظه لأن الروح الطاهرة تظل موصولة بربها ليلا ونهاراً : « أما الليل فصافون .. وأما النهار فحلماء إلى آخره » يستقلون العمل فى جانب الله ، ويزداد خوفهم من الله إذا اطلع الغير على

قربانهم وزكاهم فيها ، وحينئذ يطلبون المغفرة من الله على جرمهم فى الظهور ولاذنب لهم فى ذلك كما فى قوله : « ويقول قد خولطوا إلى قوله : ما لا يعلمون » ، وترى هنا غير ذلك من مقومات الأدب الإسلامى من العلم والحلم ، والصبر والقصد ، والتجمل فى الفقر ، والعفة ، والزهادة فى الدنيا ، وقرة العين فى الآخرة يجود بما عنده ويصل من قطعه ، موصول الذكر ، دائم الشكر ، مكظوم الغيظ ، مأمول الخير ، مأموق الشر ، وقور فى الشدائد ، صبور فى المكاره ، متوكل على ربه يقول الحق ولو كان مرا من غير استدعاء بعيد عن الباطل ، أمين فيما استحفظ ، ملتزم الصمت مبتسم إذا ضحك ، لا يخون الأمانة ويحفظ حق الجار ، وفى العهد ، بعيد عن الناس من غير كبر ، وقريب منهم دون مكر الناس منه فى راحة ونفسه فى مجاهدة من جسده ، وغيرها من المقومات الروحيه السامية التى أخذت بنفس همام ، فصعق صعقة استوفت نفسه فيها ومات لساعته وهذ ما كان يخشاه الإمام منه حين راجعه مرة فأبى إلا أن يقول ، وكان فى القول قضاؤه وحتمه .

قال أمير المؤمنين : أما والله لقد كنت أخافها عليه ، ثم قال : أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها ، فقال له قائل . فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ويحك ، إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه وسبباً لا يتجاوزه ، فمهلا لا تعد لمثلها ، فإنما نفث الشيطان على لسانك(١) .

---

(١) نهج البلاغة : ١٩١/٢ ومعنى فما بالك ، أى لم تمت مع انطواء قلبك على هذه المواعظ وهو سؤال الوقح البارد الذى غلب الشيطان عليه . وأرى أن هذه زيادة حملت على النص وصاحبه .

يقول الشريف الرضى واصفاً أدب الإمام بالنور الربانى : والعبق المحمدى . إن كلامه عليه السلام الوارد فى الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمله المتأمل وفكر فيه المتفكر . . لم يعترضه الشك فى أنه كلام من لاحظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة . . وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبدل الأبدال ؛ وهذه فضائله العجيبة وخصائصه اللطيفة ، التى جمع بها بين الأضداد وألف بين الأشتات(١) .

أما خصائص الأثر الصحابى الجليل الفنية هنا فقد سمت بالنص إلى قمة البلاغة . ونهاية الفصاحة اجتمعت فيه وسائل البيان ، فى أقوى تصوير وأدق تعبير ، وانتقى فيه من الكلام ما هو أنسب للمقام ، وأوفى بالمعنى وأتم للغرض : حتى قيل : لم يترك غرضاً من أغراض الكلام إلا أصابه ولم يدع للفكر ممراً إلا أجابه(٢) .

فهو يتضمن من عجائب البلاغة . وغرائب الفصاحة ؛ وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ، ما لا يوجد — مجتمعاً فى كلام ولا مجموع الأطراف فى كتاب ،إذا كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ؛ وعلى أمثلته حذا كل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ(٣) .

ومن هذه الخصائص الفنية : جزالة اللفظ وقوته ، وعذوبة الكلمة

---

(١) مقدمة نهج البلاغة : الشريف الرضى ٤ ، ٥ .

(٢) الإمام محمد عبده فى مقدمة تحقيقه لكتاب نهج البلاغة .

(٣) الشريف الرضى فى المقدمة .

ورقتها ، وإحكام العبارة ودقة التركيب ، وروعة التنسيق بين الفقرات . وتلاؤم الإيقاع فيها ، وأعان على قوة التأثير قصر الجمل : وتشابه الفواصل فيها . ليتجانس النغم ، وينسجم الصوت مع نظيره ؛ مع غير كلفة أو تصنع فى سجع أو طباق أو مجانسة : حيث جاءت عفو الخاطر ، ووقعت حيث اقتضاها المقام كالسجع والجناس فى قوله : وحرصاً فى علم ، وعلماً فى حلم . والسجع والطباق والجناس فى قوله : يمشى وهمه الذكر ، وغير ذلك كثير لمن تأمل كما فى قوله : الخير منه مأمول والشر منه مأمون وهكذا .

أما غزارة النص بالصور البيانية فحافل بالكثير من الألوان الخيالية الرائعة مابين تشبيه : نزلت أنفسهم .. كالتى نزلت فى الرخا — فهم والجنة كمن قد رآها — وهم والنار كمن قد رآها — براهم الخوف برى القداح — يحسبهم مرضى .

واستعارة فى قوله : ملبسهم الاقتصاد — وقفوا أسماعهم — لم تستقر أرواحهم طرفة شوقا — أعقبتهم راحة طويلة — وأسرتهم — يستثيرون دواء دائهم — مسامع قلوبهم — أصول آذانهم — براهم الخوف — برى القداح وغيرها كثير .

وكناية فى قوله : غنياً عن طاعتهم إلى آخره — عظم الخالق فى أنفسهم — أجسادهم نحيفة وما بعدها — قد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم — حرصاً فى علم وما بعدها — قرة عينه فيما لايزول — وزهادته فيما لا يبقى وقلما تجد عبارة هنا تخلو من كناية رائعة ؛ اكتسبت مضمونها لامن العصر الجاهلى ولكن من الروح الإسلامية والقـــرآن الكريم ؛ روحا ومعنى واقتباساً وتمثلا منه .

وما أروع الصورة الأدبية فى قوله : أما الليل فصافون ... إلى قوله

يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم ، حيث صورت عباد الرحمن بالليل والناس نيام ، وهم فى صفوف تجانست فيها أقدامهم ، فلا يبدو غير القدم منهم ليأخذ مكانه من الجميع فقط ، أما بقية الجسد فلا وجود له ولا تقدير وأما الروح فقد تجندت مع من تآلف ، وأخذت ترتل أجزاء القرآن ترتيلا ، ليطبوا به نفوسهم ، ويطهروا أرواحهم ، فإذا مروا بآية فيها جلال الله ونوره ، ازدادوا شوقاً إليه أو بآية فيها ذكر الجنة ، رأوها نصب أعينهم ،وإذا مروا بآية فيها ذكر النار، أبصروها عن قرب ففزعوا من زفير جهنم ، وشهقوا منها شهقة تأخذ بمسامعهم فلا يسمعون بعدها وهم حانون أصلابهم على أجزائه القرآن يتلونه راكعون ساجدون لربهم بعد التلاوة ، وقد انثنت أوساطهم من العكوف على أجزائه وافترشوا فى صلاتهم فراشا من أبدانهم ليسخروها فى طاعة الله . فجعلوا من جباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم مصلى . تغنيهم عن الفراش. فهم هكذا ينحتون من أجسادهم ليلة بعد ليلة . لتخلص أرواحهم وتنعتق رقابهم من عبودية الدنيا . وأغلال الشهوات فيها . لذلك انبرى جسدهم برى القداح .

صورة أدبية رائعة تنقل مشهداً رائعاً بالليل من مشاهد عباد الرحمن فكأنك الآن تقرأ معهم وتستبشر بما يستبشرون . وتخاف مما يخافون فتسمع شوقهم إلى الله وإلى الجنة . وتفزع من زفـــيرهم وشهيقهم من عذاب جهنم . وقد ظهروا نحاف الأجسام عجاف الأبدان . لا ترى فيهم غير الروح . ولا يغمرك منهم إلا الوضاءة والنور . اكتملت عناصر التصوير فيها فترى موقفهم فى الليل بعيداً عن أعين الناس . يتلألأ نورهم فى الظلام الدامس . مع صفرة أجسادهم وشحوبها من كثرة السهر والعبادة

تسمع أصواتهم وأشواقهم وأناتهم ، وتشم منهم رائحة الجنة التى عطرتهم بروحها وريحانها ، كل هـــذا فى الموقع من الصورة واللون والصوت والحركة والطعم من عناصر التصوير الأدبي الرفيـع .

هذه هى سمات الأدب الإسلامى فى عصر الصحابة رضوان الله عليهم سواء أكانت من ناحية المضمون أم كانت من ناحية الشكل الفنى فى التصوير، وتلك أغراضة وألوانه الأدبية ، وإن بقى منها بعض الأغراض التى كانت تأتى تبعاً للأغراض السابقة مثل وصف الجنه وأهلها ، ووصف النار وأصحابها ، ووصف القرآن ، والسنة الشريفة وغيرها مما جاء تبعاً للأغراض السابقة التى تناولناها بالتفصيل ، ومنها الزهد الذى أصبح كالبحر الزاخر للعصور التالية فى الأدب الإسلامى .

ولقد تأثر أبو حمزة الشارى كثيراً بالنص السابق للإمام على رضى الله عنه فى وصف أصحابه الزهاد المتقين فقال أبو حمزة الشارى فى أهل مكة بعد أن حمد الله وأثنى عليه(١) .

« أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان لايتأخر ولايتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه ، أنزل الله كتابا بين له فيه ما يأتى وما يتقى ؛ فلم يكن فى شك من دينه ؛ ولا شبهة فى أمره ، ثم قبضه الله إليه ، وقد علم المسلمين معالم دينهم ثم قال يصف النساك من أصحابه مخاطباً أهل الحجاز » .

« يا أهل الحجاز : أتعيروننى بأصحابى ، وتزعمون أنهم شباب ، وهل

---

(١) هو أبو حمزة يحى بن المختار ، الخارجى الشارى ، من الفرقة الأباضية وأحد خطبائها المشاهير ، قال الجاحظ هو أحد نساك الأباضية (٢ / ٢٧٥) البيان والتبيين .

كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا ، أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، لولا اشتغالى بغيركم عنكم ، ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها . وإذا مر بآية من ذكر النار ، شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، وقد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعـــد الله ، ومضى الشباب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء ، فكم من عين فى مناقير طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها فى جوف الليل بالسجود لله .

ثم قال : أوه ، أوه ، أوه ، ثم بكى . ثم نزل(١) .

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : ٢٧٧/٢ — معانى المفردات : التتابع التردى فى الشر والسقوط فيه . مكتهلون والكهل : ما فوق الثلاثين سنه . غضيضة : من غض إذا خفض البصر . وغضيض الطرف أى فاترة . وشىء غض وغضيض أى طرى . وغض الشباب طريه وغض منه أى نقص ! أنضاء . عبادة : بمعنى أتعبتهم العبادة وأجهدتهم . حتى صاروا كالإبل الهزيلة ضموراً فيقال بعير نضو أى مهزول . وانتضى سيفه أى سله =

الموضوع فى الخطبة

اشتملت الخطبة على الجانب الروحى ممثلا فى عناصر كثيرة فرأى أن رسول الله ﷺ كان يحكم بوحى من عند الله وأمره . فأنزل عليه كتاباً يسير على هديه ، ويحكمه فيما يجد من أحوال ويتقى به ما تتقلب به الدنيا من فتن وشرور ولذلك سلم حكمه من الشك . وأمره من الشبهات حتى قبضه الله إليه بعد أن اطمأن المسلمون إلى معالم دينهم ، ثم جاء أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وعملا بكتاب الله وسنة رسوله ، ثم مضوا إلى ربهم ، ثم سار عثمان رضى الله عنه بسيرة صاحبيه . وكان دونهما ؛ حتى تولى على بن أبى طالب رضى الله عنه أمر المسلمين ، فلم يستقر الأمر فى يديه لفتنة اندلعت بين المسلمين ، تحول الحكم بسببها إلى بيت بنى أمية فتفرق المسلمون شيعا وأحزابا :

« ظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لم يفارقوا الناس

= من غمده ! أطلاح والطلح : هو العيى الذى سقط من شدة الإعياء وكثرة الجهد والتعب . منحنية : من حنى ظهره إذا عطفه وثناه : كلاطم والكل : هو العيال والثقل . وعى من المشى وهو المقصود هنا . تخضبت : بالحناء وجهه والمراد اختلاط دم الشهادة بوجهه فأصبح كأنه تخضبا انحط: نزل الجوف : البطن والأجوفان البطن والفرج . الشهقة : تردد البكاء فى الصدر . والزفير : صوت النار، أوه : يحكى الصوت الذى يدل على الأنين وشدة الحزن. فوفت : إذا ركبت فى أقواس الرمى . أشرعت: صوبت. انتضيت : أخرجت من أغمادها . القدم : المضى إلى الإمام .

بيصر نافذ فى الدين ، ولا بعلم نافذ فى القرآن ، ينقمون المعصية على أهلها ويعملون إذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ، ولا يعرفون المخرج منها جفاة عن القرآن .أتباع كهان يؤملون الدول فى بعث الموتى . ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا . فكان أبو حمزة يذكر أحوال الخلفاء من بنى أمية حتى انتهى إلى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز فأخرجه منهم ، ثم انتقل إلى وصف أصحابه من زهاد الخوارج(١) :

١ — اتهم أهل الحجاز أصحابه بأنهم شباب ، خلوا من حنكة الشيوخ وحصافتهم : فهم أغرار أخفاء لا حكمة فى رأيهم . ولا تجارب فى حياتهم مما يساعدهم على حصافة الرأى ، وصواب القول ، ورزانة التصرف والتروى فى الأمر وعمق التجربة .عيروه بكل ذلك مما يوحى به الإتهام فى قولهم :« أنهم شباب» ، فرد أبو حمزة اتهامهم ، ودحض افتراءهم ، ووضح لهم وجه الخطأ فيما يدعون ، ذلك بأقوى حجة وأنفذ دليل ، فالذى يدعو إلى العجب أن ما تتهمونه به هو عنوان فخارهم ، وتاج فضلهم ، فهم حقاً شباب لا كما تدعون ، ولكن هم شباب كأصحاب رسول ﷺ فقد كانوا شبابا . لكن الإسلام جعلهم فى ثوب الشيوخ فنصر الله الإسلام على أيديهم .

وفى هذه الحجة الدامغة ، والقول الفصل ، الذى يردكم عن الإتهام وينأى بكم عن الخطأ فى التقدير ، وإلا ترجعوا ، فأنا أعلم بكم من أنفسكم فقد تماديتم فى الباطل ، وترديتم فى الشر ، بما تضرون به أنفسكم يوم المعاد . ولولا أنى وأصحابى قد صرفنا الهمم لمن هم أقوى منكم فى السلطة والحكم لأخذنا على أيديكم . وقاتلناكم حتى تعودوا إلى رشدكم وترجعوا

---

(١) البيان : الجاحظ : ٢/٢٧٦ .

عن اتهامكم . وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ فى إحقاق الحق ودحض الباطل . فلم يجرؤ أحد أن يرميهم بحداثة السن وميعة الشباب .

٢ — ومثل هـذا الشاب الذى يسير على سنة السلف الصالح . اتصفوا بصفاتهم : صفات الشيوخ من الحلم والعقل والحكمة والإصابة . والوقار والرزانة . والتأمل والروية : والصلاح والتقوى : يغضون أبصارهم عن الشر بكل وسائله . ولا ينغمسون فى الباطل . ويدافعون عنه فلا يعرفون إلا الخير . ولا يحيدون عن الحق بل يدافعون فى جسرأة وشجاعة ، حتى نحلت أجسادهم من الجهاد فى سبيله ، وضمرت أبدانهم من العبادة ، وأصابهم العي من تتابع السهر خوفا من الله ، وابتغاء مرضاته وما زالوا كذلك يتقربون إليه بالليل والنهار ، حتى أحبهم الله ، ونظر إليهم فى جوف الليل لخصهم بالسكينة ، وتغشاهم بالرحمة وقد انحنت ظهورهم من الاستمرار فى الركوع والسجود ، وانثنت أصلابهم لانحنائهم على أجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا ، وينفذون إلى أغواره ، ويتذكرون بمعانيه ، فإذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة ونعيمها ازداد حنينه إليها . وانتحب يبكى شوقا . كأنهم يرونها بقلوبهم رأى العيان . ويشمون رائحتهـا الطيبة فى القرآن حبل الله المتين . وإذا مروا بآية فيها ذكر النار . أخذت بتلابيب أنفسهم وغابت أنفاسهم عن صدورهم حتى يكاد القلب أن يسكت ويقضى على صاحبه . فيشهقون شهقة تمتلأ منها قلوبهم . وكأن أصوات شهقاتهم . امتداد لزفير جهنم الذى امتلأت به أسماعهم . فهم يرونها ببصيرتهم رأى العيان . ومن رأى النار خافها وتجنب الطريق إليها ،ولا عجب فى ذلك فالخيال — وهو خيال — فى عرف الشعراء ورقة شعورهم يجعل المعنى الذهنى محسا . والفكرة المجردة مشهداً من مشاهد الحياة . فكيف برؤية القلب والبصيرة ـ وهما حقيقتان ـ إنهما يريان الجنة والنار رؤية العيان.

٣ — ومثل هؤلاء الشباب ترى الواحد منهم قد أسهر ليله مع ربه دائم الصلة به ، لا يشغله عن الله شيء لأنه عرف طريق الحق ، وذاق حلاوة الإيمان ، ونعم بلذة اللقاء ، لا يغفل عن ربه ليلا أو نهاراً فإذا أيقظ ليله ، امتدت اليقظة فى النهار ، فتراهم ركعا سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وقــد برتهم العبادة نحولا ، فما برحوا عن الطاعة لحظة من نهار ، فأكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، وكأن عوامل الفناء فى طاعة الله ، ترجع إلى أمرين : إلى مواصلة العبادة بالليل ، وإلى ملازمتهم الأرض التى ضمتهم كما أفنت الموتى وذابوا فى ترابها ، فهم يسكنون إليها دائما ، لا يشغلهم متاع الحيــاة الدنيا ، ولا تحركهم شهواتها وملذاتها ، ولكنهم إذا تحركوا من الأرض كانوا أسوداً فى الجهاد . ويرون عملهم هذا دون ما يستحقه الله من الشكر .

٤ — لا يصرفهم عن العبادة وملازمة الأرض فى الطاعة إلا الجهاد فى سبيل الله ، حتى إذا أذن به ، اصطفوا للدفاع عن الحق ، فترى النبال قد أحكمت فى الأقواس ، والرماح قد أشرعت للرمى ، والسيوف قد أخرجت من أغمادها للضرب ، فإذا التحم الجيشان أبرقت السيوف من كثرة التلويح بهــا أثناء الضرب يمينا وشمالا ، وتتساقط الموتى بصواعق التلاحم والتضارب ، وهم فى ذلك يلبون نداء الحق ، ويتمنون الشهادة فى سبيله ، حتى ينعموا بوعد الله لهم فى الجنة ، ويستبشرون بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، فرحين بمــا أتاهم ربهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ولذلك يضربون أروع أمثال البطولة والشجاعة ، فلا تراهم إلا مقبلين دائما لا يولون الدبر ، حتى إذا أثخن أحدهم الضرب ، واصل

قتاله ورجلاه تختلف على عنق فرسه ، حتى لا ينزل عنه إلا وهو شهيد تخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فيتصافح عليه نور العبادة ، ورائحة الشهادة الزكية ، ولتنعم روحه عند ربه ، أما مايتصل بالأرض من أجسادهم ، فلا يلقون إليه بالا ، فقد ابتغوا طول حياتهم التخلص من أبدانهم فى دوام العبادة ، فالروح من الله ، وقد عادت إلى السماء ، والجسد من الأرض ، وقد هبط إليها . ولا ضير أن يتحلل البدن فى الأرض مباشرة ، أو يتحلل بوسيلة من وسائل الأرض ليعود إليها حين تلتهمه سباع الأرض وطيور الجو ، فكم من عين فى منقار طائر ، لوعلم هذا الطائر أنها كانت تبكى من خشية الله فى جوف الليل لما طار بها فى الجو وكم من كف زالت عن معصمها فأمسك بها سبع من سباع الأرض وعض عليها بفمه . ولو علم أنه طالما اعتمد عليها صاحبها ساجداً لله لما أمسك بها وسقطت من فمه ولخر السبع ساجدا لربه وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .

هذا هو الجانب الروحى فى النص الأدبى ، الذى تعمق فى نفوس أصحاب أبى حمزة الشارى فلبسوا به ثوب الزهاد ، وسمت أنفسهم به عما حفت به الدنيا من الشهوات والملذات ،ولقد كان للسمو الروحى هنا الأثر القوى فى الأدب الإسلامى وبناء أصوله ؛ وتحديد معالمه وخصائصه .

الخصائص الفنية :

صور أبو حمزة الزهاد من أصحابه أبلغ تصوير ، ووصفهم أدق وصف ، وأعطاهم فى خطبته ما هو واقع بهم ، وأعظم ما حفل به الوصف هنا قوة التصوير الأدبى ، الذى التق فيه الإقناع والتأثير بأدواته : من

اللفظ ، والعبارة ، والصورة ، والموسيقى ؛ فأما الإقناع فلم يقتصر على وضوح المعنى ، وعمقه ، وخصوبته ، وتأييده بالدليل القوى والحجة الواضحة فحسب وغير ذلك مما يتجه إلى الفكر والعقل، ولكنه أدى ذلك فى صور تتفتح لهـا نوافذ الإدراك الأخرى فى النفس من الوجدان والشعور والعاطفة ليتنبه العقل عن طريقها قبل أن يعى ، ويتيقظ قبل أن يقتنع ، وذلك عن طريق إرسال المعنى فى صور أدبية محسة ، فكان تصوير المعنى المجرد فى صورة محسوسة يعد دليلا آخر ينفذ من خلال المشاعر إلى العقل ، يساند الأدلة الأخرى المجردة وعلى هذا فمصادر الإقناع فى الوصف هنا ترجع إلى أمور أهمها :

١ — وضوح المعنى فى كل عناصر الخطبة كما وضحنا ذلك فى الجانب الروحى ، فالمعانى فى العبادة والطاعة واضحة مثل معنى الاكتهال فإنه يدل على العقل والحكمة والوقار والرزانة والروية والصلاح وغير ذلك مما سبق .

٢ — عمق المعنى : لا يتعارض الوضوح مع العمق فى المعنى وتلك قدرة لا يجيدها إلا البلغاء ، والعمق ظاهر فى كل فقرة ،فحين شبه أصحابه الشباب بالصحابة رضى الله عنهم أعطى لهم من الصفات والشمائل ما غرسه الإسلام فى أعماقهم ، وما تأصل فى نفوسهم من خلق القرآن .

٣ — خصوبة المعنى ترجع إلى اتساعه وشموله ، فإذا تأملت المعنى فى لفظ « أنضاء » مثلا تراه يفيد الضمور وهزال الجسد ونحافته ، ومع ذلك يفيد القوة والشجاعة لأن الضمور هنا ليس بمعنى الضعف والخور فالجواد الضامر أقوى وأشد من الجواد المترهل والمكتنظ باللحم، ولذلك كان العرب يضمرون جيادهم وإبلهم استعداداً للحرب .

٤ — الدليل القوى والحجة الواضحة : وذلك على سبيل المثال حين رد أهل الحجاز فيما اتهموا به أصحابه من الخفة والطيش ، فأسكتهم بأدلة واضحة ، فهم مثل أصحاب رسول الله ﷺ وقد كانوا شبابا وقادوا العالم إلى الحق والنور ، وأسكتهم بحجة انتزعها من أهل الحجاز أنفسهم وهى توجيه الاتهام إليهم ، فقد تمادوا فى الباطل وانغمسوا فى الشر ، فهم أحق بالتهمة من أصحابه ، وهم يستحقون توجيه الجيوش إليهم لتأديبهم؛ثم الدليل القوى الذى يتضح فى اتصاف أصحابه بصفات عباد الرحمن وتقلبهم فى الطاعـــة بالليل والنهار . وكأنه يرد عليهم الاتهام بواقع أصحابه العملى من مواصلة العبادة والجهاد فى سبيل الله .

٥ — التصوير الحس . . يقوم التصوير الحس هنا مقام سوق الدليل فى الإقناع ، وربما يكون أقوى لأنه يستميل القارىء ويحرك الوجدان ويوقظ العقل قبل أن يستقر فيه الدليل؛فإذا أراد أن يقنع السامع بفرحة الشهيد للقاء ربه — وهو معنى ذهنى مجرد تفتش عنه النفس فى جوانبها الخفية — ساقه فى هذه الصورة المحسة المألوفة لتكون كالدليل فى الإقناع وهى قوله : وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ؛ فالخضاب يكون بالحناء إعلانا عن الفرح والسرور لا بالدماء التى يفزع منها الإنسان ؛وخاصة إذا التق هـــذا الحسن مع النور الساجى على وجهه من أثر العبادة فيتعاظم البشر بلقاء الله ؛ وتتم الفرحة بالنعيم المقيم ؛ وتلك الصورة المحسة فى الخضاب لتمثل أقوى الأدلة فى الإقناع بالمعنى المراد من العبارة وهو بشرى الشهادة .

وأما الشق الثانى فى هـــذا الغرض الأدبى فيرجع إلى التأثير الذى يستمد قوته مما يأتى :

١ — فاللفظ قوى جزل ؛ قد انسجمت حروفه وتلاءمت أصواتها لأداء المعنى المراد، فترى الحياء من الله فى لفظ « غضيضة » وخاصة فى امتداد الكسرة التى اقتضى المد فيها حرف الياء . وفك الإدغام فى الضاد . أصلها ؛ الغض فأعطى للفظ امتداداً وطولا إلى أقصى ما يمكن أن يمتد ، وهو أشبه فى امتداده وغايته بما ينبغى أن يكون عليه المسلم من الحياء ، ثم ما تفيده كلمة « ثقيلة » من التثاقل والبطء الناتج من معنى اللفظ اللغوى . ومن ثقل حرفى الثاء والقاف فى إيقاعهما الصوتى ، ثم ذلك الثقل الناتج عن حرف اللين « الياء » ، وغيرها من الكلمات القوية الجزلة التى تلاءمت فيها المعانى بالحروف والأصوات والشكل مع الغرض الذى جاءت من أجله ؛ لذلك انتقى أبو حمزة الكلمات القوة النفاذة إلى القلوب .

٢ — والعبارة تتشكل فى جمـــل قصيرة سهلة لتتميز بسرعة الإلقاء وسرعة الفهم ، وتتابع المعنى ، وتلاحق الأثر النفسى ، فلا ينصرف السامع عن المتابعة، لأن قصر الجمله لا يمكنه من الانتقال إلى شىء آخر، فلا يشتغل الذهن بسواها مثل قوله : شباب والله مكتهلون فى شبابهم إلى آخره.

والعبارة وردت فى أسلوب قوى محكم ، بحيث لا تجـــد اضطرابا فى موضع منها ولا قلقا فى مكانها ، بل العبارات تنساق نحو الغرض فى جرس موسيقى متســاوق ، وأعان على ذلك ما يتناثر فيها من سجع ينتهى إليه الإيقاع فى نهاية الفقرات وبعض المحسنات كالطباق فى الليل والنهار والشهيق والزفير . والوعيد والوعد، وغيرها ، والمزاوجة فى قوله . كلال الليل بكلال النهار ، السهام قد فوقت والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت، ، وغيرها من ألوان المحسنات البديعية التى جاءت هنا عفوا فسلمت من الكلفة والتصنع وخلت من القهر والاقتسار كالجناس والتقسيم والترادف وغيرها .

وزواج أيضاً فى الأسلوب بين الإنشاء والخبر حتى لا يمل السامع أو يسأم من الأسلوب الخبرى وحده أو الإنشائى وحده، ليظل هو يقظ العقل متفتح الوجدان والشعور . ولقد ابتدأ بالنداء والاستفهام لإثارة الانتباه . والتعبير عن الدهشة والإنكار . حتى إذا أمسك بمجامع قلوبهم . وردهم إلى الصواب . ودفع التهمة عن أصحابه بالأسلوب الإنشائى أخذ يخبر عنهم ويصف حالهم بأسلوب يتسم بالهدوء والتأمل . وكان ذلك فى الأسلوب من أول قوله : شباب والله مكتهلون فى شبابهم إلى آخر النص الأدبى .

وتأثر الأسلوب بالقرآن الكريم فكان سهلا لا تعقيد فيه ولا غموض رقيقاً يفيض عن مكنونه بأدنى تأمل ؛ ظهر فيه روح القرآن واضحا فى قوله : قد نظر الله إليهم إلى آخره ، مستمداً من قوله تعالى : تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وفى قوله : قد أكلت جباههم ، من قوله تعالى : تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

وتأثر كذلك بكلام على بن أبى طالب فى الزهد ووصف المتقين وقد مضى ذكره ، وخاصة فى الأسلوب وبعض الصور وعلى سبيل المثال قال على رضى الله عنه : أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن إلى قوله : قد براهم الخوف برى القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى فتأثر به أبو حمزة فى قوله : أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، وقوله : فنظر الله إليهم فى جوف الليل إلى قوله : وجباههم . وظهر التأثر فى غير ذلك فى مواطن كثيرة ، وكلها تدل على أن الأدب الإسلامى فى هذه المرحلة كان يعتمد كل الاعتماد على نظيره فى المرحلة الأولى(١) .

٣ — والصورة الأدبية هنا تشخص لك المعانى المجردة ، وتجسم ما خفى عن النفس وذلك عن طريق الخيال ، الذى أسهم فى قوة التأثير كما يأتى :

---

(١) انظر ما سبق فى قول الإمام على رضى الله عنه .

(أ) التصوير المحسن حين يلتقط الخيال صورة من الواقع ، وينتقى أقوى المشاهد فى الحياة ، التى تتناسب مع المعنى لتثير النفس ، وذلك مثل عباد الرحمن وهم فى جوف الليل يعبدون ، والزفير والشهيق ، والرعد والبرق والصواعق فى تلاحم القتال واختلاف الرجل على عنق الفرس والخضاب والدماء ، والعين فى منقار طائر ، والكف فى فم وحش وهكذا كان من الواقع يأخذ مشاهد محسة يعبر بها عما يريد من معان .

(ب) الصور البيانية التى ابتدع الخيال فى صوغها ، فأعطاها من القوة والتأثير، مايجعلها تستقر فى النفس ، فاختلفت الصور هنا من استعارة إلى كناية وتشبيه ، ومجاز مرسل، كلها جاءت لتوضيح الغرض ولكى تترك فى النفس أثرا كبيراً .

وفى التشبيه ترى تشبيها ضمنياً حين شبه أصحابه بأصحاب رسول الله ﷺ فى الصفات السابقة ، وكذلك فى تشبيههم بالكهولة فى الحنكة والرونة والوقار والرزانة والعقل وطول التجربة والإصابة ، والتشبيه البليغ فى قوله: كلال الليل بكلال النهار فى معنى المواصلة ومتابعة العبادة بحيث لا فرق فيها بين الليل والنهار .

والاستعارة فى قوله : أكلت الأرض . . تصور شغفهم بالعبادة وشدة إقبالهم على الطاعة واستغراقهم فى الصلاة وخاصة فى السجود ، حتى أن الأرض أعانتهم على ضمور أجسادهم ونحافة أبدانهم ، فذابت من العبادة والجهاد بالليل والنهار ، والأرض تأكل منهم وهم يخرون ساجدين لربهم ويطيلون فى ذلك حتى تتمكن منهم ، والاستعارة فى قوله : ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، تصور ضراوة القتال ، وجلبة المعركة فتلمع السيوف ، وتصطك بعضها بالبعض ويتردد صداها فى ساحة القتال.

لتتجاوب مع أصداء وقع السهام والنبال على الدروع ، ثم تلك الصرخات والأنات للقتلى والجرحى . وأصوات الحماسة للإحجام والإقدام . كل هذه المشاهد من واقع المعركة وغيرها نقلتها إلينا الاستعارة فى رعدت وفى برقت ، ثم الاستعارة فى قوله : وتخضبت بالدماء ، التى تصور فرحة المسلم بالشهادة ، وابتهاجه بلقاء ربه ، فالشأن فى الدماء الخوف ، والفزع والرعب ، لكنها إذا ظهرت فى صورة الخضاب تزهو بها النفس ؛ فكأن الشهيد تزفه الملائكة إلى ربه ليلقى أعظم الجزاء . ويسمو إلى منازل النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

أما الكنايات فما أكثرها فى هذا النص الأدبى الرفيع . فالكناية عن العفة فى قوله : غضيضة عن الشر أعينهم ، وفى البعد عن الخطايا فى قوله: ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، والكناية عن الحنين إلى الجنة فى قوله : كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وعن الفزع من النار فى قوله: وإذا مر إلى آخره ، والكناية عن دوام الاتصال بالله فى قوله : موصول كلالهم بكلالهم ، وجملة قد أكلت الأرض ركبهم إلى آخرها : كناية عن إطالة السجود والاستغراق فيه ؛ والكناية عن الشهادة فى قوله : استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، والكناية عن الشجاعة فى قوله : اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وهكذا ترى الكنايات فى تصويرها المتأنى الدقيق ، تتمنع على العقل قليلا فى حياء وخفر ، حتى إذا تكشفت حلت من القلب فى أكرم منزل واستقرت فيه على قدر تمنعها من العقل ، وتأبيها على النفس وهذا من أسرار البيان العربى ودلائله العجيبة فى التأثير والإقناع .

٤ — الإيحاء : يشمل الصورة واللفظ ؛ فأما الصورة فى الاستعارة والكناية فوقفنا على وحيها وشمولها لكثير من المعانى بحيث لا ينهض

اللفظ وحده بها ، لولا أنه وقع فى موقع الاستعارة أو الكناية ، فترى مثلا فى قوله : أنضاء عبادة كناية عن الضمور ؛ وهى فوق ذلك توحى بالقوة فى الجسد والعقيدة ؛ وبالاستغراق فى العبادة ، والزهد فى الدنيا والعفة عن شهواتها ، وأما الإيحاء فى اللفظ فتراه مثلا فى كلمة « شباب » فتوحى بالطيش والإنطلاق والتهور والإندفاع والحدة والهوى ؛ وكلمة « أصحاب » توحى بكل المعانى التى اتصف بها أصحاب الرسول ﷺ من التخلق بأخلاق القرآن ؛ ولفظ « مكتهلون » يوحى بالوقار والعقل والتجربة والتقوى ؛ والفعل « نظر » يوحى بالصلاح والتقوى والرحمة والرعاية والإعجاب والتقدير والقرب والرضى ؛ وفى الشهيق والزفير معان كثيرة فوق المعنى الأصلى شع به موقعهما من النظم ، فتشعر بمعانى الفزع والرعب والموت ومواصلة الطاعة ، والبعد عن المعصية ، ونفاذ البصيرة ؛ وشهود الحقيقة ؛ وتوحى الصواعق بشدة القتال وتلاحم النبال ، واصطكاك السيوف والدروع ، وارتفاع الأصوات ؛ وكثرة القتلى ، وضراوة المعركة وكذلك فى الألفاظ : تزعمون ، فوق ، غضيضة ، ثقيلة ، أطلاح كلالهم ، استخفوا ، مضى ، قدما ، اختلفت ، محاسن وجهه ، سباع ، طير عين ، كف .

عظمة الموت

كانت من أغراض الزهد فى الأدب الإسلامى ، فمن ذكر الموت هانت عليه الدنيا ، ومن اتعظ به زهد عما فى الحياة من زينة ومتاع فالموت نهاية كل حى ، فطوبى لمن عمل لما بعد الموت ؛ وكان أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا دخلوا فى الصلاة ، صلوا صلاة مودع ، فهم يعتقدون أن الموت من ورائهم فى كل عمل ، ولذلك أحسنوا وصدقوا وأخلصوا

يقول الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز(١):

أما بعد فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ، ولم يدع شيئاً من أمركم سدى ، وإن لكم معادا فخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحرم الجنة التى عرضها السموات والأرض ، واشترى قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، وخوفا بآمن ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، فى كل يوم وليلة تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله حتى تغيبوه فى صدع من الأرض فى بطن صدع ، ثم تدعه غير ممهد ولا موسد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وسكن التراب ، وواجه الحساب ، مرتهنا بعمله فقيرا إلى ما قدم ، غنيا عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت ، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب ما أعلم عندى ، وما يبلغنى عن أحد منكم من حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما يبلغنى أن أحداً منكم ما يسعه ما عندى إلا وددت أنه يمكننى تغييره حتى يستوى عيشنا وعيشه وأيم الله لو أردت غير ذلك من النضارة والعيش لكان اللسان منى به ذلولا ، عالما بأسبابه ، ولكن سبق من الله عز وجل كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته ، ثم وضع طرف ردائه

---

(١) هو أبو حفص أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم، خامس الخلفاء الراشدين كما قال سفيان الثورى ومصلح المائة الأولى والشافعى على رأس المائة الثانية كما قال الإمام أحمد بن حنبل وتوفى رحمه الله عام ١٠١ هـ .

على وجهه فبكى وشهق وبكى الناس وكانت آخر خطبه خطبها(١) .

من دلائل الصدق فى هذا النص الأدبى أنه خرج من قلب صادق قد شفه الإيمان وأرقه الزهد فى الحياة ، فعرف حقيقة الإنسان منذ أن خلقه الله ، فهو ميت مهما طال عمره ، فحياته وموته لا لأجل لذات الحياة والموت ، ولكن ليرى الإنسان مكانه عند ربه ، ويهيء لنفسه موقعاً فى منازل الآخرة ، فالخسران لمن حرم الجنة ، وكيف يغفل الإنسان عن حقيقته وهو يراها كل يوم فى الغادى والرائح من الأموات صباح مساء ، حتى ينتهى إلى شق من الأرض حيث كان يتوسد فيه التراب ، ويفترش الحصى والغبار .

ومما يؤكد الصدق فى هذا القول ما يؤكده الخليفة من عمل فالمحتاج يقضى حاجته حتى يستوى معه فى العيش ، ومن أراد أن يسعه ما عنده لود أن يفعل ذلك ،لأن ذنوبه ، تشغله عن التفكير فى أمر الدنيا والعناية بها .

فهذا الصدق يوقظ الغافل عن غفلته ، فيشعر أن الموت يقبل عليه ويسرى فى أحشائه ويقضى عليه شيئاً فشيئاً ، والصدق هو دليل البراعة فى القول سمع الحسن البصرى خطيباً يعظ ، لم يرق له قلبه فقال له : ياهذا إن بقلبك شراً أو بقلبى، وعمرعبد العزيز من أصدق الناس تعبيراً وأظهرهم قلباً ، وأزهدهم نفساً ، وأقربهم إلى الله وأبعدهم عن الدنيا ، فحينما دفن ابن عبدالعزيز الخليفة سليمان بن عبدالملك وخرج إلى الناس، سمع للأرض هدة أو رجة ، فقال : ما هذه ؟ فقيل هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قربت إليك لتركبها فقال : مالى ولها نحوها عنى ، وقربوا إلى

---

(١) صفة الصفوة : ابن الجوزى : ٧٠/٢ .

بغلتي ، فقربت إليه بغلته فركبها فجاء صاحب الشرط يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنح عني مالي وذلك إنما أنا رجل من المسلمين فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع الناس إليه فقال :

يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين ، وإني خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك : فتول أمرنا باليمن والبركة ؛ فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعاً خطب فيهم . . . حتى قال : وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلا ؛ ولا أمنع أحداً حقاً . ثم نزل فدخل ؛ فأمر بالستور فهتكت . والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها ؛ وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين ؛ ثم ذهب تبوأ مقيلا ؛ فأتاه ابنه عبد الملك ؛ فقال يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؛ قال : أي بني أقيل ؛ قال تقيل ولا ترد المظالم . قال : أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان . فإذا صليت الظهر رددت المظالم. قال : يا أمير المؤمنين من لك أن تعيش إلى الظهر . قال : ادن مني . فدنا منه . فالتزمه وقبل بين عينيه . وقال : الحمد لله الذي اخرج من صلبي من يعينني على ديني . فخرج . ولم يقل وأمر مناديه أن ينادي . ألا من كانت له مظلمة فليرفعها . . . فجعل لا يدع شيئاً مما كان بيده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة . فلما بلغت الخوارج سيرة عمر . وما رد من المظالم . اجتمعوا فقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل(١).

---

(١) صفة الصفوة : ابن الجوزي ٦٥/٢ .

ومن جوامع الكلم لرسول الله ﷺ فى أبلغ ما قالته العرب قاطبة :

١ — خطبة نبوية شريفة فى الشجاعة والصبر :

خطب رسول الله ﷺ يحث أصحابه على الصبر فى مواطن البأس يوم بدر فقال :

« أما بعد ، فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالخير ، ويحب الصدق ، ويعطى الخير أهله على منازلهم عنده .

وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه .

وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم ، وتدرك به النجاة فى الآخرة .

فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شىء من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم »

وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد .

وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا . وإليه المصير . يغفر الله لى وللمسلمين » .

٢ — أول خطبة فى صلاة الجمعة ؟

وهذه أول خطبة لرسول الله ﷺ فى المدينة المنورة حين صلى بهم صلاة الجمعة فى براعة وإيجاز مع غزارة المادة التى تجمع بين التشريع والوعظ يقول :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأؤمن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيداً . وأوصيكم بتقوى ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون وصدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لاينوى بذلك وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره . وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم . وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد والذى صدق قوله . وأنجز وعده لا خلف لذلك . فإنه يقول عز وجل : « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » . فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيما . وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه . وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة . خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله . قد علمكم الله كتابه . ونهج لكم سبيله . ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم . وعادوا أعداءه : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » ، وسماكم المسلمين : ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » ، ولاقوة إلا بالله . فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس . ذلك بأن الله

يقضى على الناس ولا يقضون عليه ؛ ويملك من الناس ولا يملكون منه الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

٣ — خطبة الوداع :

فى أيام التشريق وقف رسول الله ﷺ المشرع الحكيم يخطب بين الحجيج فى حجة الوداع واعظاً ومشرعا ومعلما ومبدعاً ، وبليغاً ومودعا يقول :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ؛ ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله . وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد فأيها الناس ! ! اسمعوا منى أبين لكم فإن لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع . وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر فيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه . ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ! إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم

الله » . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض :
« إن عـــدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله
السموات والأرض منها أربعة حرم » ثلاثة متواليات وواحد فرد :
ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل
بلغت؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق
لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ؛ ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم
إلا بإذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن
تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ؛ فإن
انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ؛ وإنما النساء عندكم
عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ؛ أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم
فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا ألا هل
بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ، لا يحل لإمرىء
مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا
ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم
ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله . الا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .
أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ،
وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، ليس لعربى على عجمى فضل
إلا بالتقـــوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا نعم ، قال : فليبلغ
الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث
فلا يجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر
الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل . والســلام عليكم

ورحمة الله وبركاته(١) .

هذه الخطب إنما صدرت عن أفصح العرب قاطبة انتهت بلاغة القول بنزول القرآن الكريم عليه وهو المثل الأعلى فى الفصاحة والبلاغة والإعجاز فى نظمه وتشريعه وأخباره ،خصه ربه بالوحى فكان أول من يتلهف إلى حفظه ويستعجل الوحى بقراءته لشغفة بسحره ، وانسجامه مع بلاغته واتساقه مع فطرته وطبيعته فينهاه ربه عن هذه العجلة ، فالقرآن موصول بقلبه، ويطمئنه باستقراره وحفظه لأنه أصبح قطعه منه وروحه النبوى فقال تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » .

لهذا لا ينفك أسلوب صلى الله وخليله عن روح القرآن وبلاغته فى لفظه العذب والرقيق الجزل وفى اتساق نظم وأحسن موقع ، وسلاسة فحوى وسهولة مخرج ، فهو أسلوب نقى صاف وسهل ممتنع ، يحفل بالحكم البديعة والمعانى الغزيرة ، التى لا تصدر إلا عن نفس شريفه عزيزة،حازت أول ما حازت شرف القرآن،وعزت أول ما اعتزت بخطاب الله عز وجل فتعجب منه أصحابه رضى الله عنهم قائلين ؛ ما وجدنا أفصح منك ، قال : « وما يمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين .وقال : أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد » ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام الحلبى القاهرة ج ٤ ص ٢٥٠ — موضوع : محرم ، سدنة الكعبة : خدمتها ، السقاية : سق الحجيج — القود : القصاص ، عوان : أسيرات ، للفراش : لصاحبه ، الحجر : الرجم بالحجر أو أنه ينسب إليها فهو محبوس عليها فقط .

لذلك تجد فى خطبه ﷺ منهج القرآن الكريم وروحه ، وقيمه وتشريعاته ، وشرف معانيه وسمو خلقه ، فى أسلوب عف بليغ وعبارات رشيقة سامية ، ونظم عجيب ينبض له القلوب وتتفتح له منافذ الوجدان والعاطفة والشعور والإدراك فى انبهار وخضوع ، واقتناع وتسليم فقد أوتى جوامع الكلم ؛ فيقول فى مجال المعارضة يخاطب القوم بلغتهم التى تتجاوب مع حسنهم اللغوى الغريب فيرد فى بلاغة وإيجاز قائلا :

« اللهم بارك فى محضها ومخضها ومذقها ، وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر ، وافجر لها الثمد ، وبارك فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد ألا إله إلا الله كان مخلصاً يابنى نهد ، ودائع الشرك ووضائع الملك : لا تلطط فى الزكاة ولا تلحد فى الحياة ولا تثاقل فى الصلاة » .

وهذا أبلغ رد على خطبة طهفة بن أبى زهير النهدى نائباً عن وفده حين قال مغرباً :

« يا رسول الله : أتيناك من غورى تهامه بأكوار الميس ترمى بنا العيس ، نستحلب الصبير ، ونستجلب الخبير ونستعضد البرير ، ونستخيل الرهام ، ونستحيل الجهام ، من أرض غائلة النطاء ، غليظة الوطاء ، تشف المدهن » .

ومع مجاراة الرسول لخطيب تهامه فى غرابة اللفظ ووحشية الأسلوب لكن نسق الأسلوب أوضح المعنى ، وتلاؤم الألفاظ الغريبة فى مواقعها مع معانيها جعلتها غير مستغلقة على فهم المتلقى أياً كانت لهجته ؛ لأنه ﷺ اختص من بين الأنبياء بخصائص محمدية من بينها جوامع الكلم ، وبلاغة القول

فقد اجتمعت فى لسانه لهجات . وكان القرآن الكريم أيضاً على سبع قراءات لأنه ﷺ بعث للناس كافة أجمعين إلى يوم الدين .

ورسول الله ﷺ بخطبه هـذه حدد معالم الخطب ووضع لها منهجها الفنى الذى يعتمد على أسس سارت عليها الخطب فى الأدب الإسلامى ، وذلك فى مضمونها وأغراضها ، ومعانيها ، وأفكارها وتضمينها واقتباسها ، وألفاظها وأساليبها وبنائها الفنى : من مقدمة لم تكن موجودة فى العصور السابقة من الثناء على الله تعالى والحمد له سبحانه وحده والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ . ثم موضوع الخطبة وغايتها من البناء الأخلاقى والتشريع الإلهى والتوجيه والإصلاح وفى النهاية تكون خاتمة الخطبة التى ترتبط بالمقدمة والموضوع على السواء لتكون إيذاناً بنهاية الموضوع وتقريراً لما بها من موعظة وعبرة وأحكام وتوجيه .

وكذلك اتخذت الخطبة والوصية فى شكلها ومحتواها مساراً يستمد روافده الحية من مصادر التشريع الإسلامى من القرآن الكريم والسنة الشريفة على أساس من قوة التأثير والقدرة على الإقناع ومخاطبة العقل المستقيم والفكر الثاقب كما تتجاوب مع العاطفة الصادقة ، والوجدان الحى النابض بحرارة المعانى الإنسانية النبيلة ، ولا زالت الخطب الجيدة فنياً وموضوعياً هى التى تأخذ حظاً أكثر وقدراً موفوراً منها ، وعلى قدر ما تبلغ من ذلك تنال منزلتها وموقعها من أدبنا الإسلامى الخالد .

الصحابة رضى الله تعالى عنهم :

استمد الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم مأثوراتهم من النهج السابق

للمصطفى ﷺ ثم نهلوا أيضاً من ينبوع السيرة النبوية الطاهرة والقدوة الحسنة والمثل الأعلى ﷺ فى أقواله وأفعاله ، وسلوكه وأعماله وإقراره وأعرافه ، حتى أصبحت أقوال الخلفاء الراشدين من المأثورات الخالدة التى استمد منها الأدب الإسلامى بعـــد ذلك روافده التراثية العريقة وقيمه الفنية والخلقية السامية وها هى بعض المأثورات للخلفاء الراشدين لنقف معها بالتأمل والتاقى ولنتخذها منهجا وسلوكا ومثلا رفيعا يحتذى فى الأدب الإسلامى : .

١ — أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

يوم أن التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى اجتمع نفر غير قليل من الأنصار رضى الله عنهم فى سقيفة بنى « ساعدة » ليبايعوا سيدهم « سعد ابن عبادة » فتوجه أبو بكر الصديق ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح رضى الله عنهم إلى السقيفة فى جو الكارثة الكبرى التى تركت الساحة بعد الوفاة تمــــوج بالهياج المضطرب والبلبلة والعواصف الشخصية وفى جو من الإيثار والتضحية تقدم عمر ليخطب فى الأنصار ويقدم أبا بكر للخلافة ويمنعه الخليفة الأول ليقدم عمراً « الفاروق » أو أبا عبيدة « أمين الأمة » ويقول : لقد رضيت هذين الرجلين عمر وأبى عبيدة » فيصيح عمر : « والله لأن أقدم فيضرب عنقى فى غير إثم أحب إلى من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر » ثم يتقدم بيديه ليحسم الخلاف ويخمد الفتنة فيبايع أبا بكر ويبايعه أمين الأمة ويتزاحم الانصار إيمانا واقتناعا وإيثارا وتضحية ليجتاز المسلمون أول عقبة فى تاريخ الإسلام وأعنف موقف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقف أبو بكر فى هذا اليوم :يوم السقيفة خطيبا بحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفيء وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله » .

ويقول أبو بكر الصديق فى وصيته لسيف الله المسلول خالد بن الوليد رضى الله عنهما فى فتوحاته الإسلامية .

« سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً عن الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، فإن مالك ما وعى عنك ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه » .

ويقول الخليفة الأول يوصى الخليفة من بعده رضى الله عنهم : « إنى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة !! وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون

ثقيلا . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم فى الدنيا ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا . إن ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن الأعمال ، وبالتجاوز عن سيئاتهم . فإذا ذكرتهم قلت : إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولم يذكر حسناتهم ؛ فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء !! وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ؛ ليكون العبد راغبا راهبا ، ولا يتمنى على الله إلا الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة !!

فإذا حفظت وصيتى ؛ فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك !! وإن ضيعت وصيتى فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت . ولست بمعجز الله » .

٢ — عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

هو الخليفة الثانى لرسول الله ﷺ يحدثنا عنه الصحابى الجليل عمرو بن العاص رضى الله عنه من أعظم رجال الحرب والسياسة والحكم فى الإسلام فيقول :

« ما رأيت أحدا بعد نبى الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه أخوف الله من عمر ، لا يبالى على من وقع الحق ، على ولد أو والد .. والله إنى لفى منزلى فى مصر ، إذ أتانى آت ، فقال : هذا عبد الرحمن بن عمرو أبو سروعة ، يستأذنان عليك ، فقلت : يدخلان ؛ فدخلا وهما منكسران فقالا : أقم علينا حد الله ، فإنا قد أصبنا البارحة شرابا فسكرنا .

فزبرتهما وطردتهما فقال عبد الرحمن : إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه .

فعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني ، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد ، ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية فى الدار فحلق رأسه ، وكانوا يحلقون مع الحدود . والله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر إلى العاصي بن العاصي عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك علي وخلاف عهدي ؛ فما أراني إلا عازلك ، تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفني ؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ، ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندي فى حق يجب لله عليه ، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به فى عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع .

فبعثت به كما قال أبوه ، وكتبت إلى عمر كتابا أعتذر فيه أني ضربته فى صحن داري ، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود فى صحن داري على الذمي والمسلم .

وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر ، فقدم بعبد الرحمن على أبيه فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من سوء مركبه فقال : ياعبد الرحمن فعلت وفعلت ؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد ، فلم يلتفت إليه فجعل عبد الرحمن يصيح : إني مريض

وأنت قاتلى ، فضربه ثانية ، وحبسه ، فمرض ثم مات رحمه الله »(١) .

(١) قال ابن الجوزى فى سيرة عمر بن الخطاب : عاد صحيح البدن بعد مرضة ثم مات عن صحة بعد شهر ، فظن الناس أنه مات بسبب الحد بل لقد تقول القصاص عليه بأن الحد كان حد الزنا وأجمع الثقاة على أنه تأول فى النبيذ فلا يحسبه يسكر كالخمر فشربه فأسكره ، ومع هذه الشبهة التى تدفع الحد أتى بنفسه ليقام عليه الحد رحمة الله تعالى . أخبار عمر : على الطنطاوى ص ٣٢٤ .

خطبة فى سياسية حكم الرعية

لما تولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر المسلمين اشتد الناس فزعا وخوفا من بطشه وشدته وتناقلوا فيما بينهم أنه بلغ من لين أبى بكر رضى الله عنه فى خلافته أن الصبيان كانوا يسعون إليه ويسمح على رؤوسهم بينما تفرق الرجال فى مجالسهم هيبة من عمر وتريثوا فى أمورهم وأحكامهم حتى ينظروا رأيه،فبلغه ذلك فصاح فى الناس : الصلاة جامعة ؛ فحضروا وجلس على المنبر حيث كان أبو بكر الصديق يضع قدميه فلما اجتمعوا قام قائما فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبي ﷺ ثم قال :

بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق ، فقد كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة وكان كما قال الله : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل مع مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد ؛ ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه أخلط شدتى بلينه فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهوعنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد ، ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس ؛ فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ؛ ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين فأما

أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق ، وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى لأهل العفاف وأهل الكفاف .

ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها ، لكم على أن لا أجتبى شيئاً من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم .

فاتقوا الله عباد الله ! وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم(١) .

٣ — عثمان بن عفان رضى الله عنه :

أمير المؤمنين تولى الخلافة بالشورى بين كبار الصحابة، وذو النورين وأول المهاجرين وأقرب الصحابة شبهاً بأبى الأنبياء خليل الله إبراهيم عليه السلام وبرسول الله ﷺ وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن ، وجهز جيش العسرة وحفر بئر رومة . أخرج الترمذى عن

---

(١) الخراج : أبو يوسف: ص ١٤٠ .

ابن عمر قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة . قال : يقتل فيها هذا مظلوما وأشار إلى عثمان .

وعن ابن كعب قال : سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة يقربها فمر رجل مقنع فى ثوب فقال : هذا يومئذ على الهدى ، فقمت إليه فإذا هو عثمان فأقبلت إليه بوجهى فقلت : هذا ؟ قال نعم .

وأخرج الترمذى عن عثمان أنه قال يوم الدار : إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهد فأنا صابر عليه .

وأخرج الطبرانى عن عصمة بن مالك قال : لما ماتت بنت رسول الله ﷺ تحت عثمان قال رسول الله ﷺ : « زوجوا عثمان ، لو كان لى ثالثة لزوجته ، وما زوجته إلا بالوحى من الله .

وعن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مر بى عثمان وعندى ملك من الملائكة فقال : شهيد يقتله قومه إنا نستحى منه» . وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « إن الملائكة لتستحى من عثمان كما تستحى من الله ورسوله » . وعن الحسن أنه ذكر عنده حياء عثمان فقال : إن كان ليكون جوف البيت — والباب عليه مغلق — فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعة الحياء أن يرفع صلبه » . وعن عبد الرحمن بن حاطب قال : ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدث أتم حديثا ولا أحسن من عثمان بن عفان إلا أنه كان رجلا يهاب الحديث(١) .

لذلك كان الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه قليل الحديث وحين بايعه أهل الشورى خطب فى الناس واعظاً ومحذرا من متاع الدنيا التى امتلأت باللهو والزينة والغرور فقال :

(١) تاريخ الخلفاء : السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٢٣٨/٢٦٠

« إنكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أوتيتم صبحتم أو مسيتم . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، اعتبروا بما مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلا ، فقال عز وجل : «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

٤ — على بن أبى طالب رضى الله عنه :

هو الإمام على أبو تراب افتدى رسول الله بنفسه ليلة الهجرة وأبو الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة والخليفة الرابع لرسول الله ﷺ . قال معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لضرار الصدائى : يا ضرار صف لى عليا ، فقال : أعفنى يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنه ، فقال : أما إذا أذنت فلا بد من صفته : كان والله بعيد المدى ، شديد القوى يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، وكان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن — مع تقريبه إيانا وقربه منا — لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدؤه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته

فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه ، قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول: يا دنيا إليك عنى ! غرى غيرى . ألى تعرضت أم إلى تشوفت ؟ هيهات ! قد باينتك ثلاثا ، لا رجعة لى عليك ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير وخطبك يسير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ووحشة الطريق !

فبكى معاويه حتى أخضلت دموعه لحيته ، وقال : رحم الله أبا الحسن! فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها(١) .

وقال على رضى الله عنه : أشد جنود ربك عشرة : الجبال الرواسى والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشىء ويمضى لحاجته ، والسكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم . فأشد خلق الله عز وجل الهم(٢) .

ويقول أيضاً : إنما المرء فى الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، ونهب للمصائب ، ومع كل جرعة شرق ، وفى كل أكلة غصص ، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، فنحن أعوان الحتوف ، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء ، فمن أين

---

(١) زهر الآداب : الحصرى ٧٨/١ ، الأمالى : أبو على القالى ١٦٥/٢ .
(٢) الأمالى : ١٩٤/٢ .

ترجو البقاء ، وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفا إلا أسرعا الكرة فى هدم ما بنيا ، وتفريق ما جمعا ، فاطلبوا الخير وأهله ، واعلموا أن خيراً من الخير معطيه ، وشراً من الشر فاعله(١) .

وقال على رضى الله عنه : رحم الله عبـــداً سمع فوعى . ودعى إلى الرشاد فدنا ، وأخذ بحجزهـ فنجا ، وراقب ربه وخاف ذنبه ، وقدم خالصا ، وعمل صالحا ، واكتسب مذخورا ، واجتنب محذورا ، ورمى غرضا ، وكابر هواه ، وكذب مناه ، وحذر أجلا ودأب عملا ، وجعل الصبر رغبة حياته ، والتقى عدة وفاته ، يظهر دون ما يكتم ، ويكتفى بأقل مما يعلم ، لزم الطريق الغراء ، والمحجـــة البيضاء ، واغتنم المهل ، وبادر الأجل ، وتزود من العمل(٢) .

وسئل على رضى الله عنه عن مسألة فدخل مبادرا ؛ ثم خرج فى حذاء ورداء ؛ وهو يبتسم ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين : إنك كنت إذا سئلت عن مسألة كنت فيها كالسكة المحماة ! فقال : إنى كنت حاقنا ولا رأى لحاقن ؛ ثم أنشأ يقول :

إذ المشكلات تصدين لى ... كشفت حقائقها بالنظـــر
وإن برقت فى مخيل الصوا ... ب عمياء لا تجتليها الذكر
مقنعـــة بأمور الغيوب ... وضعت عليها صحيح الفكر
لسانا كشقشقة الأرحبى ... أو كالحسام اليمـــانى الذكر
وقلبا اذا استنطقته العيون ... أمر عليها بواهى الدرر

(١) الأمالى : ٢ / ٦٢ .
(٢) زهر الآداب : الحصرى ١٩/١ .

ولست يإمعـــة فى الرجال أسائل عن ذا وذا ما الخبر
ولـكننى ذرب الأصغرين أبين مع ما مضى ما غبر

وصف الجاحظ أدب الإمام على رضى الله عنه فقال : فلو لم نقف من هذا الـكتاب إلا على هذه الـكلمة لوجدناها شافية كافية ، ومجزية مغنية ، بل لوجدناها كافية عن الـكفاية ، غير مقصرة عن الغاية ، وأفضل الـكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه ظاهراً فى لفظه ، وكأن الله ألبسه من ثياب الجلالة ، وغشاه من نور الحـكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستـكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الـكريمة ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله عز وجل من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة(١) .

---

(١) زهر الآداب : الحصرى : ٧٨/١ .

من الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام

حسان بن ثابت رضى الله عنه :

قال حسان بن ثابت فى الفخر برسول الله صلى الله عليه وسلم و بأصحابه رضوان الله عليهم(١) :

— ١ —

١ — إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ
قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

٢ — يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
تَقْوَى الإِلَهِ وَبِالأَمْرِ الَّذِى شَرَعُوا

٣ — قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ
أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِى أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

٤ — سَجِيَّةٌ تِلْكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ
إِنَّ الخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا البِدَعُ

٥ — لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ
عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا

---

(١) هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجى من بنى النجار، ولد بيثرب ولد عام ٥٦٣ م واشتهر بشعره فى الجاهلية للدفاع عن قبيلته فى معاركها مع الأوس ، واشتهر فى الإسلام فدافع بشعره عن الإسلام وعن الرسول والصحابة وهجا أعداءه هجاء مقذعا وكان شعره عليهم أشد من وقع السهام فى غبش الظلام . كما فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم وتوفى عام ٥٤ هجرية .

٦ — إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ
لِكُلِّ سَبْقٍ لِأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

٧ — وَلَا يَضِنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمُ
وَلَا يُصِيبُهُمُ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ

٨ — لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمُ
فِي فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسَعُ

٩ — أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فِي الوَحْيِ عِفَّتُهُمْ
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُرْدِيهِمُ الطَّمَعُ

١٠ — كَمْ مِنْ صَدِيقٍ نَالُوا كَرَامَتَهُ
وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا(١)

---

(١) الذوائب : جمع ذؤابة وهى الناصية أو منبت الرأس والمراد هنا أعلى الشىء ، الفهر : حجر صلب يدق به الجوز ، والمراد به الجد الأعلى لقريش ، وهو فهر بن غالب بن النضر ، وربما يقصد الشاعر بالذوائب من فهر الرسول ومن آمن به من بنى هاشم وبأخوتهم المهاجرين من قريش تتبع : أولى بالاتباع لسمو هدفها ، السريرة : ما يخفيه الإنسان من مقاصد وأغراض ، التقوى من وقى وهى طلب الوقاية والحفظ وغلب عليها معنى الاستقامة والإصلاح ، الأشياع : الأنصار ، السجية : الغريزة وهى الشيمة التى تلازم صاحبها . الخلائق جمع خليقة وهى التى خلق عليها الإنسان ، البدع : مفردها بدعة وهى الأمر المستحدث لغرض أو هوى لا يرقع الناس : لا يصلحون بالرقاع . أوهت : شقت وخرقت.يضنون : يبخلون ، المولى : الصديق والحليف ، الطبع : الدنس والخسة ، الجهل : الحمق والطيش ، الأحلام : العقل والتروى ، أعفة:جمع عفيف وهو الذى =

- ٢ -

١١ - أعطوا نبيَّ الهدى والبرِّ طاعتهم
فما ونى نصرهم عنه ولا نزعوا

١٢ - إن قال سيروا أجدُّوا السيرَ جهدهمُ
أو قال عوجوا علينا ساعةً ربعوا

١٣ - ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
أهل الصليب ومن كانت له البيع

١٤ - خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا

١٥ - فإنَّ في حربهم فاترك عداوتهم
شراً يخاض عليه الصاب والسلع

١٦ - نسمو إذا الحربُ نالتنا مخالبها
إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

١٧ - لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم
وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

= يكف نفسه عن الدنايا وعما لا يحل ، لا يطبعون : لا يقعون فى الدنس ولا يرديهم الطمع : لا يهلكهم ، عدو جاهد : وهو الذى بلغ الغاية فى عداوته وضرره بالغير ، جدعوا : من الجدع وهو قطع الأنف ويكنى به عن الإذلال والإهانة والمراد استأصلوا وقطعوا .

١٨ — كَأَنَّهُمْ فِي الوَغَى والمَوْتُ مُكْتَنِعٌ
أُسْدٌ بِبِيشَةَ فِي أَرْسَاغِهَا فَدَعُ

١٩ — إِذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لَا نَدِبُّ لَهُمْ
كَمَا يَدِبُّ الوَحْشِيَّةَ الذَّرَعُ

٢٠ — أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولِ اللهِ شِيعَتُهُمْ
إِذَا تَفَرَّقَتْ الأَهْوَاءُ والشِّيَعُ

٢١ — أَهْدِي لَهُمْ مَدْحِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ
فِيمَا يُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

٢٢ — فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمُ
إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ القَوْلِ أَوْ شَمَعُوا(١)

---

(١) ونى : تأخر ، نزعوا : انصرفوا عن أتباعه ونصرته ، عوجوا : من عاج إذا نزل وأقام ، ربعوا : من الربع وهو الإقامة فى وقت الربيع والمراد وقفوا وأقاموا وهو كناية عن كمال الخضوع والاستسلام استقاد : خضع وأسلم والمراد رغب فى الإسلام وخضع له ، أهل الصليب : النصارى ، أصحاب البيع : اليهود ، عفواً : سماحة وفضلا ، الصاب : شجر شديد المرارة ، وعصيره شديد الإحراق ، السلع : شجر لا ورق له بقضبان تتساق الغصون وتلتف حولها ، وثمره أسود مر صعب الاجتياز ولكنه يحلو إذا نضج ليصير طعاماً للقرود ، يخاض : يخلط ويضاف وهى كناية عن مرارة الشر وشدته ، الزعانف : ومن معانيها أسفل الثوب ، وجناح السمكة ، وأسافل الناس ، وهو المراد هنا ، الخور : المنخفض من الأرض . والمراد الضعف والجبن ؛ جزع : الخائف =

موضوع القصيدة والمناسبة فيها :

قدم على رسول الله ﷺ فى المدينة كثير من وفود البوادى التى جاءت تعلن إسلامها وتؤازر الرسول الكريم فى دعوته ومن هذه الوفود وفد تميم أتى مبايعاً النبى الصادق الأمين ، وفيهم وجوه القوم وسادتهم وكانوا جفاة غلاظاً ، فنادوا رسول الله من وراء الحجرات يحملونه على المفاخرة فأذن لهم وخطب منهم عطارد بن حاجب بن زرارة فبالغ فى الفخر بقومه ووصفهم بالعزة فى الملك والجاه والغنى والكثرة ، والقوة والمنعة ، والزعامة فى العرب ، فأذن الرسول الكريم لثابت بن قيس فقام خطيباً يفاخر بالرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار ونقض دعاواهم ورد مزاعمهم وأخذ من كبريائهم وطامن من غرورهم .

= المذعور ، الوغى : الصخب والجلبة ، ويكنى بها عن شدة القتال فى الحرب ، مكتنع : دان قريب ، بيشة : مكان فى واد بطريق اليمامة اشتهر بأسوده القوية الفاتكة ، رساغها : جمع رسغ وهو المفصل الذى بين الساعد والكف ، وما بين الساق وكف القدمين ، الفدع : اعوجاج فى الرسغ ، وهذا يدل فى الأسود على الصلابة والقوة ، نصبنا لقوم : واجهناهم بالعداء والحرب ، لا ندب : لا نتستر ولا نخاتل فى الحرب . ولكنهم يتدافعون إليهم ظاهرين لثقتهم فى شجاعتهم وقوتهم ، الوحشية : الوحشى من الصيد بقراً كان أو غيره ، الذرع : فى الأصل الناقة التى يحتمى بها الرامى للصيد حتى لا يفزع من رؤيته ويفر منه والمراد هنا الرامى المختفى ، يؤازره : يسانده ويقفون بجانبه ، الصنع : وهو الحاذق فى الصنعة ، شمعوا : لعبوا ومزحوا .

ثم أذن الرسول الكريم لشاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد شعراً يفخر فيه بقومه ، وجمع لهم فيه من المجد والمكارم والسؤدد ، حتى سكت فأشار الرسول الكريم إلى شاعر المسلمين حسان ، فأنشد هذه القصيدة التى ردتهم إلى الصواب وأزالت ما ران على قلوبهم من غشاوة ؛ فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم ، ويغلب على الظن أن الشاعر ارتجل هذه القصيدة من غير سابق إعداد لها أو تحبير فى صياغتها ؛ لأنها معارضة شعرية جاءت على وزن قصيدة شاعر تميم الزبرقان ورويها ؛ لذلك كانت قريبة التداول دانية من الأفهام .

منهج القصيدة :

حوت القصيدة على غرض واحد من الأغراض الشعرية المشهورة وهو الفخر ، فلم تتعدد فيها الأغراض كما هو مألوف فى منهج القصيدة القديم فتناول حسان فيها موضوعا واحد من غير بكاء على الأطلال ولا نسيب وتشبيب ، بل كانت كل المعانى الجزئية تدور حول التفاخر بالرسول وأصحابه ، وإن تكررت بعض المعانى مما يؤكد أنها قيلت فى ساعتها .

ومعنى ذلك فقد عدها النقاد من خير شعره ، لتحقق وحدة الموضوع فيها وسلامتها من العيوب ، وسمو الغرض فيها .

المعانى والألفاظ :

وقد استمد الشاعر معانيه ، التى تتفق مع الغرض العام من القصيدة استمدها مما جاء به الرسول وما عليه الصحابة ، فهم أشرف الناس لسمو رسالتهم الجديدة بالاتباع ، وهى الدعوة إلى الدين الذى دافع عنه شجعان

بفطرتهم يضرون أعداءهم ، وكرام بطبيعتهم ينفعون أصدقاءهم ويتصفون بالعفة ورزانة الأحلام ، مما يمنعهم من الطيش والخسة والجشع، وهم يذعنون لأمر الرسول الكريم ، ويتفانون فى طاعته ويؤازرونه وينصرونه ، حتى أذلوا الأعداء واستنام لهم اليهود والنصارى ، بشجاعتهم فى القتال ، وقوة بأسهم فى الجهاد ، لا يفرحون بالنصر ، ولا يجزعون إذا أصيبوا ، وهم لسمعتهم كالأسود ينصرون بالرعب ، ثم يختم القصيدة بمدح الرسول الكريم وأتباعه وفضلهم على الخلق أجمعين .

وهكذا ترى المعانى انبعث من روح الإسلام ومن الشريعة ومبادئها وهى قريبة وإن كانت بعيدة ، وليست عميقة وإن كانت بكرا ، ولا تخلو من التكرار فى بعض الصور مع الوضوح والتداول .

أما ألفاظ القصيدة فهى سهلة، تمتاز بالعذوبة وحلاوة النغم، وقوة اللحن واتساقه فهى خالية من اللفظ الغريب ، والمتنافر فى حروفه ، وأسلوبها فضفاض يتلاءم مع الغرض من الفخر، وجزل قوى رصين التراكيب ، احتوت على كثير من الألفاظ والمصطلحات التى تتضمن الخلق الإسلامى والقيم التشريعية

التصوير الأدبى فى القصيدة :

كانت عاطفة الشاعر قوية صادقة أعانت كثيراً على تحريك الخيال الذى رسم كثيراً من الصور الأدبية الرائعة ما بين تشبيه واستعارة وكناية فى القصيدة الكثير منها وما أجمل الاستعارة فى قوله :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

والكناية عن الشجاعة والقوة فى قوله :

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

والاقتباس من القرآن الكريم فى قوله :

أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم لا يطمعون ولا يرديهم الطمع

فهو من قوله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون إلحافا » .

والكناية التى تصور كمال الخضوع تصويراً دقيقاً فى قوله :

وإن قال سيروا أجدوا السير جهدهم
أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا

ثم الاستعارات فى قوله :

تسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

والتشبيه فى البيت الثامن عشر والبيت التاسع عشر .

وكلها صور أدبية تتناسب مع مقام الفخر ، وتتلاءم معانيه الكثيرة مع الصور التى جاءت فى تصوير قوى بارع .

ومطلع القصيدة قوى رائع يشير إلى الغرض من القصيدة وهو الفخر ثم تدافعت المعانى الجزئية نحو الغرض حتى آخر القصيدة .

ومن الأبيات التى بلغت الغاية فى الجودة قوله :

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

حيث صور عدوهم الذليل الذى لا يعز مطاقا فى صورة تمثيل خلاب استمد مواده من التجارب التى يعيشها فى الشياب المتهتكة التى يحتاج الشخص فى ترقيعها إلى رقعة تسد فرجتها وتستر عورة صاحبها .

وقوله :

إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

فقد صور الصحابة حيث بلغوا الغاية فى المحامد والمكارم ، والناس دونهم فى ذلك مهما بلغوا ، وهو فى هذا يشير إلى فضل الصحابة ، كما جاء فى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكذلك فى البيت الثامن والبيت الرابع عشر والبيت السادس عشر والبيت الثامن عشر والبيت التاسع عشر .

وفى قوله :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

اكتفى فى تصويره لمجرد وقوع الضرر منهم لا ما يقتضيه الفخر من إبادة العدو وهلاكه فالمقام مقام الفخر فى ساحة القتال والجهاد .

وفى قوله :

كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

عكس المعنى المراد إذ صورهم وهم ينالون من كرامة أصدقائهم وكان الأولى أن يجعلهم مصدر الكرم والتكريم ، اللهم إن كان مراده أنهم فى سبيل الدين لايهابون أصدقائهم فى الجاهلية والذين لم يدخلوا فى الإسلام وعلى هذا فالمعنى صحيح وأنهم لا يخافون فى الحق لومة لائم .

وكرر المعنى فى البيتين السابع والتاسع فالشطر الثانى منهما يدور حول معنى واحد .

ولم يكن دقيقاً فى قوله :

سجية تلك فيهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فالسجية شيمة تلازم الإنسان ، لا يمكن أن تكون فيها خليقة محدثة وطبيعة مبتدعة فأدى إلى التناقض فى المعنى الذى صوره فى البيت .

واستطرد فى قوله :

يرضى بها كل من كانت سريرته   تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

فقوله : « بالأمر الذى شرعوا استطراد فى معنى البيت حيث يغنى عنه قوله : تقوى الإله » ، ولكنه إطناب وتفصيل للمعنى لتثبيت المعانى الإسلامية الجديدة وألفاظها المبتكرة .

وكذلك فى البيت الأخير من القصيدة مما يدل على الاستطراد والتفصيل عند الشاعر ، الأمر الذى يدفعه إلى التكرار حيناً فى بعض المعانى .

كعب بن زهير بين يدى الرسول ﷺ(١)

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَــوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْــدَ مَكْبُولُ

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، وزهير أبوه من أشهر شعراء المعلقات مع امرىء القيس والنابغة ، وصاحب مذهب أدبى فى العصر الجاهلى ، وهو مذهب التهذيب والصقل والروية ، والتأمل والمراجعة والمعاودة فى الشعر ، حتى يخرج فى أحسن صورة وأكمل وجه ، وأسرة الشاعر كعب كانت لها قدم راسخة فى الشعر الجاهلى فأخواله وأعمامه شعراء فمن أخواله بشامة بن الغدير ، ومن عماته سلمى والخنساء وهما شاعرتان ، ومن أخوته : بجير بن زهير رضى الله عنه وحفيده العوام ابن عقبة بن كعب وغيرهم ، وكان زهير من السابقين قبل الإسلام فى الحديث عن البعث والحساب ، وعن الإيمان والأخلاق الكريمة يقول شعره فى الصلح والخير ، فيمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف لأنهما أصلحا بين عبس وذبيان بعد حرب دامت أربعين عاماً ، وكان عمر رضى الله عنه يحب شعره ويثنى عليه ، فهو شاعر الشعراء ، لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه ، وحينما أسلم أخوه بجير استاء كعب من ذلك ، فهجا الإسلام وعرض بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فأهدر دمه عند العرب ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فأخذ يتستر حتى وصل إلى المدينة سراً ، واستجار بأبى بكر =

وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلُوا
إلاّ أغَنّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ(١)
فَيا لَهَا خُلّةً لَوْ أنّهَا صَدَقَتْ
بِوَعْدِها أوْ لَوْ أنَّ النُّصْحَ مَقْبُول

= الصديق رضى الله عنه وأخذه ملثما فى صلاة الفجر والظلام يلفه ، حتى مثل بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه ، وأبدى أسفه واعتذاره وأنشأ هذه القصيدة يعتذر فيها للنبى صلى الله عليه وسلم ويرجو عفوه ؛ فعفا عنه وسر منه حتى ظهر السرور فى وجهه ، وألقى عليه بردته وظلت فى أولاده حتى أخذها معاوية رضى الله عنه ، وكان يرتديها هو وأولاده من بعده فى المناسبات .

واشتملت القصيدة على أغراض منها الغزل ووصف الناقة والاعتذار والمدح ، كالشأن فى منهج القصيدة فى العصر الجاهلى من تعدد الأغراض . وتناول المهاجرين بالمدح مع الرسول صلى الله عليه وسلم دون الأنصار فطلب منه أن يقول شعراً فى مدح الأنصار فمدحهم أيضاً فى قصيدة أخرى ستأتى ، ويعد كعب بن زهير من الشعراء المخضرمين الذين قالوا شعراً فى الجاهلية وفى الإسلام .

(١) بانت : بعدت، سعاد : هى امرأته ، متبول سقيم ، متيم : ذليل ، لم يفد : لم يفك أسره ، مكبول : مقيد ، أغن : الظبى الصغير لأن فى صوته غنة ، غضيض الطرف : فاتر العين ، مكحول : سواد حول العين .

لَكِنَّها خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا
فَجْعٌ وَوَلَعٌ وَإِخْلافٌ وَتَبْدِيلُ
فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونَ بِهَا
كَمَا تُلَوَّنُ فِى أَثْوابِهَا الغُولُ
وَلا تَمَسَّكُ بِالعَهْدِ الذِي زَعَمَتْ
إِلَّا كَمَا تُمَسِكُ المَاءَ الغَرابِيلُ
فَلا يَغُرَّنَّكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ
إِنَّ الأَمانِيَ والأحْلَامَ تَضْلِيل
كَانَتْ مَواعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً
وَمَا مواعيدُها إِلَّا الأَبَاطِيل
أرجُو وآمل أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا
وَمَا إِخَال لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيل
أَمْسَتْ سُعادُ بِأَرْضٍ لاَ يُبلِّغُهَا
إِلَّا العِتَاقُ النَّجِيباتُ المَراسِيلَ(١)

---

(١) الخلة : الصديقة ، سيط : خلط، الفجع : المكروه ، الولع : الكذب، الإخلاف : نقض الوعد ، الغول : ما يتلون من الجن بألوان شتى ؛ فأمنت : ما أعطت أمنية ولا برت بوعد ، الأحلام : ما يراه النائم من رؤى ، عرقوب : رجل اشتهر بخلف الوعد بين العرب فأصبح مثلا يضرب به ، التنويل : العطاء والمراد الوصل ، العتاق : الكرام من الإبل النجيبات : القويات الخفيفات من الإبل ، المراسيل : السريعات منها .

وَلَنْ يُبَلِّغَهَا إِلَّا عُذَافِرَةٌ ... لَهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ
مِنْ كُلِّ نَضَّاحَةِ الذِّفْرَى إِذَا عَرِقَتْ ... عُرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ
تَرْمِي الْغُيُوبَ بِعَيْنَيْ مُفْرَدٍ لَهِقٍ ... إِذَا تَوَقَّدَتِ الْحُزَّانُ وَالْمِيلُ
ضَخْمٌ مُقَلَّدُهَا فَعْمٌ مُقَيَّدُهَا ... فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلُ
تَفْرِي اللِّبَانَ بِكَفَّيْهَا وَمِدْرَعُهَا ... مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَابِيلُ
تَسْعَى الْغُوَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمُ ... إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنْتُ آمُلُهُ ... لَا أُلْهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمُ ... فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ(١)
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ ... يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ ... ـقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ
لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ ... أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ
لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ ... مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللهِ تَنْوِيلُ

---

(١) العذافرة : الصلبة . الأين : التعب ، الإرقال والتبغيل : ضربان من المشى السريع ، النضاحة : رشاحة العرق ، الذفرى : النقرة خلف أذن الناقة ، عرضتها : همتها ، طامس الأعلام : المتغير من المعالم ، الغيوم : ما غاب معالمه ، المفرد : الثور الوحشى الوحيد ، اللهق : الأبيض . الحزان : المكان الغليظ . الميل : العقدة من الرمل ،المقلد :موضع القلادة فعم : ضخم ، بنات الفحل : الإناث ، تفرى : تقطع . اللبان : الصدر ، المدرع : القميص ، رعابيل : متفرق ، الغواة : المفسدون ، آمله : آمل خيره ، خلو سبيلى : دعوه ، لا أبالكم : دعاء عليهم فلم يغنوا عنه شيئاً .

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أُنَازِعُهُ ... فِي كَفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قِيلُهُ القِيلُ

فَلَهُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذْ أُكَلِّمُهُ ... وَقِيلَ إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولُ

مِنْ ضَيْغَمٍ بِضَرَاءِ الأَرْضِ مُخْدَرُهُ ... فِي بَطْنِ «عَثَّرَ» غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ

يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا ... لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ

إِذْ يُسَاوِرُ قِرْنًا لَا يَحِلُّ لَهُ ... أَنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَفْلُولُ(١)

مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعُ الجَوِّ نَافِرَةً ... وَلَا تَمَشَّى بِوَادِيهِ الأَرَاجِيلُ

وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ ... مُضَرَّجَ البَزِّ وَالدِّرْسَانِ مَأْكُولُ

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشُفٌ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ

شُمُّ العَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الهَيْجَا سَرَابِيلُ

بِيضٌ سَوَابِغُ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ ... كَأَنَّهَا حَلَقُ القَفْعَاءِ مَجْدُولُ

لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمُ ... قَوْماً وَلَيْسُوا مَجَازِيعاً إِذَا نِيلُوا

---

(١) آلة حدباء : النعش الذى يوضع فيه الميت ، تبئت : أخبرت ، أوعدنى : هددنى بالقتل ، مأمول : على يديه تحقيق الأمل ، هداك الله : زادك لتصفح عنى ، النافلة : الزيادة ، يرعد : تأخذه الرعدة ، التنويل : الأمان ، الوجد : شدة الحزن ، البوادر ما بين العنق و الكتف من اللحم ، لا أنازعه : راضياً بحكمه ، النقمات : هو النبى ﷺ وصحبه الذين انتقم من الكفار بشدة ، ضيغم : أسد ، ضراء الأرض : شجر الأرض ، المخدر : غابة الأسد ، عثر : مكان يكثر فيه السباع ، الغيل : شجر غزير ملتف ، يغدو : يخرج أول النهار ، الضرغام : الأسد ، معفور : عليه تراب ، خراديل : قطع صغار ، يساور : يواثب ، القرن : المقاوم فى شجاعة ، المفلول : المكسور .

يَمْشُونَ مَشْىَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ... ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِى نُحُورِهِمُ ... وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ المَوْتِ تَهْلِيلُ(١)

ثم مدح كعب بن زهير الأنصار بقصيدة أخرى بعد ذلك وذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ وموضعهم من اليمن فقال رضى الله عنه :

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ ... فِى مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِى الأَنْصَارِ
وَرِثُوا المَكَارِمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ... إِنَّ الخِيَارَ هُمُ بَنُو الأَخْيَارِ
المُكْرِهِينَ السَّمْهَرِىَّ بِأَذْرُعٍ ... كَسَوَالِفِ الهِنْدِىِّ غَيْرَ قِصَارِ
وَالنَّاظِرِينَ بِأَعْيُنٍ مُحْمَرَّةٍ ... كَالجَمْرِ غَيْرَ كَلِيلَةِ الأَبْصَارِ
وَالبَائِعِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ ... لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانُقٍ وَكِرَارِ
وَالقَائِدِينَ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ ... بِالمَشْرَفِىِّ وَبِالقَنَا الخَطَّارِ
يَتَطَهَّرُونَ يَرَوْنَهُ نُسُكًا لَهُمْ ... بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ(٢)

---

(١) الجو : مكان أو الفضاء ، نافرة : بعيدة ، الأراجيل : الجماعات من الرجال . والمراد القوة ، أخو ثقة : الشجاع الواثق من شجاعته ، مضرج: مخضب بالدماء ، البز : السلاح ، الدرسان : الثياب الممزقة ، يستضاء به : يهتدى به ، المهند : السيف المصنوع فى الهند ، المسلول : المنزوع من غمده ، العصبة : الجماعة ، زولوا : هاجروا من مكة إلى المدينة ، النكس : الضعيف ، الكشف : من لا درع لهم ولا ترس ، ميل : من لا سيف لهم ومثله المعازيل. شم العرانين : ارتفاع فى قصبة الأنف مما يدل على الأنفة والعلو ، اللبوس : الدرع ، نسج داود : منسوجة ، سربال : الدرع ، بيض : صافية ، سوابغ : طوال ، شكت : مدخول بعضها فى بعض ، القفعاء : شجر له شوك ؛ الزهر : البيض ، عرد : هرب ؛ تنابيل : قصار؛ لا يقع الطعن إلخ ؛ كناية عن عدم انهزامهم حتى الموت ،

(٢) المقنب : الجماعة من الخيل ؛ السمهرى: الرمح ؛ سوالف الهندى :=

دَرَبُوا كَمَا دَرَبَتْ بِبَطْنِ خفيـة غلب الرِّقاب مِنَ الأُسُودِ ضَوَارِى
وَإِذَا حَلَلْتَ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيهِم أَصْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاقِلِ الأعفار
ضَرَبُوا عليًّا يَوْمَ بَدْرٍ ضَرْبَةً دَانَتْ لِوَقْعَتِهَا جَمِيعُ نِزَار
لَوْ يَعْلَمُ الأقوامُ عِلْمِى كُلَّهُ فِيهِمْ لَصَدَّقَنِى الذِينَ أُمَارِى
قومٌ إِذَا خَوَتِ النُّجُومُ فإنهم للطَّارِقِينَ النازِلِينَ مَقَارِى
فِى الغُرِّ مِنَ غَسَّانَ مِنْ جُرْثُومَةٍ أَعْيَتْ مَحَافِرُهَا عَلَى الْمِنْقَارِ(١)

= حواشى السيوف أو الرماح ، المشرفى : السيف ، القنا : الرماح ، الخطار : اللين المهتز ، الأنصار : أسماهم الرسول بذلك لأنهم نصروا الرسول ﷺ ، وآزاروه وآووه ، ونصروا الإسلام بجندهم الباسل وآخى بينهم وبين المهاجرين ، وكانوا مثلا أعلى فى الشجاعة والقتال . وفى التضحية والإيثار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

(١) دربوا : تعودوا على القتال ، خفية : بيت الأسد ، غلب الرقاب : غلاظ الأعناق ، ضوارى : مفترسات ، المعاقل : الحصون والموضع الممتنع ، الأعفار : أولاد الوعل ، عليا . وهو على بن مسعود الغسانى ، أمارى . أجادل ، خوت النجوم . تساقطت ، الطارقون . القادمون بالليل والنازلون ، المقراة . وهى القصعة التى يوضع فيها الطعام .

قال ابن هشام . يقال أن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده . « بانت سعاد فقلبى اليوم متبول » لولا ذكرت الأنصار بخير ، فإنهم لذلك أهل فقال كعب هذه الأبيات يمدح بها الأنصار — السيرة النبوية لابن هشام ٤/٥٠٣ – ٥١٥ .

القيم الخلقية والفنية في بردة كعب بن زهير

بين الخطاب والغرض في القصيدة : الخطاب في القصيدة من مطلعها إلى نهايتها يوحي للمتلقي « أي المخاطب » في الظاهر ، أن القصيدة تضم أربعة أغراض أدبية هي : النسيب ، ووصف الرحلة والراحلة ، والاعتذار ، والمدح استمع إليها الرسول ﷺ ومن معه من الصحابة ﷺ ، وأعجبته وكافأ كعباً عليها فأعطاه بردته الشريفة ، سواء أكانت لإسلامه ؛ أو لتأليفه إلى الإسلام ؛ ليزداد إيمانا بعد إسلامه ، أم كان لجودة شعره وروعة قصيدته .

وليست المكافأة كما يدعي بعضهم أنها كانت لمدح النبي ﷺ لأسباب من أهمها : أن الرسول ﷺ يكره ذلك لنفسه ؛ فقال : « لا تعظموني كما كانت الأعاجم تعظم أنبيائها » ، وإن كانت هي في ذاتها مدح من قبل كعب بن زهير ﷺ وهو يقصده ولا بأس في ذلك ، لأنه ﷺ « سيد ولد آدم ولا فخر » ولأن القصيدة في الظاهر لم تكن كلها في المديح ، بل معظمها في الأغراض الثلاثة الأخرى من الغزل والوصف والاعتذار ، فقد جاء النسيب والغزل في ثلاثة عشر بيتا من المطلع حتى قوله : « وما إخال لدينا منك تنويل » ، وهي تسعة أبيات سبقت يضاف إليها في مكانها من القصيدة هذه الأبيات :

هيفاءُ مُقْبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكي قصرٌ منها ولا طُولُ
تجلو عوارض ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت ... كأنّه مُنْهلٌ بالرَّاح معلول
شُجَّتْ بذي شَبَمٍ من ماءِ مَحْنيةٍ ... صافٍ بأبْطحَ أضْحي وهو مشمول
تجلو الرياحُ القذى عنه وأفْرطَهُ ... من صَوْبِ ساريةٍ بيضٌ يَعَاليل

ثم وصف الرحلة والراحلة في اثنين وعشرين بيتاً من أول قوله :

أمست سعاد بأرض لا يُبَلِّغُها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل
ولن يُبلِّغها إلا عُذافرةٌ ... فيها على الأَيْن إرقالٌ وتبغيل
من كل نضاحة الذِّفرى إذا عرِقت ... عُرْضَتُها طامسُ الأعلام مجهول
ترمي الغيوبَ بعيْني مُفْرَدٍ لَهَق ... إذا توقدَت الحُزّان والميل
ضخمٌ مُقَلَّدُها فَعْمٌ مُقَيَّدُها ... في خَلْقها عن بناتَ الفحْل تفضيل
غَلْباءُ وَجْناءُ عُلكومٌ مُذكَّرةٌ ... في دفِّها سَعَةٌ قُدَّامُها ميل

وجِلدُها من أطومٍ مـــا يُؤَيِّسُهُ طَلَحٌ بضَاحيــةِ المَتْنَيْنِ مهــزول
حَرْفٌ أخــوها أبــوها منْ مُهَجَّنــةٍ وعَمُّهــا خَالُهـــا قَوْداءُ شـمْليل
يَمْشــي الــقُرادُ ثــم يُزْلِــقُهُ منهـــا لبـــانٌ وأقْرابٌ زهاليل
عَيْرانَةٌ قُذِفَتْ في اللحم عنْ عُرُضٍ مرْفَقُهـــا عن بنات الزَّوْر مَفْتُول
كأنَّ مــا فــاتَ عَيْنَيْهــا ومَذْبَحَهــا مِنْ خَطمِهـــا ومن اللَّحْيَيْنِ بِرْطيل
تُمِرُّ مــثل عَسيب النَّخْلِ ذا خُصَلٍ في غــارزٍ لــم تُخَوِّنْهُ الأحــاليل
قَنْواءُ في حُرَّتَيْهــا للبَصــير بهــا عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخَدَّيْنِ تَسْهــيل
تَخْدِي على يَسَرات وهــي لاحــقــةٌ ذوابــلٌ وَقْعُهُنَّ الأرْضَ تَحْليــل
سُمْرِ العُجايــات يَتْرُكْنَ الحَصَى زِيَماً لَمْ يَقِهِنَّ رُءُوسَ الأُكْمِ تَنْعيــلُ
كــأنَّ أوْبَ ذراعيْهــا وقــدْ عَرِقَتْ وقَدْ تَلَفَّعَ بــالــقُورِ الــعَسَاقيــل
يومــاً تَظَلُّ حدابُ الأرضِ يَرفَعُهــا مِنَ الــلَّوامع تَخْليــطٌ وتَزْييــل
يومــاً يظـلُّ به الحِرْباءُ مُصْطَخِبــاً كــأنَّ ضــاحيــةُ بالــنَّار مَمْلول
وقــال لـلقومِ حــاديهم وقَدْ جَعَلتْ وُرْقُ الجنادب يَرْكُضْنَ الحَصَى قِيلُوا
شدَّ النَّهــار : ذراعــاً عَيْطلٍ نَصَفٍ قَامَتْ فــجــاوَبَهــا نُكْدٌ مَثاكيل
نوَّاحــةٌ رَخْوَةُ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لهــا لَمَّا نَعَى بكْرَها الــنَّاعــون مَعْقــول
تَفْرِي اللَّبــانَ بِكَفَّيْهــا ومِدْرَعُهــا مُشَقَّقٌ عَنْ تَراقيْهـــا رَعَابيــل (١)

---

(١) غلباء : عزيزة . وجناء : مرتفعة . علكوم : عظيمة السنام . الدف : السير اللين . أمامها ميل : طوله ميل . أطوم : سلحفاة بحرية . يؤيسه : يلينه . الطلح : القرادة . المتنين : الجانبين . مهزول : نحيف . أخوها أبوها : أصيلة . عمها خالها : شريفة عريقة . قوداء : طويلة العنق . شمليل : سريعة . يزلقه : ينحيه . اللبان : الصدر . أقراب : جمع قُرُب ، وهي الخاصرة . زهاليل : أملس . عيرانة : نشيطة . قذفت باللحم : قوية . بنات الزور : عضلتا العضدين . المخطم : الأنف . برطيل : حديد صلب ينقر به الرحا . عسيب : جريد النخل . خصل : ذيلها . الغارز : الضرع . إحليل : لم تلد . قنواء : ارتفاع في أعلى الأنف . الحرتان : الأذنان . البصير : الخبير . عتق : كرم . تسهيل : قلة اللحم . تخذى : تسرع . اليسرات : القوائم الخفيفة . لحق : ضامرة . تحليل : خروج من الحرج . عجايات : أعصاب مركبة من نصوص . زيما : متفرقة . الأكم : الهضاب . التنعيل : النعل . الأوب : صوت القوائم في السير . تلفع : تلحف . القور : الجبل الصغير . عساقيل : السراب . حداب الأرض : غلاظها . تخليط : جمع . تزييل : تفريق . مصطخبا : واقفا من شدة حر الشمس . ضاحيه : أصابته الشمس . مملول : مشوي بالنار . الحادي : السائق . الورق : بياض في سواد . الجنادب : الجراد . قيلوا : استراح وقت الظهيرة . شد النهار : طوله . العيطل : طويلة العنق . نصف : متوسطة . جاوب : ردد . نكد : اشتد . الثكل : فقدان الحبيب . نواحة : كثيرة البكاء . ==

ثم الاعتذار للرسول ﷺ في سبعة أبيات سبقت ولم يبق إلا قوله :

يَسْعى الوُشاةُ بِجَنْبَيْها وَقَوْلُهُمُ إِنَّكَ يابْن أبـي سُلْمـى لمقْتُول

ثم المدح في ثمانية أبيات فقط من قوله : « إن الرسول لسيف يستضاء به » إلى آخر القصيدة .

ولكني أرى أنهـا ليست أغـراضا أربعـة كما هو ظـاهر ، وكما شـاع عند الدارسين ، بل القصـيدة قامت على غرض واحد ، من المطلع حتى نهايـة القصيدة انطلقت من تجربة شـعورية واحدة ، غيـر متعددة الأغـراض ، انطلقت من وجدان الشـاعـر ، في شـعـر وجـداني ، في الحب الإسـلامي ، أي فـي « الحب الإلهي والمحمدي » ؛ فإذا انـتقلنا مع كعب ﷺ إلى معالجة تجربته الوجـدانية ، وتتبعناها في مراحلها المختلفة ، لانتهى بنا الأمر إلى توحـيد الأفكار والموضوعات للقصيدة في الحب الإسلامي لغرض واحـد وهو « الحب الإلهي والمحمدي » وهذه المراحـل هي :

المرحلة الأولى : تنطلـق مـن مناسبـة القـصـيـدة ، بعـد أن أرسل أخـاه « بجـيراً » إلى المدينة المنورة قـبـيل السنة السابعـة من الهـجرة ؛ ليـرى ما أحـدثه الإسلام عن قرب ؛ فـأسلم وأضحى مهاجرا ، ولم يعـد إلى كعب ، بل بعث إليه ليحثه على الدخول في الإسلام قائلا :

وفاق ـ كعبُ ـ بجيرٍ منقذ لك من تعجيل تهلكة والخلد فـي سقرا [(١)]

فغضب منه كعب وثار عليه ، وقال يعاتب أخاه « بجيراً » :

الا أبلـغـــا عـنِّي بُجَيْراً رســـالة فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا ؟

شـربـت مع « المأمـون » كـأسـاً رديَّةً فـأنهلك « المـأمــون » منهـا وعَلَّكا

وخـالفت أسـباب الهـدى وتبـعـتـه على أي شيء ـ ويب غـيـرك ـ دلَّكا

عـلـى خـلـقٍ لـم تُلفِ امّاً ولا أبـاً عليـــه ولم تدرك عليـه أخـــاً لكا

== رخوة الضبعين : لينة العضدين . البكر : أول الأولاد . الناعي : المخبر بالموت . تفري : تشق . اللبان : الصدر . مدرع : ثوب . تراقيها : عظمتان في مقدم الحلق . الرعابيل : الممزق .

(١) ومعنى البيت : وفاق بجير للإسلام يا كعب منقـذ لك من الهلاك في جـهنم ، فلفظ كعب منادى وقع بين المضاف والمضاف إليه شذوذا .

فأنشدها بجيرُ رسولَ الله ﷺ ؛ فقال : صدق ، أنا المأمون ، وإنه لكاذب .. قال : أجل .. لم يلف أباه ولا أمه على الإسلام ، ثم أجابه بجير بقوله :

مَنْ مُبلِّغٌ كعباً فهل لك في التي ... نلوم عليها باطلا وهْيَ أحْزَمُ ؟
إلى الله - لا العزى ولا اللات - وحده ... فتنجو - إذا كان النجاءُ - وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمُفْلتٍ ... من النار إلا طاهرُ القلب مسلمُ
فدين زهيرٍ - وهو لا شيء - باطلٌ ... ودين أبي سُلمى عليّ محرَّمُ

وأهدر رسول الله ﷺ دمه بين العرب ، وحاول أن تستجيره فلم يجره أحد ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فأرهصت شاعريته بطلب الصفح من رسول الله ﷺ :

تَعَلَّمْ رسولَ الله أنك مدركي ... وأن وعيداً منك كالأخذ باليد

وحينئذ كتب بجير إليه ، بأن يقبل على رسول الله ﷺ معتذرا ، فإنه لا يقتل تائبا .

المرحلة الثانية : من مطلع القصيدة ، يقوم على الغزل والنسيب في الظاهر ؛ لكنه ليس كذلك ، فقد زعم بعضهم : أن سعاد حبيبته على وجه الحقيقة شبب بها على عادة الشعراء في العصر الجاهلي حين ينشدون قصائدهم ، لكن الأمر ليس كما زعموا ؛ لأن الخوف قد ملأ قلبه من الرسول ﷺ ، الذي أهدر دمه بين العرب ، هذا الخوف منعه من أن يتغزل على وجه الحقيقة أمامه خوفا ومهابة ، فقد كان يتوقع أن يخر صريعاً بين حين وآخر مما جعل لسان حاله يقول :

نعلم رسول الله أنك مدركي ... وأن وعيدا منك كالأخذ باليد

فقد استعان بمن يصحبه إلى الرسول ﷺ ؛ ليهدئ من خوفه ورعبه ومهابته ، فقد قيل : أن أبا بكر وعمر وعلي ﷺ رفضوا مصاحبته ، وأرشدوه إلى أن يقدم عليه وحده متخفيا تائبا ؛ فرسول الله ﷺ دائما يعفو عمن أسلم ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، لكن مهابة النبي ﷺ والخوف منه ألجآه إلى صديق من جهينة يصحبه في هذا الموقف الرهيب المهيب كما ورد في أبيات الاعتذار السابقة .

المرحلة الثالثة : ليست سعاد شخصية خيالية كما زعم بعضهم أيضا

للأسباب السابقة ؛ ولأن هذا الموقف المهيب لا يعطي له فرصة للتخيل ، لكي ينسج صورة من الوهم والخيال ، يتعلل بها الشاعر معتذراً ، أو يتستر وراءها تغطية للخوف والهيبة ، أو تخفيفا منهما على نحو ما ، فإذا كان الشاعر لم يجرؤ على تصوير الحب الحقيقي الواقعي ؛ فربما كانت زوجة له ؛ لكنها غدرت به وانصرفت عنه كما يبدو من عذرها ، ويكون في هذا مندوحة له ، لو تعرض لها في المطلع باعتبارها زوجة ، فكيف بالخيال والوهم ؟ ، وهو أبعد ما يكون عن سابقه تصوراً ، حينئذ يكون الخوف أعظم ، والموقف أشد رهبة ومهابة من تصوير حب واقعي ، وإن انتهى بالفراق والغدر ؛ لذلك يكون من المتعذر بمكان كبير أن تكون سعاد شخصية خيالية .

المرحلة الرابعة : لا يبقى بعد ذلك إلا وجه واحد فقط ، هو أن يكون مطلع قصيدته صورة رمزية على عادة الشعراء في عصره ، فإنهم يرمزون عن حبهم لزوجاتهم بليلى أو بهند أو بسلمى أم بغيرها كما فعل بعض الشعراء قبله لكن كعبا ﷺ في مطلع قصيدته كان يرمز عن حب أسمى من هذا الحب الحسي كان يرمز بسعاد إلى الهداية وإلى حبه للإسلام ، وإلى حبه لله تعالى ولرسوله الكريم ؛ فأضحى يعاني من هذا الحب ، الذي ملأ قلبه ، وشغل فؤاده ؛ فلم يَرَ بَاباً غيره ، بعد أن غلقت أبواب العشيرة والقبائل أمامه ؛ فأصبح هذا الرمز « سعاد » وغيرها تنعكس صورتها عليه من مظاهر الجمال في الطبيعة ، مثل رشاقة الظبي وجمال قده وعينه وحركته ، ورشاقة المرأة العربية في قدها وطولها وقصرها وريقها العذب الحلال الذي يسكر كالشأن في الخمر ، وهذه الأدوات وهي سعاد وصفاتها الحسية ، والظبي وسحره ، والخمر وأثرها ، كلها رموز الجمال في الحب الإلهي ، وهي التي انطلقت منه الصوفية ، واتخذت منها صورا ورموزا للتعبير عن حبها الإلهي والمحمدي كما عند الشريف الرضي والمرتضى وابن الفارض وغيرهم .

أخذ الشاعر كعب بن زهير ﷺ يعاني هذا الحب الإلهي ، وكل ما يخشاه أن تكون جنايته أعظم من حبه ؛ فلا ينفتح له باب الرسول ﷺ ، وأخذ يتقلب في وجده وعذابه وهجره ، وغدر الحب ووصاله ، وهو أيضا يعاني في سبيل تحقيقه والوصول إليه ، من رحلة عنيفة ، حفت بالمكاره والمشقات والأهوال ، لا

تقطعها إلا « ناقة » قوية نجيبة أصيلة ، تقطع الفيافي والسهول ، والصحراء والهضاب ، والجبال والتلال بعزم وإصرار ، لتشاركه هي الأخرى هذه المعاناة وتعينه هي كذلك على تحقيق الهدف والغاية ، وهو « الحب الإلهي والمحمدي » فيقدم إلى النبي ﷺ معتذرا عن زلاته ، تائبا عن هفواته ، وسقطات لسانه في « اعتذاره » هائما بحب النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في « مديحه » .

لهذا كانت هذه الموضوعات من النسيب ووصف الرحلة والراحلة والاعتذار والمدح قد اجتمعت في غرض واحد ، وهو « الحب الإلهي والمحمدي » ودارت أفكاره ومعانيه في هذا الغرض الأدبي ، الذي اهتدى إليه الشاعر الإسلامي كعب بن زهير ﷺ ، فكان أول شاعر يتناوله ، ليفتح الباب على مصراعيه لشعراء الحب الإلهي مثل أبي العتاهية والشريف الرضي والمرتضى وابن الفارض والبوصيري والبارودي ، وشوقي وعامر بحيري ومحمود جبر ، وعبد الله شمس الدين وغيرهم ، وكانت لهذه القصيدة أصداء عند العلماء والأدباء والنقاد في مختلف العصور الأدبية ؛ فقد تناولوها بالشروح والتحليل والنقد ، فقد شرحها التبريزي وأبو البركات الأنباري ، وابن هشام النحوي ، والباجوري فقد ذكر أحد الباحثين [(١)] أن شروحها بلغت تسعة وثلاثين شرحا ، وذكر بروكلمان ثلاثة عشر تخميسا ، وكذلك قام كثير من الأدباء بتشطيرها ومعارضاتها حتى بلغت المعارضات خمسة وعشرين قصيدة [(٢)] ، وقد عارضها البوصيري بقصيدة مطلعها :

إلى متى أنت بالذات مشغول   وأنت عن كل ما قدمت مسئول

القيم الخلقية في خطاب القصيدة : كانت هذه التجربة الوجدانية أول تجربة شعرية في الأدب الإلهي والمحمدي في الشعر العربي للشاعر كعب بن زهير ﷺ ، يفتح بها أبواب التوبة والعفو للدخول في الإسلام وشرف الصحبة للنبي ﷺ ، لذلك تضمنت هذه القيم الخلقية :

١ ـ اتخاذ الجمال بأوصافه الحسية مثل جمال المرأة ، وجمال الطبيعة

---

(١) الدكتور محمود حسن الزيني في تحقيقه للقصيدة .

(٢) الدكتور السيد مرسي أبو ذكري في كتابه : بانت سعاد في مرآة الأدب والنقد .

المختلفة رموزا محسّة للتعبير عن التجريد في « الحب الإلهي والمحمدي » ومفتاحا لتحريك عاطفة الحب ، ومشاعر الصدق ، ووقودا ملتهبا يذكي الوجدان حرارة وقوة ؛ ليكون الوصف الحسي للجمال هو التجسيد المادي للتجريد في الحب ، والتشخيص الحي النابض لعناصره الوجدانية ، ولا يعبر عن هذا الحب السامي في الإنسان ـ وهو أجمل شيء في الوجود ـ إلا ما يراه من مظاهر الجمال في واقعه المحس : من جمال المرأة ، وسحر الطبيعة ، وهيامه بالناقة ؛ فهي مثلث الجمال في أضلاعه الثلاثة التي لازمت كعب بن زهير ﷺ في حياته ؛ لأن الله جميل يحب الجمال ، وطيب لا يقبل إلا طيبا ، فأما جمال المرأة : « إذا نظر إليها سرته » ، وهو أحرى أن يؤدم بين الرجل والمرأة كما في الأحاديث الشريفة ، وأما جمال مظاهر الطبيعة ، وجمال الناقة فقد قال الله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۝ وإلى السماء كيف رفعت ۝ وإلى الجبال كيف نصبت ۝ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ الغاشية : ١٧ - ٢٠ ، وقوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ۝ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ النحل : ٥ - ١٨ ، وغيرها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وهذا الجمال الحسي عند الشاعر نراه في صور النسيب والطبيعة والناقة والرحلة في معظم القصيدة من المطلع حتى بداية الاعتذار .

٢ ـ الإيمان بقضاء الله وقدره ، والرضا به ، والقناعة بأن الأجل واقع لا محالة ، ولا راد لقضاء الله سبحانه وتعالى ؛ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، قال الشاعر :

فقلت خلوا طريقي ـ لا أبالكم ـ ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

٣ ـ العفو والصفح من القيم الإسلامية السامية ، وعند رسول الله ﷺ أعظم ، قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ آل عمران : ١٥٩ ، قال الشاعر :

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

٤ - القرآن الكريم كتاب الله المقدس ، يضم بين دفتيه كل العظات والعبر والقيم الخلقية والتشريعية ؛ فقد بلغ الغاية في تفصيل ذلك بالتشريع والقصص والتوضيح ، قال تعالى : ﴿ حم ۝ تنزيل من الرحمن الرحيم ۝ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ۝ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ فصلت : ١ - ٤ ، قال الشاعر :

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

٥ - الاعتذار والاعتراف بالذنب والندم على فعله ، والعزيمة الصادقة على هجره ، وتحريم الغيبة والنميمة من المشائين النمامين ، الذين يتخذون الوقيعة والفتنة والنميمة للإيقاع بين الناس ، كل ذلك يتنافى مع القيم الخلقية في الإسلام فحرمها وحذر منها وعاقب عليها في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون ۝ بأيكم المفتون ۝ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ۝ فلا تطع المكذبين ۝ ودوا لو تدهن فيدهنون ۝ ولا تطع كل حلاف مهين ۝ هماز مشاء بنميم ۝ مناع للخير معتد أثيم ۝ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ القلم : ٦ - ١٣ ، وغيرها من الآيات والأحاديث الشريفة في تحريم الغيبة والنميمة ، وهي كثيرة ، قال الشاعر :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت عني الأقاويل

٦ - التوبة والمعاناة النفسية بالندم ، والخوف من عدم القبول ، والعزيمة الصادقة بالعمل الصالح ، على ألا يعود إلى الذنب مرة أخرى ، يؤدي ذلك كله إلى الرجعة الصادقة ، والتوبة النصوح ؛ فالشاعر بلغ في محنته مبلغا ، لا يستطع أحد من الأناسي والحيوان تحمّله ، حتى لو كان فيلا لخر صريعا ؛ لكن الذي منحه الصمود هو الرجاء في عفو رسول الله ﷺ ، وهو واقع لا محالة ، لأنه من طبعه وشيمته قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ۝ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ الزمر : ٥٣ ، ٥٤ ، قال الشاعر :

لقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لظل يرعد إلا أن يكون له   من الرسول بإذن الله تنويل

٧ ـ العزم والتصميم ، والعهود والمواثيق على الصدق في الإسلام ومبايعة الرسول ﷺ على الإيمان الصادق والجهاد في سبيله ؛ فيؤازره وينصره مثل أصحابه ﷺ ، قال الشاعر :

ما زلت اقتطع البيداء مدرعا   جنح الظلام وثوب الليل مسبول

حتى وضعت يميني ـ لا أنازعه ـ   في كف ذي نقمات .. قيله : القيل

٨ ـ الشجاعة بلغت غايتها عند الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ الفتح : ٢٩ ، وقوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ القلم : ٤ ، وفي الحديث الشريف : « كنا إذا احمرّ البأس نتقي برسول الله ، وإن الشجاع منا الذي يحاذى به » ، ثم الصدق في إيمان صحابته وسماحتهم وعزتهم وثباتهم وحنكتهم وشجاعتهم ﷺ ، ودفاعهم عن الإسلام وجهادهم في سبيله ثم تقدير الرسول ﷺ لهم والاعتراف بفضلهم ، والاهتداء بهديهم ، والاقتداء بهم ، والسير على نهجهم ؛ فهم أفضل المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ الفتح : ١٨ ، وقوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ التوبة : ١٠٠ ، وقول الرسول ﷺ : « أصحابي أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، فلو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، قال كعب بن زهير ﷺ :

لذاك أهيب عندي إذ أكلمه   وقيل : إنك مسبور ومسئول

إلى آخر القصيدة .

القيم الفنية في خطاب القصيدة : بلغت القصيدة من روعة الأسلوب ، وجمال التصوير الأدبي مبلغا أعجب الرسول ﷺ ، حتى منحه « بردته » الشريفة ؛ ليكون ذلك بمثابة إجازة قول الشعر ، ورعاية الإسلام له وصوره الأدبية وفنونه المختلفة من أهم صور وفنون الدعوة الإسلامية ، ووسيلة من وسائل الدفاع عنه ؛ فاتسمت القصيدة بالألفاظ الجزلة القوية الفخمة ، والأسلوب القوي الرصين المحكم البليغ ، ذات صورا أدبية متنوعة ، منها ما هو مستمد من الحقيقة من « علم المعاني » ، ومنها ما هو مستمد من الخيال من « علم البيان » ، ومنها ما هو مستمد من الموسيقى من « علم العروض والقوافي » ، ومنها ما هو مستمد من الإيقاع من « علم البديع والمحسنات » ، ومنها مستمد من الطبيعة والواقع .

لهذا كانت « البردة » تتويجا لروعتها في التصوير الأدبي ، كما كانت حماية له من الغدر ، فقد أصبح جنديا من جنود الدفاع عن الإسلام ، ودرعا من دروعه ؛ فاحتمى بأشرف درع وأكرمه وأطهره ، احتمى ببردة النبي ﷺ ليتقلدها من بعده الخلفاء من بني أمية وبني العباس ، ثم تصير شعاراً لهذا الغرض الأدبي في الأدب الإسلامي ، وهو « الحب الإلهي » ، فقد أطلق البوصيري على قصيدة له مطولة في ذلك « البردة » ، وأطلق أمير الشعراء أحمد شوقي على قصيدة له : « نهج البردة » ، وأطلق عامر بحيري على قصيدة له « نهج البردة » وغيرهم ، ثم اتجه آخرون لشرحها ، وتخميسها وتشطيرها كما سبق أن وضحنا ذلك .

كل ذلك كان نتيجة لإعجاب الرسول ﷺ بهذه القصيدة وروعتها في قيمها الخلقية وقيمها الفنية ، وروعتها في الأسلوب والتصوير الأدبي من حيث الإيقاع الصوتي والموسيقي للغة التي تقوم بتحديد الأبعاد الزمانية والمكانية ودلالاتهما على الحدث والمعاني ، أو من حيث التصوير الأدبي للصراع بين الماضي للشاعر وحاضره ، أو من حيث الواقع والمستقبل .

تجد هذه الحيثيات في جميع روافدها وعناصرها الفنية ، تجد في البيت الأول حتى نهاية البيت الثالث عشر صورة كلية واحدة ، تقوم على تشخيص الصراع بين الماضي والحاضر ، ماضي الضلال والتيه والتخبط والعذاب الذي

يلاحقه وبين حاضر مشرق بالهداية والنور ، والأمن والاطمئنان ، والحب والسعادة وماض حافل بالمطاردة ، وأشباح القتل والفزع والإرهاب ، وحاضر التوبة والنور والهدى والإسلام ، ونعيم الحياة ، وسعادة المصير ، إنها صورة كلية تجسم هذا الصراع التجريدي ، وتجعل منها شخوصا ينتصر فيها جموع الخير والسعادة في الحاضر والمستقبل على فيالق الظلام الذاهب ، والبين الآفل ، والغروب الراحل بلا عودة .

هذه الصورة الكلية لا يمكن أن تتخذ هذا الإطار العام من حيث الشكل ولا تلك القيمة الخلقية السامية إلا من خلال معطيات التصوير الأدبي السابقة من دلالات للألفاظ وإيقاعاتها الصوتية والموسيقية ، ودلالات التراكيب ، التي تستمد صورها الجزئية من الحقيقة أو من الخيال ؛ لتدل على هذه المعاني ، وما وراءها من إيحاءات ، تعمق هذه الدلالات ؛ فالصورة الجزئية في البيت الأول ، تصور رحيل سعاد في أعماق الماضي الآفل في الظاهر ؛ لكنها ترمز في الحقيقة إلى نقيض ذلك ، لأنها عبرت عن إثبات الهدى وانبثاق فجر الإسلام في قلب الشاعر وظهور حقيقة الإيمان في تصرفاته ؛ لأن من معاني « بانت » اللغوية : ظهرت ووضحت ؛ لذلك أصبح الشاعر قلبه متيما بحاضر الهدى ، ونابضا بالحب الإلهي المحمدي في اليوم والمستقبل ، وتعلق بذلك أشد التعلق ؛ لأنه لا بديل عنه ولا فرار لغيره ، وأن رحيل الماضي لم يُفْد الشاعر ؛ أي لم يستحق منه الفدية ولا التضحية ، وإنما الذي يستحق هو ما في الحاضر من الهدى والحب والإلهي المحمدي ، ثم أخذ يتكامل الجمال الحسي لهذا الحاضر ، فتتلاحق فيه الصور الجزئية الكثيرة ؛ ليتضح الإيحاء والرمز أكثر في هذه التشبيهات المتتابعة كالظبي الأغن ، والظبي الحيي غضيض الطرف ، والظبي المكحول الساحر الجذاب .

وكذلك في التجسيم للحاضر بالصور المحسة ، الذي اجتمعت له كل عناصر الحسن ، ومعالم الجمال ، فسعاد الحاضر هيفاء مقبلة ، ثم عجزاء مدبرة وليست بالقصيرة ولا الطويلة ، بل الجمال كل الجمال في الوسطية والتوسط مثل دين الإسلام ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ ، ثم أسنانها بيضاء ناصعة وريقها عذب مشمول ، قد اجْتمعت له كل الأسباب والمصادر ؛ فهذا الماء العذب ينبع من عين محنية العذبة في منعطف الوادي ، بعد أن شملته ريح الصبا

الشمالية الطرية ، وبعد أن أذهبت عنه الرياح والتراب والقذى على سبيل الاستعارة بالكناية ، وامتلأت غدرانه من ماء السماء المتدفق : « وأفرطه يعاليل » وفيها أيضا استعارة .

كل هذه الصور الجزئية تمثل الشق الأول من الصراع النفسي الذي يملأ قلبه بالأمل الواعد ، ثم تتعاقب عليه بعد ذلك الصور الجزئية ، التي تمثل وتجسم الشق الثاني من الصراع النفسي ، يتزاحم فيه صور اليأس والخوف من المستقبل الغامض مع النبي ﷺ ، فتوحي هذه الصور الجزئية بهذا الصراع المقابل ؛ فالوعود كاذبة غير صادقة ، والنصح مرفوض ، والطريق محفوف بالمصائب والكوارث والخلف والتبديل والتغيير ؛ فلا تدوم على حال ، بل تتلون بألوان الحرباء والغول ، وتفر من الوعود كما يفر الماء من الغرابيل ، وأنها مواعيد كمواعيد عرقوب الذي أخلف في ميعاده على الرغم من الإلحاح عليه ، والأماني غاربة ، والأحلام باطلة كل هذه المعاني تنبع من الصور الجزئية الخيالية ، نجد منها الاستعارة في « خلة قد سيط من .. » حيث شبه طبيعتها المتمردة ، التي جمعت كثيرا من صفات التمرد بذلك الخليط ، الذي يجمع بين الفجع والدلع والخلف والتبديل ، ثم يشبهها أيضا في طبيعتها المتغيرة بالحرباء والغول « كما تلون في أثوابها الغول » ، وبالماء في الغرابيل : « كما تمسك الماء الغرابيل » ، و« بعرقوب بن نصر » بيثرب ، الذي يضرب به المثل في خلف الوعد ؛ فقد كانت له حديقة من نخل مثمر ، قد وعد صديقا له أن يبيعه إياها ، وظل يتردد عليه من حين لآخر ، حتى صارت بلحا فتقدم المشتري ليصرمها ؛ فقال له عرقوب : دعها حتى يُشقِّح بلحها ، أي « يصفر أو يحمر » ، فلما شُقِّح ، أتى ليصرمها ؛ فقال له عرقوب : دعها حتى تصير بلحها رطبا ؛ فلما صار رطبا أتاه فقال : دعه حتى يصير تمرا ؛ فلما صار تمرا ، انطلق إليه عرقوب فجذه « قطعه » ؛ فلما جاء الرجل بعد أيام فوجده عودا قائما فذهب هذا القول « مواعيد عرقوب » مثلا يضرب في نظائره من الواقع والحياة .

ونجد خلال هذه التشبيهات استعارات مكنيات في « تلون الغول » « تمسك الغرابيل » ، وغيرها ، كما نجد صوراً أخرى مستمدة من الحقيقة مثل الصور التي تدل على الاسترحام من الصفات الذميمة في قوله : « يت ويحها خلة » ؛ فالصورة الأولى للاسترحام ، والصورة الثانية يدل التنكير فيها على

التحقير والذم ، وكذلك الصورتان اللتان تدلان على الاستحالة والتعذر ، وهما : « لو أنها صدقت ما وعدت » ، و« لو أن النصح مقبول » ، وكذلك صور التحقير والذم في النكرات : « خلة - فجع - ولع - إخلاف - تبديل » ، ثم الصور الأدبية التي تؤكد معاني الخلف ، بل الاستحالة في أسلوب القصر بالنفي والاستثناء : « وما تمسك بالوصل .. إلا كما تمسك الغرابيل الماء » ، وكذلك القصر في قوله : « وما مواعيدها إلا أباطيل » ، وغيرها من الصور الكثيرة المستمدة من الحقيقة على هذا النحو المتدفق في القصيدة .

ثم ينتقل الشاعر إلى صورة كلية أخرى يصور فيها رحلته الشاقة ، التي ستحسم هذا الصراع النفسي العنيف بين الماضي الغارب ، والباطل الذاهب ، وبين الحاضر الواعد ، والمستقبل السعيد ، حتى يتم الرضا من رسول الله ﷺ ؛ فيقبل توبته ، ويسعد بدخوله الإسلام ، حين ينحسم الصراع ، فينتصر الحاضر والمستقبل بدخوله في الإسلام على الماضي البغيض ، يصور الشاعر هذه الرحلة العسيرة حتى تنفرج الأزمة باليسر ﴿ فإن بعد العسر يسرا ۝ إن البعد العسر يسرا ﴾ وما سعاد إلا الإسعاد ، والسعادة الأبدية هي الإسلام :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها	إلا العتاق النجيبات المراسيل
ولن يبلغها إلا عذافرة	فيها على الأين إرقال وتبغيل

وهكذا في اثنين وعشرين بيتا ، يتجمع داخل إطارها صور جزئية كثيرة مستمدة من الحقيقة ، ومن الخيال ، ومن الموسيقى والإيقاع ، ومن عناصر التصوير الأدبي : من الألوان والأصوات والحركات والأشكال والحجوم والروائح والطعوم .

فالصورة الأدبية في « أمست سعاد » توحي بالشدة والتيه وملاقاة الأهوال في هذه الرحلة ؛ لأن معنى « أمست » دخلت في المساء والظلام والتيه والشدة ثم الصورة الأدبية في أسلوب القصر ، الذي يدل على الغاية في المعاناة والمشقة في قوله : « لا يبلغها إلا العتاق » ، وهي صورة مستمدة من الحقيقة أيضا ، نابعة من القصر بالنفي والاستثناء ، وفيها أيضا صورة خيالية في الاستعارة المكنية ، ومثلهما الصورتان في قوله : « ولن يلغها إلا عذافرة » ، ومثلهما الصورتان في قوله : « نضاحة الذفرى » ، فالصورة المستمدة من الحقيقة تعتمد على صيغة المبالغة في « نضاحة » ، والصورة الخيالية تصور السرعة والقوة ، وهي أن ما خلف أذنيها ،

وما في أعلى رأسها ، يغرق عرقا من شدة سرعتها وقوتها ، وكذلك الصورة الخيالية في الاستعارة « عرقت عرضتها » ، وفي « ترمي الغيوب » ، أي تمعن النظر في سيرها وفي قوله : « توقدت الحزان والميل » ، أي اشتدت الجبال والكثبان لهيبا من شدة لفح الشمس ولهيبها .

ثم التشبيه الضمني في قوله : « بعيني مفرد لهق » ، كأن عينيها مثل عيني الوحيد من القطيع ؛ لأنه يكون أشد حذرا وترقبا ، ثم الكناية عن صلابتها وقوتها في قوله : « ضخم مقلدها .. تفصيل » ، والكناية عن سرعتها في قوله : « غلباء وجناء .. قدامها ميل » ، والكناية عن كرم الأصل وشرف المحتد في قوله : « حرف أخوها .. شمليل » ، والكناية عن سلامتها وصحتها وعزتها في قوله : « يمشي القراد .. زهاليل » ، والكناية عن صلابتها وسرعتها في قوله : « عيرانة .. مفتول » ، وتشبيه أنف الناقة في حدنه واستوائه بالحديدة التي ينقر بها الرحى في قوله : « كأن ما فات .. برطيل » ، والكناية عن شبابها وقوتها ؛ لأنها لم تلد ولم تحمل في قوله : « تمر مثل عسيب النخل .. الأحاليل » ، وفيه تشبيه أيضا والكناية عن صبرها في السير وقوة تحملها في قوله : « سمر العجايات .. تنعيل » والتشبيه والاستعارة في قوله : « كأن أوب ذراعيها .. تلفع العساقيل بالقور » وهذا البيت مع قوله : « يوما تظل .. وتزييل » هما كناية عن شدة الحر والقيظ اللافح .

والتشبيه في قوله : « يوما يظل به الحرباء .. كأنه ضاحية بالنار مملول » والاستعارات في قوله : « يركضن الحصى » و« شد النهار » و« فجاوبها نكد مثاكيل » ، ثم ذلك التشبيه التمثيلي حيث يشبه الناقة وهي تحرك جسدها وذراعيها الأماميتين ، وتتقدم بصدرها المكشوف بالثكلى التي تلطم خديها بيديها ، وتمزق ثياب صدرها وجسدها في سرعة متلاحقة ، فكلما تذكرت فجيعتها ازدادت لطما وتمزيقا وازدادت حركتها ، وفي التشبيه التمثيلي أيضا كناية عن سرعتها في وقت الظهيرة ، مما يدل على صلابتها وقوتها ، وذلك في الأبيات الثلاثة : « شد النهار .. » و« نواحة رخوة الضبعين » و« تفري اللبان بكفيها .. » ، وهكذا تتآزر معها صور جزئية أخرى مستمدة من الحقيقة أيضا .

ثم ينتقل الشاعر إلى صورة كلية أخرى ، يصور فيها مرحلة الخروج من

عمق الصراع العنيف إلى عنق الزجاجة في شدة الصراع ، وهي مرحلة الاعتذار وتلمس الرجاء والعفو ، وذلك من خلال صور جزئية تتلاحم في تشكيلها وبنائها الفني ؛ فهذه صورة أدبية تدل على حرص الوشاة على السعي في الوقيعة والدأب الملازم لهم حتى تقع الفريسة في قوله : « يسعى الوشاة بجنبيها » ، وصورة أخرى تصور الصراع العنيف في نفسه ، وكذلك بينه وبين الوشاة ، وهو ما يقتضيه الإنكار من كثرة التأكيدات وهي : « إن » ، و« كاف الخطاب » ، و« النداء » في : « يا ابن » ، و« الاسمية » ، ودخول لام التأكيد على الخبر « لمقتول » ، وهي صور مستمدة من الحقيقة ، وكذلك الأمر في الصور المؤكدة في قوله : « لا ألفينك إني عنك مشغول » ، ثم الصورة الدعائية في الجملة المعترضة في قوله : « ولا أبالكم » ثم المجاز المرسل في « خلو طريقي » وعلاقته المحلية .

ثم الكناية عن المولود وعن الموت في قوله : « كل ابن أنثى .. محمول » والاستعارة في « طالت سلامته » ، والصورة الأدبية في صيغة البناء للمجهول للدلالة على شيوع وعد الرسول ﷺ ، حتى أصبح على كل لسان ، وليس محددا بشخص معين ، أو بأشخاص معينين كما في قوله : « أنبئت » ، ثم الصورة الأدبية الرائعة في التعبير عن سعادته وفرحته الكبرى وذلك في تكرار لفظ الجلالة ، ولفظ الرسول ، والعفو مع الأمل ، وهما بمعنى واحد ، ثم وعد الرسول ﷺ ولا خلف فيه ، مع التأكيد بأن والاسمية في قوله : « أن رسول الله .. مأمول » .

ثم الصورة الأدبية في اسم الموصول وصلته الممتدة ، التي تدل على التعظيم للرسول ﷺ وللقرآن الكريم ، ولما اشتمل على « مواعيظ » وذلك بصيغة منتهى الجموع ، وما تفيده كلمة التفصيل من الشمول والبيان البليغ ، وذلك في قوله : « هداك الذي أعطاك .. وتفصيل » ، ثم الصورة الأدبية التي تدل على استماتته في الدفاع عن نفسه واتخاذ كل الوسائل المقنعة في سبيل ذلك ، كالنفي بـ « لا » والتوكيد بالنون ، وبدلالة الأخذ على القوة ، و« ياء » المتكلم مع التشديد ودلالته على القوة الصوتية في « تأخذنّي » ، وبنفي الذنب « لم أذنب » ، وبحرف « لو » للدلالة على الامتناع .

ثم التشبيه التمثيلي الضمني الرائع ، حيث يشبه الشاعر نفسه القوية الصلبة

التي مزقتها المحن والمشقات والوشاة ، والصراع النفسي مثل الفيل أضخم الحيوانات وأقواها في جسده وخرطومه وصبره وثقته وهدوئه ، والذي أعانه على الصمود هو ثقته ويقينه في الرجاء عند رسول الله ﷺ وفي عفوه وصفحه ؛ لأن هذه الصفات من شيمته وخلقه ؛ لذلك تحطمت أمامه كل العواصف والشدائد في قوله : « لقد أقوم ... » البيت ، وفي قوله : « لظل يرعد ... » البيت الثاني .

ثم التشبيه البليغ المقلوب في قوله : « ثوب الليل » ، والاستعارة المكنية في قوله : « جنح الظلام » ، والكناية عن الإسلام في قوله : « وضعت يميني » والكناية عن هيبة رسول الله ﷺ ، والخوف الشديد من المثول بين يديه الشريفتين في قوله : « لذاك أهيب .. ومسئول » ، ثم التشبيه التمثيلي في الأبيات : « من ضيغم .. يغدو .. إذا يساور قرنا .. منه تظل .. ولا يزال بواديه .. » ، وقد استطرد في المشبه به بالترشيح له بصفات كثيرة وأوجز في المشبه ، للدلالة على الهيبة من رسول الله ﷺ حيث طوى كل صفاته التي تقابل الصفات في المشبه به توقيرا وهيبة ومهابة لشخصه الكريم ﷺ ، وهذه في ذاتها صورة أدبية أخرى إنها صورة أدبية متراكبة ومتزاحمة مع وضوح المعنى وسرعة تأثيره في النفس مما يدل على موهبة الشاعر الفنية في التصوير الأدبي ، فهو من مدرسة أبيه زهير بن أبي سلمى صاحب مدرسة التجويد والصقل والتهذيب والتثقيف في الشعر .

ثم تأمل روعة التصوير الأدبي في قوله : « إن الرسول لسيف يستضاء به .. مسلول » ، وذلك في دلالات التأكيدات على الصفات الكثيرة للرسول ﷺ في البيت ، وذلك : بـ « أن » و« الاسمية » و« اللام » و« تعدد الصفات » ، ثم الصورة الأدبية في عبارة البناء للمجهول « يستضاء به » للدلالة على شيوع نوره وعموم رسالته في العالم كله في الزمان والمكان ، ثم التشبيه البليغ بالسيف في نوره ولمعانه ومضائه وحسمه ، والفصل بين الحق والباطل ، وانتصار الإسلام على يديه مع دلالة التنكير على التعظيم ، ومن أعظم من الرسول ﷺ في الخلق قاطبة ؟! ثم الكناية عن أصحابه الشجعان ، الذين اصطفاهم الله جنداً له في تحقيق النصر الفاصل كحد السيف القاطع ، ثم الصورة الأدبية في إضافة السيوف وهي جمع إلى لفظ الجلالة ، للدلالة على أن نصر الله عز وجل حقيقة واقعة ، لا تقبل الجدل ولا الإنكار ، لأن النصر وعد الله عز وجل للمؤمنين والله لا يخلف الميعاد ، ثم

الصورة الأدبية في « مسلول » وهي لفظ واحد ، لكن له دلالته المتنوعة ؛ فالتنكير يدل على التعظيم بالإضافة إلى معناه في وضع اللغة فهو مشهر دائما ، لا يعرف مخدعه في جرابه ، كما أنه مرفوع ومشحوذ وغير مفلول ، موجه لحماية المسلمين وللدفاع عن الإسلام ، وقد أطلق الرسول هذا اللقب على خالد بن الوليد ﵁ بأنه سيف الله المسلول ؛ قال النقاد إن هذا البيت هو « بيت القصيد » ؛ لأنه جمع كل المحاسن في القصيدة كلها .

والكناية عن شجاعة الصحابة ﵃ ؛ فهم أبطال صناديد ، عظماء مترابطون متآخون ، وهو ما تفيده كلمة « عصبة » في معانيها اللغوية وحسب موقعها في التركيب وتآخيها مع جاراتها ، وما تفيده صيغتها من التنكير الذي يدل على التعظيم ، وفي بيانها بمن التبعيضية التي تفيد صفة المهاجرين لهم ، فهم المسلمون من قريش الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وتركوا بقية قبيلتهم هناك على الكفر ، وعلى ذلك فهم أفضل الخلق وأعزهم لإسلامهم ، ورسول الله ﷺ هو قائدهم يطيعونه ويستجيبون له ، وفي العصبة مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد .

والكناية عن عزة الصحابة ﵃ وأنفتهم ؛ فهم « شم العرانين » ، والكناية عن اعتدادهم في الحرب ، وأنهم مدرعون غير عزل من أدوات القتال ، فهم أبطال حرب ، وفرسان نصر في قوله : « أبطال لبوسهم .. بيض سوابغ » ، مع التشبيه في البيت الأخير ، وفي قوله : « يمشون مشي الجمال الزهر .. » ، ثم الكناية عن استبسالهم في سبيل الله والشهادة في قوله : « لا يقع الطعن .. تهليل » وغيرها من الصور الأدبية المتزاحمة والكثيرة ، النابعة من الإيقاع والموسيقى ، وتلك هي روافد التصوير الأدبي .

وأما عناصر التصوير الأدبي : فتجد الحركة في عواصف الرياح - والمشمول - وصوب سارية - تلون الغول - تمسك بالوصل - تمسك الغرابيل - مواعيد عرقوب - يعجلن - تعجيل .. وهكذا إلى نهاية القصيدة .

وتجد الألوان سواء أكانت محسة كلون العتاق النجيبات - وبعيني مفرد لهق - سمر العجايات - سيف - يستضاء به - شم العرانين - سوابغ - مشي الجمال الزهر .. وغيرها ، أو كانت الألوان معنوية خلقية ، فاصطفاء الرسول ﷺ لونه

معجب ومبهر ، ودلالة « مسلول » على الزهو بالنصر ، ولون النصر معجب يدخل السرور على النفس والبهجة على القلب ، وكذلك الشجاعة ، وكذلك في قوله : غير أنكاس - ولا كشف - ولا ميل ولا معازيل ، وكذلك اللون الزاهي في يفرحون ، وليس مجازيعا ، واللون المعجب في الشهادة في قوله : لا يقع الطعن إلا في نحورهم وغيرها .

وأما الصوت فتجده في صوت السيوف في المعارك ، وصوت الرياح والعواصف ، وصوت ريح الصبا والشمال ، وصوت الوشاة ، وصوت الثكالى ونواحهم وصراخهم ، وصوت اللطم على الخدود ، وغير ذلك من دلالات الصيغة ومعناها اللغوي وإيقاعها الموسيقي .

وأما طعم الإسلام والقرآن والنصر والشهادة والصحابة فهو طعم حلو وممتع كما قال النبي ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ... » ، فللإيمان حلاوة ولذة ومتعة لا تقل عن المتعة الحسية باللسان ، بل أكثر منها وأعظم كما تشم الروائح الطيبة من الألفاظ السابقة ، فهي رائحة فواحة ونفاذة كرائحة الجنة والمسك .

وأما الحجم فليس هنا أعظم من قيم القصيدة السابقة ولا أعز من خلق الرسول ﷺ والصحابة ﷺ ، وليس أعظم جزاء من جزاء المحب لرسول الله ﷺ والعاشق له ولأصحابه ، فما أعظم جزاء الصحبة ، فجزاؤها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة ، إنه لا يعدله جزاء في ميزان الأعمال وتقديرها ، وأما من حيث الشكل ؛ فالحب الإلهي يملأ الوجود كله صفاء ونقاء وطهرا ، فهو حب ثابت وشامل وعام ، لأنه متصل بالخالق عز وجل وبرسوله محمد ﷺ وبرسالته الإسلامية الخالدة إلى قيام الساعة .

وأما المعجم الشعري في القصيدة : فهو واضح في الشعر الإسلامي وخاصة إذا وازنت بين قصيدتين لكعب بن زهير ﷺ إحداها في الجاهلية وبين هذه القصيدة الإسلامية ، ستجد الفرق في المعجمين لهما واضحا يظهر في القصيدة الإسلامية المعجم الشعري للأدب الإسلامي الذي يستمد روافده من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، حتى الألفاظ اللغوية اكتسبت معاني وفدت عليها من الإسلام فازدادت ثراء في معانيها اللغوية والروحية والخلقية ، مثل لفظ

الرسول - وسيف - ويستضاء - مسلول - عصبة - أسلموا - زولوا - تهليل - هداك - العفو - مأمول - رسول الله - نافلة - هداك - القرآن - مواعيظ - تفصيل - قدر الرحمن .. وغيرها .

ثم تعال معي لنرجع إلى الوراء في عرض القيم الخلقية السابق فتجد كثيرا من الاقتباسات القرآنية ومن الحديث الشريف ، فقد تضوع خلق القرآن الكريم وقيمه وخلق النبي ﷺ وصفاؤه في أنحاء الجزيرة ، وتغلغلت في أعماق قلب الشاعر كعب ﵁ ، فتأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، واقتبس منه في شعره بعد قناعته الإسلامية وتصديقه بالقلب ، ثم ظهر ذلك في تجربته الشعرية للقصيدة ، وأصبحت الآيات التي اقتبسها في شعره ، والتي أشرنا إليها في القيم الخلقية هي معجمه الشعري في قصيدته الإسلامية في الحب الإلهي والمحمدي مرجعاً لشعراء الزهد والصوفية في العصور المتلاحقة ، وأصبح مذهبه في الرمز للحب الإلهي هو المنطلق للأدب الصوفي والمديح النبوي حتى اليوم ، ولا أدل على ذلك من كثرة الشروح والمعارضات والتخميسات وغيرها ، والتشطير لقصيدته مما أشرنا إليه ، وتحدث عنه كثير من الأدباء والعلماء والنقاد قديما وحديثا في دراساتهم الأدبية والنقدية .

* * *

الاعتذار

تعرض كعب بن زهير ﷺ في قصيدته السابقة للاعتذار ، لكنه كان موضوعا من الموضوعات التي اعتمد عليها الغرض الأدبي من القصيدة وهو « الحب الإلهي المحمدي » ، وقد جاء الاعتذار غرضا مستقلا في عصر صدر الإسلام ، عصر النبوة والخلافة الراشدة ، كانت منه قصيدة لعبد الله بن الزبعري[1] يعتذر فيها لرسول الله ﷺ بعد أن أنشد شعرا في الهجاء قبل إسلامه ؛ فقد صور في اعتذاره الصراع النفسي يثير في نفسه الخوف والرعب الشديد ، والهم الذي أحاط به ، وسيطر عليه كالمريض المحموم ، يتلوى في فراشه ، فلا ينام ولا يستقر على حال ، خوفا من غضب النبي ﷺ لما وقع منه قبل إسلامه فتقدم إليه معتذرا عن ذلك ، يطلب العفو منه والصفح عنه ، والنبي ﷺ أهل للخلق الكريم ، والمناقب السامية ، فقد تجسدت في شخصه الكريم القيم الإسلامية ، وشيمها الخلقية والروحية والنفسية والجسدية ، يقول الشاعر عبد الله بن الزبعري ﷺ :

منع الرقادَ بلابلٌ وهجومٌ ... والليل معتلج الرواث بهيم

مما أتاني أن أحمدَ لامَني ... فيه فَبِتُّ كأنَّني محموم

يا خيرَ مَنْ حَمَلَت على أوصالها ... غير أنه سرج اليدين غشوم

إنِّي لمعتذرٌ إليكَ مِنَ الَّذي ... أَسْدَيْتُ إذْ أنَا في الضلالِ أهيم

أيامَ تأمرُني بأغوى خُطَّةٍ ... سهم وتأمرني بها مخزوم

وأمدُّ أسباب الردى ويقودُني ... أمْرُ الغُواة وأمرهم مشئوم

فاليومَ آمَنَ بالنبي « محمد » ... قلبي ومُخْطِي هذه محْرُوم

مضَتْ العَدَاوةُ وانقضتْ أسبابُها ... ودَعَتْ أواصرُ بيننا وحُلوم

---

(١) عبد الله بن الزبعري بن عدي بن قيس ، ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر القرشي ، واحد ثلاثة كانوا يهجون المسلمين وهم على كفرهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة (٨هـ) وفر إلى نجران وهجاه حسان بن ثابت لفراره ، ثم تاب ، وأعلن إسلامه ، وقبل النبي منه ذلك ، واشترك في المعارك بعد الفتح حتى توفي عام (١٥هـ) ﷺ . انظر : نهاية الأرب ٣١١/١٧ ، والأغاني ١٣٧/٤ ، وغيرها . القصيدة من السيرة النبوية : ابن هشام ص ٤٦ جـ ٤ .

فـاغفـر فدىً لكَ وَالـدِيَ كـلاهمـا ... ذَلـلـي فَإنَّكَ راحـمٌ مَرْحــــوم
وعليـكَ من علم المـليك عــلامـة ... نورٌ أعـمٌ وخــاتمٌ مـخـتـوم
أعـطاكَ بَعْدَ مــحــبَّة بُرْهَانَهُ ... شــرفــاً وبـرهانُ الإلـهُ عظيم
ولقــد شَهدتُ بأَنَّ دينَك صَــادقٌ ... حقٌّ وأنـكَ في العــبـاد رحـيم
والله يشــهـدُ أنَّ أحــمـد مـصطفىً ... مـسـتـقـبلٌ في الصـالحين كـريم

وحين هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر هجاء مقذعـا ، حبسه أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب ﷺ لهـجائه ؛ فلجـأ إلى الشكوى من قسـوة الحبس وحـرمان أولاده الصغار من عطفه ورعايته لهم ؛ فاعتـذر للخليفة العادل على خطيئته نادما على هجائه المقـذع ؛ ليخرج من محنته فـي قـسوة الحبس وحرمـان صغاره وأهله منه ؛ فأنشد قصيدة معتذراً منها قوله :

مــاذا نـقــول لأفــراخ بـذي مـرخ ... زغب الحـواصل لا مـاء ولا شـجـر
ألقـيت كـاسبـهم في قـعـر مظلـمـة ... فـاغـفـر عليـك سلام الله يا عـمـر
أنت الإمـام الذي من بعـد صـاحبـه ... ألقي إليك مـقـاليـد النهـى البـشـر
فـامنن على صبيـة بالرمل مـسكنهم ... بين الأباطح تـقـــاهم بهـا الـقـرر

فأخرجه من الحبس بعد أن أخـذ على نفسـه موثقـاً وعهـداً ألا يسلك في شعره سبيل الهـجاء المقـذع الذي حـرمه الإسـلام ونهى عنه : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير مـا اكتسبوا فقـد احتملوا بهتانا وإثمـا مبينا ﴾ الأحـزاب : ٥٨ .

* * *

الرثاء

أصيب المسلمون باستشهاد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ في غزوة أحد بعد أن أبلى بلاء حسنا ، ورثاه كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جميعا ، يقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في رثائه (١) :

بكتْ عيني وحُقَّ لها بكاها ... وما يُغْني البكاءُ ولا العويلُ
على أسد الإله غداةَ قالوا ... أحمزةُ ذاكم الرجلُ القتيل
أُصيبَ المسلمون به جميعا ... هناك وقد أُصيب به الرسول
أبا يعْلى لك الأركانُ هدَّتْ ... وأنت الماجدُ البرُّ الوَصُول
عليك سلامُ ربك في جنان ... مُخَالطُها نعيمٌ لا يزول
أيا هاشم الأخيار صبْراً ... فكلُّ فعالكم حسَنٌ جميل
رسولُ الله مصطبرٌ كريمٌ ... بأمر الله ينطقُ إذْ يقول
ألا من مُبلّغٍ عني لؤيّاً ... فبعد اليوم دائلة تدول
وقبل اليوم ما عَرفُوا وذاقوا ... وقائعنَا بها يُشْفى الغليل
نسيتم ضَرْبَنَا بقليب بدر ... غداةَ أتاكم الموتُ العجيل
غداةَ ثوى أبو جهلٌ صريعاً ... عليه الطيرُ حائمةٌ تجول
وعتبة وابنَه خراً جميعاً ... وشيبة عضَّه السيف الصقيل
وقد تركنا أميّة مُجْلَعِباً ... وفي حيْزُومه لدن نبيل
وها هم بني ربيعة سائلوها ... ففي أسْيافنا منها فُلول
ألا يا هندُ فابكي لا تَملّي ... فأنت الوالهُ العبْري الهبُول

---

(١) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الخزرجي الأنصاري ، وأمه كبشة بنت واقد ابن عمر بن الإطنابة الخزرجية ، ولد بيثرب ، وأشهر شعراء الخوارج ، كما كان قيس بن الخطيم أشهر شعراء الأوس ، وكان عظيم القدر في الجاهلية والإسلام ، وكان أحد النقباء الإثنى عشر في بيعة العقبة الثانية ، وأحد اثنين أرسلهما لإخبار المدينة بالنصر في بدر ، فذهب إلى العالية ، وذهب زيد بن حارثة إلى المدينة رضي الله عنه ، وأول من ردد : « لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده » في عمرة القضاء وهو يمسك بزمام ناقة النبي ﷺ ، واستعمله على المدينة في إحدى الغزوات ، وترأس سرية ، وكان ثالث الأمراء في غزوة مؤتة ، التي استشهد فيها في العام الثامن من الهجرة ، وأخته عمرة بن رواحة راوية الحديث الشريف زوجة النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه . الأعلام للزركلي ٨٦/ ٤ ، وسيرة ابن هشام ٣٢٨/ ٢ ، والبداية والنهاية ==

ألا يا هندُ لا تُبْدي شَمــــاتــاً بحـــمــزةَ إن عـــزكم ذلـيل [(١)]

الرثاء غرض من الأغراض الشعرية القديمة ، اهتم به الشعراء لرثاء شيخ القبيلة ، أو أحد شجعانها المغاوير ، أو قتلاهم في معاركهم ، التي كانت تسمى بـ « أيام العرب » ؛ فيذكر الشاعر مناقب الميت ومفاخره ومكانته بين قومه زعيما وشيخا ، أو فارسا شجاعا معبرا عن جزعه وحزنه ، يبكيه الشاعر ، وتبكيه النساء وذلك مثل رثاء دريد بن الصمة لأخيه عبد الله ، وقد تناولت هذه القصيدة بالتحليل والنقد في كتابي : « الأدب الجاهلي .. دراسة ونقد » ، وكذلك رثاء « لبيد » لأخيه « أربد » ، ورائية المهلهل في رثاء أخيه كليب ، وغيرها .

لكن الرثاء في العصر الإسلامي اتخذ اتجاها آخر ؛ فإن كان الشاعر يبكي لفقد المرثي ويحزن لفراقه ، إلا أن عزاءه فيه أنه مات مسلما أو شهيدا ، وأن جزاءه الجنة ، فهو ذو مناقب فاضلة وخلق إسلامي وقيم سامية ، أو أنه كان يدافع عن الإسلام ويذود عن حياضه ، أو كان عادلا في سياسته الرعية ومتحملا للمسئولية ، كاستشهاد حمزة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهم ﷺ ، وقد تكون المرثية لشهداء معركة ، مثل شهداء غزوة بدر الكبرى ، أو أحد ، أو الخندق ، أو مؤتة ، وغيرها من الغزوات والمعارك الإسلامية وأعظم المراثي مراثي الشعراء لرسول الله ﷺ ، ومراثيه كثيرة ، منها رثاء حسان ابن ثابت ﷺ في ديوانه يقول فيها :

بطيبــة رسمٌ للرســول ومعـــهـدٌ منيــرٌ وقـد تعفــر الرسومُ وتُهْمَدُ
ولا تمحـي الآياتُ منْ دارِ حُرْمـــة بهـا منبـرُ الهـادي الذي كـان يَصْعَدُ
وواضحُ آيـات وباقـي مــعـــالمَ وربعٌ لـه فـيــه مُصَلَّى ومَسْجــدُ
به حـجـراتٌ كـانَ يَنْزلُ وسطهـا منَ الله نـــورٌ يُسْتَضاءُ ويُوقَدُ
مَعَالمُ لـمْ تُطمَسْ عَلَى العَهْدِ آيُهــا أتاها البـلى فـالآيُ فـيـهـا تَجدَّدُ
عُرفت بهـا رَسْمُ الـرسـول وعـهـدُه وقَبْرٌ بـــه دَارَه فـي الـتُرْبِ مُلْحِد

== لابن كثير ٤/٢٠٤ .

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/١٦٢ ، البداية والنهاية : ابن كثير ٣/١١٧ ، نسبها ابن اسحاق لابن رواحة ، ونسبها ابن هشام لكعب بن مالك ﷺ ، لكن القصيدة أقرب إلى شعر ابن رواحة وهو ما عليه الرأي الراجح ، ومهما كان الرأي فالقصيدة من الشعر الإسلامي .

إلى قوله :

لقد غيَّبوا حلماً وعلماً ورحمةً ... عَشيَّةَ علَّوهُ الثَّرَى لا يُوسَّد
يبكون مَنْ تبكي السماءُ لموْته ... ومَنْ قدْ بكته الأرْضُ فالناسُ أُلمدوا
وهَلْ عدَلَتْ يوماً رزيَّةُ هالك ... رزيّة يوم ماتَ فيه مُحمَد
تَقَطَّع فيه مَنْزِلُ الوحْيِ عنْهُمُ ... وقَدْ كان ذا نور يفورُ ويُنْجد
إمامٌ لَهُم يَهْديهم الحقَّ جاهداً ... مُعَلِّمُ صدْق وإنْ يُطيعُوه يَسْعدوا
عفوٌ عن الزّلات يَقْبلُ عُذْرَهم ... وإنْ يُحْسنُوا فاللهُ بالخير أجْود
عزيزٌ عليه أن يَحيدُوا عَنِ الهُدَى ... حريصٌ عَلَى أنْ يَسْتَقيموا ويَهْتَدوا
عَطُوفٌ عليهم لا يُثْني جَنَاحَه ... إلى كَنَف يَحْنُوا عليهم ويمْهدوا
وما فقدَ الماضون مِثْلَ محمد ... ولا مثْلَهُ حتَّى القيامة يُفْقَدُ
أعفَى وأوْفي ذمةً بعد ذمةٍ ... وأقْرَبُ منه سائلاً لا يُنْكدُ
أقولُ ولا يَكْفي لِقَوْلي عاتبٌ ... من الناس إلا عازبُ العقْل مُبْعَد
ولَيْس هَوائي نازعاً عنْ ثنائه ... لعلِّي به في جَنَّةِ الخُلْدِ أخْلد

وقد تكون القصيدة في رثاء شهداء غزوة معينة مثل قول حسان بن ثابت في رثاء شهداء « بدر » الكبرى في قصيدة مطلعها :

ألاَ لقوم هَلْ لما حُمَّ دافعُ ؟ ... وَهَلْ مَضَى من صالحِ العَيْش راجع
صبابةُ وَجْد ذكَّرَتْني أحبَّةً ... وقتْلى مَضوا فيهم نقيعٌ وراقع
وسعدٌ فأضْحوا في الجِنان وأوْحَشَتْ ... منازلُهم والأرضُ منها بلاقع
وَفَوا يومَ « بَدْر » للرسول وقومهم ... ظلاَلَ المَنَايا والسُّيوفُ اللوامع
دعَا فأجَابوه بِحَقٍّ كلُّهم ... مُطيعٌ له في كلِّ أمْرٍ وسَامِع

إلى آخر القصيدة في ديوانه .

وقد يكون الرثاء لشهيد من الشهداء مثل قصيدة عبد الله بن رواحة في رثاء حمزة بن عبد المطلب ﷺ عم الرسول ﷺ ، وهي موضوع الدراسة والتحليل ، ويتميز شعر الرثاء في عصر صدر الإسلام بأن القصيدة فيه تقوم على غرض واحد ؛ فيتحقق فيها الوحدة الموضوعية ، وهي سمة عامة في الرثاء غالبا .

القيم الخلقية في خطاب رثاء رواحة لحمزة ﷺ : وهي قيم نابعة من أخلاق الإسلام ، ومتأثرة بالقرآن الكريم والحديث والشريف ، حتى لو وردت بعض هذه المناقب في الرثاء الجاهلي ؛ فهي مناقب إسلامية ، لأن الإسلام جاء فأقرها ؛ فأصبحت قيما إسلامية ، وخلقا قرآنيا منها :

١ ـ لا بأس بالبكاء على الميت ، أو الحزن عليه بكاء مجردا من دعوى الجاهلية بكلمات أو عبارات أو صنيع يغضب الله عز وجل ، لما فيها من اعتراض على الله سبحانه في حكمه وتدبيره ، وعدم الرضا بقضاء الله وقدره ، والجزع الطاغي لمصيبة الموت وعدم الصبر عليها ، وقد حث الإسلام على الرضا بقضاء الله وقدره ، وعلى الصبر إذا حان الأجل فلا راد لقضائه ، فقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ۝ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ۝ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ۝ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ۝ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ البقرة : ١٥٣ - ١٥٧ ، وفي الحديث الشريف حين بكى النبي ﷺ على موت ابنه إبراهيم ، قال عبد الرحمن بن عوف : حتى أنت يا رسول الله ؛ فقال النبي ﷺ : « إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، إنها رحمة يا ابن عوف » ، وقد نهى النبي ﷺ عن الجزع الشديد ودعوى الجاهلية ولطم الخدود وشق الجيوب ، فأنكر على امرأة ذلك قائلا لها : إنما الصبر عند الصدمة الأولى . يقول عبد الله بن رواحة ﷺ :

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

ويقول كعب بن مالك في رثاء حمزة ﷺ أيضا [1] :

ولقد هَدَدْتُ لفقد حمزة هدةً ... ظلّت بناتُ الجوف منها تَرْعَدُ
ولو أنَّه فُجِعَتْ حِراءُ بمثله ... لرأيْت راسي صخرها يَتَبدَّد

٢ ـ الاعتزاز بالشهداء وبشجاعتهم في الدفاع عن الإسلام والجهاد في

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٣/١٥٧ .

سبيله ، فالشهداء لهم أعلى المنازل عند الله عز وجل ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون وسيد الشهداء هو حمزة رضي الله عنه أعز الله به الإسلام ، قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ۝ فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۝ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ۝ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ آل عمران : ١٦٩ - ١٧٢ ، قال شاعرنا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

عَلَى أسد الإلهِ غَداةَ قالوا ... أحمزةُ ذاكُم الرجلُ القتيلُ
أُصيبُ المسلمونَ به جميعاً ... هناكَ وقدْ أُصيبَ به الرسول
أبا يَعْلى لك الأركانُ هدَّت ... وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلامُ ربِّكَ في جنانٍ ... مُخَالطها نعيم لا يزول

ويقول في ذلك أيضا كعب بن مالك رضي الله عنه :

وأتى الجنة معلما في أسرة ... نصروا النبي ومنهم المستشهد
شتَّان منْ هُوَ في جهنَّم ثاويا ... ابداً وَمَنْ هو في الجِنَانِ مُخَلَّدُ

٣ - من القيم الإسلامية أن يواسى أهل الميت ، وأن يحثوا على الصبر والسلوان ، وأن تخفف عليهم مصيبة الموت بذكر مآثر الميت ، والثناء على محاسنه ، في مشاركة وجدانية بين المسلمين أوجبها عليهم الإسلام في وقت المحن والمصائب ووقوع الكوارث ، قال الله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ۝ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ الحديد : ٢٢ - ٢٣ ، وجاء في الحديث الشريف : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » ، يقول ابن رواحة رضي الله عنه مواسيا الرسول صلى الله عليه وسلم :

أيا هاشم الأخيار صَبْراً ... فكل فعالكم حَسَنٌ جميل
رسولُ الله مُصْطبرٌ كريمٌ ... بأمر الله يَنْطقُ إذْ يَقُول

ألاَ مِنْ مُبلِّغٍ عَنِّي لُؤَيّاً ... فبعدَ اليومِ دائلةٌ تَدُول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا ... وقائعنَا بهـا تُشْفي الغليل

ويقول كعب بن مالك ﷺ مواسيا الرسول ﷺ في استشهاد حمزة ﷺ :

قَرْمٌ تمكّن في ذؤابة هاشم ... حَيْثُ النُّبوة والنَّدَى والسُّؤدد
والعاقرُ القوم الجلادُ إذَا غدتْ ... ريحٌ يكادُ الماءُ فيها يَجْمُدُ
والتاركُ القرنَ الكميَّ مجدّاً لا ... يومَ الكريهة والقَنَا يَتَقَصَّد
وتراهُ يَرْفُلُ في الحديد كأنَّه ... ذُو لِبْدَةٍ شَثْنِ البَرَاثِن أرْبَد

٤ ـ أن يفتخر المسلمون بالنصر على الأعداء ، وأن يعتزوا بذلك في شموخ وترفع ؛ لأن العزة لا تكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ المنافقون : ٨ ، وأن يعتز المسلمون بقوتهم في القتال ، وبالنصر على أعدائهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ الأنفال : ٦٠ ، يقول عبد الله بن رواحة ﷺ في الاعتزاز بقوة المسلمين والافتخار بشجاعتهم وجَنْدَلَة أعدائهم :

نَسيتُمْ ضَرْبَنَا بِقَليب « بدْرٍ » ... غداةَ أتاكمُ الموتُ العجيل
غداة ثوى أبو جهلٍ صريعاً ... عليه الطيرُ حائمةٌ تجول
وعتبةٌ وابنُه خرّاً جميعاً ... وشيبةٌ عَضَّهُ السَّيْفُ الصَّقيل
وقد تركْنَا أُميَّةَ مُجْلَعِباً ... وفي حيزُومه لدنٌ نبيل
وهَا هُم بني ربيعة سائلوها ... ففي أسْيافنا منها فلول
ألاَ يا هندُ فابكي لا تَملِّي ... فأنت الوالهُ العَبْري الهَبُول
ألاَ يا هندُ لا تُبْدي شَماتا ... بحمزةَ أنَّ عِزّكمُ ذليل

ويعتز كعب بن مالك ﷺ أيضا بالنصر ، ويفتخر به في رثاء حمزة ﷺ فيقول :

ولقدْ إخَالُ بذلك هنداً بشرت | لتميت داخل غُصَّةً لا تبرد
مِمَّا صبَّحْنا بالعَقَنْقَلِ قَوْمَهَا | يوماً تغيبُ فيه عنها الأسْعد
وببدر إذ يَرُدُّ وجوهَهم | جبريلُ تحْتَ لوائنا ومحمدُ
حتى رأيتَ لدَى النبي سَراتِهم | قسمين : يقتل من نشاء ويُطرد
فأقام بالعَطنِ المُعَطَّنِ منهم | سبعون : عتبةُ منهم والأسود
وابن المغيرة قد ضربنا ضربةً | فوق الوَريدِ لها رشَاشُ مزبد
وأمية الجمحي قُوِّمَ مَيْلُهُ | عَضْبٌ بأيدي المؤمنين مهند
فأتاك فَلٌّ المشركين كأنهم | والخَيْلَ تُثْفِنُهم نعامٌ شُرَّدُ

القيم الفنية في خطاب القصيدة للشاعر عبد الله بن رواحة ﷺ : تأثر الرثاء في أسلوبه وتصويره الأدبي بالإسلام وبالقرآن الكريم كما تأثر في قيمه الخلقية ، فترى فيه الألفاظ العذبة السهلة الرقيقة ، لا الغريبة الحوشية كما في قصيدة عبد الله بن رواحة ﷺ ، إلا قليلا كما في قصيدة كعب ابن مالك ﷺ في مرثيته لحمزة ﷺ التي عرضناها من خلال القيم الخلقية مثل : « بنات الجوف - والعاقر القوم الجلاد - مجدلا - يرفل - شثن - البراثن - أربد - العقنقل » وغيرها .

وكذلك الأمر في أسلوب وبناء الجملة ، يسيل رقة وسلاسة ووضوحا تأثرا بالقرآن الكريم كما عند عبد الله بن رواحة ﷺ مثل : « على أسد الإله - غداة قالوا - أصيب المسلمون به - وأنت الماجد البر الوصول - عليك سلام ربك في جنان - نعيم لا يزول - أيا هاشم الأخيار صبرا - فكل فعالكم حسن جميل - رسول الله مصطبر كريم - بأمر الله ينطق .. إلخ » ، والآيات التي تأثر بها الشاعر كثيرة ، منها قوله تعالى :

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ آل عمران : ١٤٢ ، ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين

صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ البقرة : ١٧٧ ، وقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ۝ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ الزمر : ٧٣ - ٧٤ ، وقوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ۝ إن هو إلا وحي يوحى ۝ علمه شديد القوى ﴾ النجم : ٣ - ٥ ، وغيرها .

وكذلك الأسلوب في قصيدة كعب بن مالك ﷺ ، لكنه يحتاج إلى تأمل وطول نظر في قليل من عباراته مثل قوله : « ولقد إخال بذلك هندا بشرت - مما صبحنا بالعقنقل قومها - ذو لبدة شثن البراثن أربد » ، وهو أيضا متأثر بالقرآن الكريم في قصيدته مثل : « نصروا النبي ومنهم المستشهد » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويقوم الأشهاد ﴾ غافر : ٥١ ، وقوله : « بشرت لتميت داخل غصة لا تبرد » بقوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ، وكذلك قوله : « وشتان من هو في جهنم ثاويا أبدا ومن هو في الجنان مخلد » من قوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ۝ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ آل عمران : ١٠٦ - ١٠٧ وغيرها من الآيات الكريمات .

وفي التصوير الأدبي تجد المجاز المرسل في « بكت عيني » ، والاستعارة في قوله : « وما يغني البكاء ولا العويل » ، والتشبيه في قوله : « أسد الإله » ، ثم الاستفهام في صورة تدل على التقرير تؤازرها صورتان ؛ إحداهما : تدل على التعظيم النابع من اسم الإشارة ، وثانيهما : تدل على التعظيم أيضا النابع من التعريف بـ « أل » في قوله : « أحمزة ذلك الرجل القتيل » فهو الرجل لا غيره وهو من أعظم الشهداء عند الله عز وجل ، ثم الصورة الأدبية النابعة من صيغة البناء للمجهول للدلالة على هوان الأعداء الذين أصابوا حمزة ﷺ وحقارتهم لغدرهم ، فليست الإصابة عن طريق المبارزة أو المواجهة والمصاولة ، بل عن طريق التخفي والغدر والمخاتلة من عبد دنيء مأجور خسيس ، لذلك نصحه الرسول ﷺ أن يغرب عن وجهه بعد إسلامه ، وذلك في قوله : « أصيب المسلمون -

أصيب به الرسول ».

والاستعارة بالكناية في قوله : « الأركان هدت » ، ثم الصورة الأدبية النابعة من أسلوب القصر ؛ فهو لا يثبت هذه الصفات فحسب ، بل يقررها ويؤكدها وينفيها عمن سواه ، ويقصرها عليه وحده ، وذلك في القصر بالاسمية في قوله : « وأنت الماجد البر الوَصول » ، ثم ما يفيده التعريف بـ « أل » من التعظيم في الصفات الثلاثة بالإضافة إلى ما تفيده صيغة المبالغة من التعظيم والتكثير في قوله « الوَصول » كثير صلة الرحم وعمل الخير وفعل الصالحات والاتصال بالله عز وجل في قوله وعمله ، وكذلك القصر في تقديم الخبر على المبتدأ في قوله : « عليك سلام ربك في جنانه » ، ثم تأكيد النعيم بقوله « لا يزول » ، ثم الصورة الأدبية النابعة من التحضيض في قوله : « ألا يا هاشم الأخيار صبرا » ، فهي تدل على غير ذلك وهو الالتماس والدعاء بالصبر والسلوان وغيرها ، مما تنبني عليه هذه الصورة الرائعة ، وليس داخلا فيها معنى التحضيض وهو المعنى الوضعي لها في اللغة ؛ لأنه لا يليق مع مقام النبي ﷺ المشرع والقدوة الحسنة ؛ فلا ينبغي أن يحثه غيره ويدفعه إلى ذلك على سبيل التحضيض وهذا على العكس من « ألا » في مقام يتناسب معها المعنى الوضعي في قوله : « ألا من مبلغ عني لؤيا ».

وفي قوله : « فبعد اليوم دائلة تدول » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ الآية السابقة ، وقوله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ الأنفال : ١٠ ، وقوله تعالى : ﴿ إن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ الأنفال : ٦٢ ، وكذلك قتلى « بدر » من المشركين وهم الذين يتساقطون واحداً بعد الآخر سبعين قتيلا ، منهم أبو جهل والوليد بن عتبة وشيبة وأمية الجمحي وغيرهم ، اقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف في قوله تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ۝ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ الأنفال : ١٢ - ١٨

وقوله تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ الأنفال : ٤٨ ، وغيرها وذلك في قول ابن رواحة ﷺ :

نسيتم ضربنا بقليب بدر غداة أتاكم الموت العجيل

وهكذا إلى نهاية القصيدة ، وانظر إلى قوله : « أتاكم الموت » فهو من قبل الله عز وجل وجنده ، لا منسوبا إلى المجاهدين ، لأن النصر من عند الله عز وجل : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ .

وأما الصور الأدبية في مرثية ابن مالك لحمزة ﷺ ، منها ما هو مستمد من الحقيقة ومن الخيال ؛ فتأمل : المطلع كيف انتقى الشاعر ألفاظا تصور هول المصيبة وأثر الكارثة العنيف ، الذي هدَّ ودمّر كيان النفس تدميرا ، وسلكها في نظم وأسلوب أشد تدميرا وذلك في قوله : « هددت هدة - لفقد - بنات الجوف - ترعد » ، ثم تأمل بنائها اللفظي ، فقد فك الادغام في « هد » باسناده إلى « تاء » الفاعل ليقع التدمير عليه وحده ، ثم اشتق منها « مصدراً » مفعولا مطلقا ؛ ليؤكد ذلك على سبيل الإطلاق لا التقييد ؛ فليس الهدد مقيداً بقيد ما ، بل يشمل كل ما يتصوره العقل من العموم والإطلاق ، حتى تدمرت منه بنات الجوف ، التي تنتج وتثمر ؛ فأصبحت عقيمة لا تنتج شيئا ، يصاحب هذا كله الرعد المزعج ، والبرق المخيف على سبيل التجدد والاستمرار ؛ لدلالة المضارع على ذلك مع التأكيد الحاصل بلفظ « لقد » واللام في « لفقده » ، والتجدد والاستمرار في « ظلت » وهذه الصور الأدبية كلها مستمدة من حقيقة الألفاظ وصيغها ، وبنائها النحوي والفني .

وتآزرت معها صور خيالية ، منها تجسيم الحزن الشديد بالهدد والتدمير وهو أمر محس كتدمير المبنى والموقع الحربي ، والاستعارة في « بنات الجوف » وهي المشاعر والعواطف والخواطر والوجدان ، حيث شبهها بالبنات البكر ، لما تحوي من قوة وصدق وإنجاب على سبيل الاستعارة التصريحية ، وفيها أيضا تشخيص للمعاني المجردة ؛ لتتلاحم صورتان خياليتان في آن واحد ، وهناك صورة رابعة في قوله : « ترعد » وما لها من أثر جمالي ساحر ، حيث ينقل واقعا عنيفا

حين تغضب الطبيعة فتحزن لحزنه ، وهكذا نجد كثيرا من الصور الأدبية المتنوعة مثل الاستعارة المكنية في قوله « فجعت حراء » و« رأسي صخرها تبدد » و« في ذؤابة هاشم » ، ثم التقسيم الموسيقي في قوله « النبوة والندى والسؤدد » و« العاقر القوم الجلاد » و« والتارك القرن الكمي مجدّلا » ، والاستعارة في قوله « عدت ريح » و« الماء يجمد » و« القنا يتقصد » و« يرفل في الحديد » ، والتشبيه في قوله « كأنه ذو لبدة » و« شثن البراثن أربد » مع الترشيح لها .

والاستعارة في قوله « ورد الحمام » و« فطاب المورد » وفي « أتى المنية » و« هنذا بشرت » و« غصة لا تبرد » ، ثم التشخيص القوي الثائر في « بئر بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائها ومحمد » ، فالبئر قائد معركة يحمل لواء النصر ثم التقسيم الموسيقي في قوله « قسمين : يقتل من نشاء ، ويطرد » وفي قوله « سبعون عتبة منهم والأسود ، وابن المغيرة ، والأسود ، وأمية الجمحي » والتجسيم في قوله « ضربة فوق الوريد لها رشاش مزبد » ، والاستعارة والكناية والتشبيه في البيت : « فأتاك فلّ المشركين ... إلخ » ، ثم الإيقاع الموسيقي في المقابلة الساحرة بين المعاني والألفاظ ، وما فيها من جناس وطباق وتوازن وازدواج فقد جمعت أوتاراً متنوعة ؛ لتعزف لحنا خالدا ومخلدا ، لتزف الكافر إلى جهنم مخلدا فيها ، والمؤمن إلى الجنات خالدا فيها ، وذلك في آخر بيت من القصيدة وإذا تأملت هذه الصور الخيالية لوجدتها تتآزر معها صور كثيرة مستمدة من الحقيقة على نحو ما فصلناه في مطلع القصيدة ، وهذه هي روافد التصوير الأدبي .

وأما عناصر التصوير الأدبي في القصيدتين : فلا يخلو بيت من الحركة والألوان والأصوات والحجوم والأشكال والطعوم والروائح ؛ فتجد الحركة في مرثية ابن رواحة ﷺ ، في حركة العين وهي تبكي ؛ فالعين إنسان يتحرك ويبكي ، والتجدد والاستمرار في المضارع « يغني » ، والحركة في صيغة المفاعلة « مخالطها » ، والحركة في معنى « الاصطبار » وصيغتها التي تدل على الافتعال وفيه حركة ، والفعل المضارع « ينطق » و« يشفى » و« دائلة تدول » وفي « عليها الطير حائمة تجول » وهكذا .

والألوان حسية ومعنوية ، فالعين محمرة ، وهو لون محس ، والعين حزينة وهي لون معنوي ، والبكاء لونه قاتم ، ودموعه ممزوجة بالدم ، ثم استمع إلى

الصوت في البكاء والعويل ، وانظر إلى اللون في أسد الإله وحمزة والنبيل والشهيد ، إنها ألوان نبشرة مفرحة ، تفوح بريحان الجنة ونعيمها ، وفيها أيضا الرائحة الطيبة ، وطعم الجنة والشهادة ممتع وحلو ، وكذلك الأمر في « الماجد البر الوصول » فيها الألوان السارة ، والروائح الفواحة الطيبة ، والطعوم الحلوة اللذيذة ثم استمع إلى الأصوات في « هدت هداً » وفي « سلام ربك » وفي النطق والتبليغ ، ثم انظر إلى الألوان المظلمة الداكنة في صرعى الكفر ورائحته الخبيثة وفي جثة أبي جهل وعتبة وابنه وشيبة وأمية ، وفي غدر هند وعبدها وشماتتها وهكذا .

ثم انظر إلى شكل المرثية يتسع فيه الحزن ؛ ليشمل الرسول ﷺ ومن معه من الصحابة ﷺ ، بل المسلمين كلهم قد اهتزوا جميعا لهول هذه الفجيعة الأليمة ، وحجمها أشد عنفا ، وأثقل تدميراً للقلوب ، فلشدة وقعها وفظاعة جرمها ، وخسة الغدر فيها ، لجأ الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ إلى التذرع بالاصطبار ، والافتخار على المشركين بما حدث لهم في يوم « بدر » الكبرى من قتل زعماء مكة وسبعين من صناديدها .

وأما مرثية كعب بن مالك ﷺ فالحركة ظاهرة في « ظلت - ترعد - يتبدد - يتقصد - يرفل - والريح .. إلخ » ، والألوان الحسية في «الهد والرعد والصخر والكوم » وغيرها ، والمعنوية في « الفقد - بنات الجوف - والنبوة - والندى - والسؤدد - والكريهة » وغيرها ، والأصوات في « هددت هدا - والرعد - والفجيعة - وصوت الرياح والقنا - ويرفل في الحديد » وغيرها ، والروائح والطعوم في قوله « الفجيعة - الفقد - الهد - الكريهة - النبوة - الندى - السؤدد - عم النبي محمد وصفيه - ورد الحمام - نصروا النبي - المستشهد - لواء محمد وجبريل - العطن المعطن - عتبة - شيبة - الأسود - وابن المغيرة - والجمحي » ، ثم رائحة جهنم الخبيث والمنتن ، ورائحة الجنة الطيب الفواح ، وطعم جهنم المرّ والعلقم والصديد وطعم الجنة اللذيذ والممتع .

وأما شكل المرثية فقد اشتمل وقعها الشديد على الدنيا وما فيها من إنسان وطبيعة وجبال وحيوان وصخور وتلال وسهول ووديان ، ثم كان حجم الفقد أشد عنفا ، وأثقل تدميرا ، وفظاعة الجرم والغدر أدمت النفوس وأعقمت الفتيات

البكارى ، وليس هناك أشد عنفا وثقلا على النفس من حجم جهنم في منازلها الثمانية ، ولا أروع جمالا ولا أعظم إقامة ونعيما من منازل الجنة السبعة مع الفردوس الأعلى والفضيلة للنبي ﷺ وأصحابه ﷺ .

وأما المعجم الشعري في المرثيتين : تجد فيها كثيرا من الألفاظ والأساليب والصور ، فأصبح لها مصطلحا إسلاميا جديدا مثل القتل في الدفاع عن الإسلام فأضحى شهادة والقتيل شهيداً ، وهكذا مصطلحات « الرسول ـ والاصطبار ـ أسد الإله ـ الماجد ـ البر الوصول ـ عليك سلام ربك في الجنان ونعيمها ، وجهنم وعذابها ـ ونصرة النبي ـ ذؤابة هاشم ـ هاشم الأخيار ـ الفعل الحسن الجميل ـ النبوة ـ الندى ـ السؤدد ـ رسول الله ـ مصطبر كريم ـ ينطق بالوحي ـ أبو جهل ـ التبشير بالعذاب ـ بدر ـ جبريل ـ لواء محمد ـ المؤمنون ـ الخلود في جهنم ـ الخلود في الجنة » ، فكل هذه الكلمات والأساليب والصور أصبح لها مصطلحا لغويا وأدبيا وخلقيا جديدا استمده الشاعر من القرآن الكريم والسنة الشريفة وشريعة الإسلام ، فلم يكن في معجم العربية قبل الإسلام مصطلح الشهادة والشهيد ، ولا الجنة والنار ، ولا الرسول والنبوة ، ولا ما توحي به « بدر » و« القليب » و« أبو جهل » ، ثم مصطلحات جبريل ، والمؤمنين والتبشير بالعذاب لقوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وغيرها ، مما يعد معجما أدبيا في فن الرثاء في عصر صدر الإسلام وفي الأدب الإسلامي وكذلك في بقية الأغراض الأخرى التي مرت كالمدح والاعتذار والحب الإلهي والمحمدي ؛ فإذا ما تأملنا ذلك استخرجنا لكل غرض معجما شعريا أدبيا إسلاميا .

* * *

الهجـاء

الهجاء غرض من الأغراض الأدبيـة منذ نشأة الشعر ، اعـتمد الشاعـر فيه على السباب وتصوير الرذائل ، والعـادات الذميمة ، والأفعال القبيـحة ، والتصوير اللاذع المكشـوف ، الذي يحدث ألما شديدا بالمهـجو ؛ فـيـذكر عـوراته وعيـوبه وسلوكه المذموم ، حسـب العادات والتقاليد والأعراف الجاهليـة ، مما يجعله موطنا للسخرية والازدراء والاسـتهزاء والاحتقـار ، فلا تقوم له قائمة في عـرف المجتمع الذي ينتمي إليه .

لكن الإسلام أنكر هـذا الهجاء القـبيح والسبـاب المهين ، الذي يسيء إلى الإنسانية ومبادئها السامية ، فاتخذ له شكلا ومضمونا آخرين ، أما الشكل فقد نفر من الصور القبيحـة والمكشوفة والمفضوحة ، وألفاظ السبـاب والقبح بغير وجه حق وأما من حيـث المضمون ، فـقد اعـتمد على نفي الصـفات الفاضلـة وسلب القيم الخلقيـة الساميـة ، ثم الوصف بالكفر والمروق من الدين ، أو الفـسوق والعصـيان وينفر منها ، ليشيد بنقيض هذه الصفـات الذميمة المنكرة ، ويصور القـيم الخلقية والأخلاق الإسـلاميـة ، ويحث على التمـسك بها ، والتـحلي والتخلق بهـا قولا وسلوكا .

لذلك يتخذ الشـاعر في هجائه سلاحين : الأول هو التحقـير من الصفات الذميمة والتنفير من الأفعال والتصرفات السيئة ، فيهدر من يتصف بها ، ويهبط به إلى مواطن التـحقيـر والمهانة والسخـرية ، والثاني تنفيـر المتلقي من السلوك المشين والفعل القبيح والصفات الذميمة ، ويحثه على أن يتخلق بنقيضها من القيم النبيلة والأخلاق السـامية وكـأنه يستخـدم يديه معـا في وقت واحد ، إحداهمـا : تدمر القبيح والذمـيم وتنفر منه ، وثانيهمـا : تشيد بالقيم السـامية وتحث على الأخلاق الكريمة ، ليبني الشاعر بذلك مجتمعا إسلامـيا صالحا وفاضلا ، وجاداً قويا يستمد قيمه من الحضارة الإسلامية في كل عصر .

هذا هو الهجـاء في الأدب الإسلامي ، فـقد حث الرسول ﷺ الشـعراء على الدفـاع عن الإسلام وقيـمه ، وعن المسلـمين وكرامتـهم وعزتهم ، لـلدفاع بلسانهـم كما يزودون بسلاحهـم ، وكلاهمـا جهـاد فـي سبـيل الله عـز وجـل

فقال ﷺ : « ما يمنع القوم الذين دافعوا عن رسول الله بأسلحتهم أن يدافعوا عنه بألسنتهم » ، وحينما وجه الرسول حسان بن ثابت إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليقفه على علم أنساب العرب خوفا من الخلط فيها ، والتردي في مهاويها خلال الهجاء فقال حسان للرسول ﷺ : « سأسلك منهم يا رسول الله كما أسل الشعرة من العجين » ، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه يهجو أبا سفيان بن أمية (١) :

ألا أبْلِغْ أبا سُفيــــانَ عنِّي ... فأنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ
بأنَّ سيــوفنا تركـتْـكَ عَبْداً ... وعبـدُ الدار سَادَتُهـا الإمـاء
هَجَوْتَ محـمـداً فأجبْتُ عَنْه ... وعندَ الله في ذاكَ الجـزاء
أتهْجُوه ولَسْتَ لَهُ بكُفْء ... فَشَرُّكُـمـا لخيـركـمـا الفداء
فَمَنْ يَهْجُو رسـولَ الله منكم ... ويَمْدَحُه ويَنْصُره سـواء
فَإنَّ أبـي ووالـدهُ وعِرْضـي ... لِعِرْضِ محـمـدٍ منكم وَقاء

ومن الهجاء الذي استل منه حسان رضي الله عنه رسول الله ﷺ كما تسل الشعرة من العجين ، حين رد على هجاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب القرشي للرسول ﷺ ، فهجاه حسان بقصيدة حطت من منزلته بين المشركين في مكة يقول حسان رضي الله عنه (٢) :

لقـد علم الأقـوام أن ابن هـاشم ... هو الغصن والأفنان لا الواحد الوغد
وما لَكَ منهم محـتـد يعـرفـونه ... فـدونَك فـالصقْ كـمـا لَصقَ القِرْدُ
وإنَّ سَنَامَ المجْد مِنْ آل هـاشـم ... بَنُو بِنْتِ مخـزومٍ ووالـدُك العَبْدُ
ومـا ولدت أمَّاه زهـرةَ منكـم ... كـريمـاً ولَم يقـرب عجـائزك المجْد
ولسْتَ كـعـبـاس ولا كـابْنِ أُمِّه ... ولـكـنْ هَجـينٌ لـيْس يُورَى لـه زنْد
وأنْتَ زَنيـمٌ نِيطَ في آل هـاشـم ... كمـا نيط خلف الرَّاكبِ القَدحِ الفرد
وإنَّ امْرأ كـانت سـميـةُ أُمُّهُ ... وسـمـراء مخلـوب إذا بلغ الجـهـد

فالشاعر يطعن في نسبه ؛ لأن والده عبد مملوك ، ووالدته أم ولد ، وهو زنيم يلتحق بقوم هو منهم براء ، ودنيء لئيم مجرد من الفضائل ، ومتصف

---

(١) ديوان حسان بن ثابت : ص ٧ .
(٢) ديوان حسان بن ثابت : ص ١١٨ .

بالرذائل ، قبيح السلوك ، يتقاصر عن العزة والمجد ؛ فهو بلا هيبة ، ولا وزن أو قيمة ، مهمل لا ينظر إليه أحد ، وهكذا حتى أسقطه هجائه بين قومه من المشركين وانحطت منزلته عندهم وهو منهم وبينهم .

ارتبط الهجاء في عصر صدر الإسلام بفن جديد من فنون الأدب الإسلامي واتسعت مساحته ، وهو فن المناقضات الشعرية ، فتنوعت حقوله : من الهجرة وغزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، وجلاء اليهود عن المدينة المنورة ، ومناقضات غزوة الخندق والأحزاب ، وفي صلح الحديبية ، وبعد خيبر وفتح مكة (١) .

وفن النقائض يقوم على الهجاء ، وهو أن ينقض الشاعر الثاني قصيدة الشاعر الأول مع الاتفاق في الغرض والمعاني والوزن والبحر والقافية ؛ لينقض ما فيها إنصافًا لنفسه ، وذما لنظيره المعارَض ، وتحقيرا من شأنه وحطا من منزلته وقدره ، ونقضا لمثالبه وادعاءاته ؛ لينشد من ورائها القيم النبيلة ، ويسمو بالأخلاق الإسلامية ، التي تبني ولا تهدم ، وتعلي ولا تدمر ، وذلك مثل النقيضة التي دارت بين ضرار بن الخطاب قبل إسلامه حين افتخر بقوة جيش المشركين في غزوة الأحزاب وبين كعب بن مالك ﷺ ، يقول ضرار بن الخطاب :

ومشفقةٌ تظنُ بنا الظنُونا ... وقد قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونا
كأن زَهَاءَها أُحُدٌ إذا ما ... بَدَتْ أركانُه للنَّاظرينا
ترى الأبْدانَ فيها مُسْبغَات ... على الأبطال واليَلَب الحصينا
وجُرْداً كالقداح مُسَوَّمَاتٍ ... نَؤُمُ بها الغُوَاةَ الخاطئينا
كأَنَّهُمُوا إذا صَالوا وصُلْناً ... بباب الخَنْدَقَين مُصافحونا
أُناسٌ لا نرى فيهم رشيداً ... وقد قالوا : أَلَسْنَا رَاشدينا
فأحْجَرْناهُم شهراً كريتاً ... وكُنَّا فوقَهم كالقاهرينا
نُراوِحُهم ونَغْدو كلَّ يوم ... علَيْهمْ في السِّلاحِ مُدَجَّجينا
بأيدينا صَوارمُ مُرْهَفَاتٌ ... نَقُدُّ بها المفارقَ والشُّئونا
كأنَّ وَمِيضَهُنَّ مُعَرِياتٍ ... إذا لاحَتْ بأيدي مُصْلتينا
وَميضُ عقيقةٍ لَمعَتْ بليلٍ ... ترى فيها العقائقَ مُسْتَبِينا

---

(١) النقائض في عهد البعثة المحمدية : الدكتور حسن الكبير ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

فلولا خَنْدَقٌ كـانوا لَدَيْهِ ... لَدَمَّرْنا عليهم أجْمعينا
ولكنْ حال دونهمو وكانوا ... بـه منْ خَوْفنا مُتَعَوِّذينا
فإنْ نَرْحَلْ فـإنَّا قد تركْنا ... لَدَى أبْياتكم سَعْداً رهينا
إذا جُنَّ الظلامُ سمعْتَ نَوْحي ... على سعـد يُرجِّعْنَ الحنينا
وسوف نزوركم عمّاً قريب ... كما زرنا كمُو متوازرينا
بجَمْعٍ مِنْ كنانةَ غيـرَ عُزْلٍ ... كأُسْدِ الغابة قدْ حَمَتِ العَرِينا (١)

فرد عليه كعب بن مالك ﷺ قائلا :

وسائلةٌ تُسائلُ ما لقينا ... وَلَوْ شَهِدَتْ راَتْنا صَابِرينا
صَبَرْنا لا نَرى لله عِدْلاً ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتوَكّلينا
وكـان لنا النبيُّ وزيرُ صِدْقٍ ... به نعْلو البَرِيَّة أجمعينا
نقاتلُ معشراً ظَلَموا وَعَقُّوا ... وكانوا بالعداوة مُرْصِدينا
نُعاجِلُهمْ إذا نهضُوا إليْنَا ... بضرْبٍ يُعْجِلُ المتسرعينا
ترانا في فَضَافِضَ سابغات ... كغُدْرانِ الملاَ مُتَسرْبلينا
وفي أيمانِنَا بيضٌ خِفَافٌ ... بها نَشْفِي مَرَاحَ الشاغبينا
بباب الخندقين كأنَّ أُسْداً ... شوابكهنَّ يَحْمينَ العَرِينا
فوارسُنا إذا بَكروا وراحُوا ... على الأعداء شُوساً مُعلمينا
لِنَنصُرُ أحمداً واللهَ حتى ... نكونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخلصينا
ويعلمُ أهلُ مكة حين ساروا ... وأحزابٌ أتَوْا مُتَحَزِّبينا
بأنَّ الله ليْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وأنَّ اللهَ مَوْلَى المؤمنينا
فإن تقتلوا سَعْداً سَفَاهاً ... فإنَّ اللهَ خيرُ القادرينا (٢)

---

(١) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس ، ينتهي نسبه إلى فهر القرشي ، ظل على شركه حتى أسلم ﷺ عام الفتح في السنة الثامنة من الهجرة ، وكان من شعراء مكة هو وعبد الله بن الزبعري ، ثم اشترك في صفوف المجاهدين حتى قتل باليمامة شهيدا ، وقيل أنه حضر فتح معركة المدائن بفلوس . السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٠/ ١ ، والبداية والنهاية ٣٤١/ ٣ ، وغيرهما .
المعلقي : العرندسة : الكتيبة من الجيش . اليلب : التروس . الجرد : القصير الشعر من الجياد . القلاح : السهام . مسومة : موجهة . حجرنا : حصرنا . المدجج : لابس السلاح ، مرهفات الشفرات والحد . الشنون : ما اجتمع في أعلى الرأس من الشعر . ومض : لمع . المصلت : السيف خارج الغمد . العقائق : السحب . مستبين : أسرى . متعوذين : محصنين .
(٢) هو سعد بن معاذ ﷺ ، قد أصيب بسهم جبان بن العرقة فعولج بالنار في غزوة الخندق ==

سَـــيُدْخلُه جناناً طيِّبَـــات   تكونُ مـــقـــامـــةً للصّالحــينا
كـــمـــا قَـــد ردكُـمْ فُلاً شَريداً   بـغَيْظكُمُو خَزَايَا خَائبــــينا
خَزَايـــا لـمْ تـــنـــالـــوا ثَمَّ خَيْراً   وكِدْتم أنْ تـــكـــونُوا دَامِريـــنـــا
بِرِيـــحٍ عَاصِفٍ هَبَّتْ عـــلـــيـــكـــم   فكـنْتُم تَحْتَهـــا مُتَكَمِّهــــينا (١)

بين القصيدتين في ميزان النقائض : اتفقت القصيدتان في مظاهر اجتمعت فيهما ، من أهمها :

١ ـ التزام بحر واحد وهو البحر « الوافر » ، وأوزانه ستة أوزان في البيت الواحد :

مفاعلتن مفاعلتن فعولن   مفاعلتن مفاعلتن فعولن

وقافية واحدة تنتهي بالنون المفتوحة ، يتبعها حرف لين ممتد وهو الألف وهي تتلاءم مع الصبر والثبات في المعارك ، وطول النفس والمتابعة المستمرة في مجالدة الأعداء ودوام الصراع حتى النصر .

وكذلك أوزان البحر تعبر عن دفقات متتابعة بتوقيعتين متتابعتين ، التوقيعة الأولى حركتان بعدهما سكون « مفا » ، والثانية : ثلاث حركات بعدها سكون « علتن » في دفقة أقوى من الأولى وأطول ، تتكرر مرتين في الشطر الواحد ، ثم يختم كل شطر بالوزن الثالث الذي يعتمد على توقيعتين ؛ الأولى : بطيئة حركتان فسكون « فعو » ، والثانية : أسرع التوقيعات كلها ، وهي حركة فسكون

== وحكمه الرسول ﷺ في بني قريظة ، ثم انفجر جرحه ، ومات شهيدا .

(١) هو كعب بن مالك ؓ الخزرجي ، ولد بيثرب وشهد بيعة العقبة ودخل معهم الإسلام حضر جميع الغزوات ما عدا بدر وتبوك ، كان أحد المتخلفين الثلاثة الذين تاب الله عليهم في سورة التوبة هو وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، أبوه شاعر ، وعمه قيس شاعر ، وابنه عبد الرحمن شاعر ، عمَّر طويلا ، وكف بصره ، وتوفي ما بين (٥٠ أو ٥٥هـ) ، وكان محدثا روى كثيراً من الأحاديث الشريفة ، وعالما ، وهو أحد شعراء الرسول ﷺ الثلاثة حسان وعبد الله بن رواحة ؓ ، وله ديوان شعر جمعه وحققه سامي العاني . الإصابة في تمييز الصحابة ٣٠٤/٨ .
معاني الكلمات : مرصدين : معدين للأمر عدته . فضافض : واسعة . سابغات : كاملات . متسربلين : لابسين . المراح : الحركة والنشاط . الشاغبين : الذين يثيرون العداوة . شوابك : شواغل . شوسا : متكبرين متغطرسين . معلمين : عليهم علامات يعرفون بها في القتال والحرب . فُلاً : المنهزمون . شريداً : طريداً . الدامرون : المدمَّرون الذين هلكوا . متكمهين : عميان لا يبصرون .

« لن » في نهاية كل شطر ، وهذه التوقيعات الخمسة الممتدة في كل شطر تتناسب مع الصبر في القتال والثبات وطول النفس ؛ لينتهي بتوقيعة سريعة تصور عملا حاسما سريعا كالحكم والنتيجة ، وهو ما يتناسب مع الانطلاقة الأخيرة الخاطفة فلا بد أن تكون سريعة وحاسمة : « لن » .

٢ ـ القصيدتان تتفقان في قيامهما على الدخول في النقيضة مباشرة بدون مقدمات طللية أو غزلية ، وبذلك تكون قد تمردت على منهج القصيدة في العصر الجاهلي ، وهي وإن تعددت فيها الموضوعات من هجاء ومدح وفخر ، لكنها جميعا تشترك في الغرض الأساسي من النقيضة وهو الهجاء ؛ لأن الشاعر حين يهجو خصمه ، يفتخر بنفسه وقومه ، ويمدح قومه وعشيرته ، وفي هذا الفخر والمدح نقض لمثالب الآخر وهجاء له في وقت واحد ، لذلك فهما داخلان في غرض النقيضة وهو الهجاء .

٣ ـ اتفاق « العروضة » في نهاية الشطر الأول مع « الضرب » في نهاية الشطر الثاني في توقيعاتهما وفي ميزانهما ، وبعض حروفهما ، وهو ما يسمى في علم البديع « الترصيع » كما في قصيدة ضرار بن الخطاب « الظنونا ـ طحونا » وفي قصيدة كعب بن مالك ﷺ « لقينا ـ صابرينا » ، وهذا يعطي توازنا واتفاقا بين العروضة والضرب في توحيد النغم والإيقاع في المطلع على مثال قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ .

٤ ـ اعتمد كل من الشاعرين على الوحدة الموضوعية في قصيدته وهو الهجاء ، حتى تحول المدح والفخر فيهما بطريق السلب إلى أشد أنواع الهجاء فأصبح امتداداً له ، لذلك الحد الموضوع في القصيدة ، وإن كانت تقوم على وحدة البيت بلا ترتيب بين أفكار القصيدة ، بحيث لو تقدم بيت على آخر فإنه لا يضر شيئا في ترتيب الأفكار كالشأن في القصيدة العربية القديمة .

٥ ـ تعتمد القصيدتان على وصف الجيش ؛ جيش الإسلام وجيش الكفار ومدى قدرة الجيش على الصبر والثبات ومحاولة الانتصار على الآخر ، حتى كان النصر الأعظم من قبل الله عز وجل ، فأرسل على جيش الكفار العواصف فانكفأت قدورهم ، وانخلعت خيامهم ، ولم يغن عددهم ولا عتادهم شيئا وكان الإيمان في جيش الإسلام هو السلاح الحقيقي للنصر ، لا العدد ولا العتاد

لأن الإيمان لله عز وجل ، والنصر من عند الله وحده ، قال تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ، أي : إن تنصروه على أنفسكم بالإيمان له تستحقوا النصر الذي يختص به وحده سبحانه وتعالى ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ .

٦ ـ اشتركت القصيدتان في كثير من المعاني والأفكار ، حتى تقارب المعجم الشعري للشاعرين ، وإن انفرد كعب بن مالك ﷺ بمعجمه الإسلامي في قصيدته ، وهو ما سنوضحه بعد ذلك .

فالدروع سابغة في الجيشين ؛ لكنها عند الكفار صارمة مرهفة ، وعند المسلمين بيضا خفيفة وبيضاء لامعة ، وجنود الجيش كالأسود الرابضة في العرين شجاعة وإقداما ، وكذلك السهام والسيوف وتشبيهاتها بالبرق الخاطف ، ويتنقل كل من الشاعرين بين الهجاء والفخر والمدح .

وأما مظاهر الاختلاف فيهما في الأفكار ، فقد بدأ ضرار قصيدته بوصف جيش المشركين بقوة عدده وعتاده ، بينما بدأها كعب بن مالك ﷺ بأن القوة في جيش المسلمين ترجع إلى إيمانهم وإخلاصهم لله عز وجل ولنبيهم ، وصبرهم على مواصلة القتال ، واختلفت أيضا نظرة الشاعرين إلى الخندق ، فرأى ضرار بأنه هو السبب في انتصار المسلمين والحفاظ على جيشهم ، بينما يرى كعب بن مالك ﷺ بأن سبب النصر ليس الخندق ؛ فهو لا يقل عن عددهم وعتادهم وسلاحهم وإنما النصر الحقيقي من عند الله عز وجل حين أرسل عليهم جنوداً لم يروها وعواصف من الرياح والأمطار والرمال ، واختلفت نظرة الشاعرين إلى سعد بن معاذ ﷺ فنظر إليه ضرار على أنها مصيبة وكارثة على جيش المسلمين تباكت عليه النساء ، بينما نظرة المسلمين تختلف عن ذلك ، فقد استشهد سعد بطلا من أبطال الإسلام جزاؤه عند ربه جنات النعيم ، بينما المشرك جزاؤه جهنم وبئس القرار ، واختلفت التجربة الشعرية أيضا في القصيدتين ، فالتجربة عند ضرار تستمد عناصرها من مقومات الحياة الجاهلية ومن الشرك والوثنية والعادات والتقاليد الجاهلية ، بينما تجربة كعب ﷺ تنطلق من وجدان المسلم العامر بالإيمان والعقيدة الصادقة التي يتسلح بها جيش المسلمين صابرين محطمين التقاليد الجاهلية وعاداتها فيحاربوا الشرك والأوثان ؛ لذلك غلبت على القصيدة الأولى الوثنية الجاهلية ، وعلى الثانية الروح الإسلامية والإيمان بالله وحده لا شريك له .

القيم الخلقية في خطاب قصيدة كعب بن مالك رضي الله عنه :

١ - من القيم الإسلامية في القصيدة التي يتسلح بها المجاهد في سبيل الله عز وجل الصبر على القتال في مواجهة أعداء الإسلام ، والاعتصام بالله وحده والتوكل عليه لا على كثرة العدد ولا العتاد والسلاح ، ولا على القوة والمهارة والخطط فحسب ، فهذه بعض أسباب النصر ، لكن سبب الأسباب والأساس الأول فيها هو الصبر والتوكل على الله وحده ، لا الجزع والتواكل ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ آل عمران : ٢٠٠ ، وقال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ آل عمران : ١٤٢ ، وقوله تعالى : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ آل عمران : ١٢٢ ، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه :

وسائلة تسائل ما لقينا ولو شهدت رأتنا صابرينا

صبرنا لا نرى لله عدلا على ما نابنا متوكلينا

٢ - النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى للمسلمين في الصبر على القتال والتوكل على الله ، والصدق في القول والعمل والإيمان ، ومن اجتمعت له هذه الصفات ؛ فقد اكتملت له صفات القيادة ، وإذا انضمت لها صفة النبوة والرسالة أصبح النصر حليفها ؛ لأن الله عز وجل لا يخذل نبيه ، بل ينصره نصرا مؤزرا : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ غافر : ٥١ ، ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ الأحزاب : ٢١ ، يقول كعب رضي الله عنه :

وكان لنا النبي وزير صدق به نعلو البرية أجمعينا

٣ - الإسلام يحث المسلمين على قتال أعدائهم الذين ظلموا واعتدوا وأنكروا الحق سبحانه ، وأشركوا به ، وهو أكبر العقوق ، لأنه الخالق وإليه يرجع الفضل كله ، وأنكروا الرسالة والرسول فعقوه أيضا ؛ لأنه رحمة مهداة للعالمين ونعمة مسداة ، وإنكارها من أكبر العقوق : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ النساء : ٨٠ ، وقال تعالى : ﴿ فمن اعتدى

عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ البقرة : ١٩٤ ، ﴿ وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ التوبة : ١٢ ، وغيرها من الآيات ، يقول كعب بن مالك ﷺ :

نقاتل معشرا ظلموا وعقوا وكانوا بالعداوة مرصدينا

٤ - يجب على المسلمين في جهادهم أن يتخذوا الأسباب ، ويحكموا خطة القتال ، ويوفروا السلاح والعتاد ، وأن يعد الجند أنفسهم من التدريب وإحسان الرمي بالسهام والضرب بالسيف وركوب الخيل وغير ذلك من وسائل الاستعداد للجهاد ، قال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ ، ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ النساء : ١٠٢ ، والأحاديث الشريفة : « علموا أولادكم الرماية وركوب الخيل ... » ، وغيرها من الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة ، قال كعب بن مالك ﷺ :

نعاجلهم إذا نهضوا إلينا بضرب يعجل المتسرعينا

إلى نهاية قوله :

فوارسنا إذا بكروا وراحوا على الأعداء شوسا معلمينا

٥ - نصرة الرسول ﷺ والجهاد في سبيل الله واجب مقدس على المسلمين ، فهو الإيمان الحق والإخلاص فيه ، فليس الإيمان بالقول فقط ، بل بالعمل والجهاد مصداقا لقوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم ۝ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ الحجرات : ١٤ ، ١٥ ، قال كعب بن مالك ﷺ :

لننصر أحمدا والله حتى نكون عباد صدق مخلصينا

٦ - إن أعظم القيم الإسلامية وأساسها هو الإيمان بالله وحده لا شريك له وأنه نعم المولى ونعم النصير ، لقد هزم الله وحده الأحزاب ؛ لأنهم مشركون بالله سبحانه ، اختلفت أحزابهم في الشرك ، كل حزب يعبد صنما يختلف في اسمه عن الآخر ، قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ آل عمران : ١٠٣ ، وقال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴿٣٩﴾ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ الأنفال : ٣٩ ، ٤٠ ، وقول الرسول ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم » ، قال كعب بن مالك رضي الله عنه :

ويعلم أهل مكة حين ساروا وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك وأن الله مولى المؤمنينا

٧ - لا يقبل الإسلام الغدر ولا الخديعة ، بل يحث على المواجهة والإعلام قبل الصراع في ساحة القتال والمبارزة فيها ؛ ليستعد كل واحد أمام الآخر ؛ لذلك كان قتل سعد بن معاذ رضي الله عنه غدراً لا شجاعة وشهامة ومروءة ونبلا ، ومع ذلك فهو ليس قتيلا جزاؤه جهنم مثل قتيل المشركين ، بل هو شهيد في جنات النعيم أعدها الله سبحانه وتعالى للشهداء والصالحين : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ النساء : ٦٩ ، ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ النساء : ٧٤ ، قال كعب بن مالك رضي الله عنه :

فإن تقتلوا سعدا سفاها فإن الله خير القادرينا
سيدخله جنانا طيبات تكون مقامة للصالحينا

٨ - نصر الله سبحانه وتعالى وحده المسلمين على الأحزاب في غزوة الخندق ، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ ؛ فأرسل عليهم جنودا متنوعة ؛ فارتد أعداء الله خزايا خاسرين ، وماتوا بغيظهم فلم ينالوا خيرا ، وقد صور القرآن

الكريم ذلك في سورة الأحزاب بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً ﴾ الأحزاب : ٩ - ٢٥ ، قال كعب بن مالك ﷺ :

كما قد ردكم فلاّ شريدا … بغيظكموا خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيرا … وكدتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبت عليكم … فكنتم تحتها متكمهينا

القيم الفنية في خطاب قصيدة كعب بن مالك ﷺ :

ظهر أثر القرآن الكريم وسماحة الإسلام في ألفاظ القصيدة وأساليبها وصورها الأدبية ؛ فإذا أردت أن توازن بين القصيدتين لوجدت البون شاسعا وهذا يؤكد أن الإسلام أحدث تأثيرا كبيرا في الشعر على الرغم من قصر المدة وانصراف الشعراء عن الشعر إلى حفظ القرآن والاهتمام به والدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيل الله عز وجل ، فتشعر بحلاوة الألفاظ وعذوبتها وسلاسة الأسلوب وسهولته ووضوح التراكيب والصور الأدبية المستمدة من الحقيقة والخيال والإيقاع والموسيقى .

استفتح الشاعر القصيدة بمطلع يثير الانتباه فتخيل حواراً دار بينه وبين أخريات من النساء لا الرجال ؛ لأنهن هن اللاتي يسألن لملازمتهن لبيوتهن بينما الرجال لا يقع منهم التساؤل ؛ لأنهم مشتركون مع الشاعر في المعركة ، وهذا الحوار يشد انتباه المتلقي ، ويحرك مشاعره وأشجانه ، وبين « التساؤل والشهود » طباق ، ثم تأمل تصوير المعاناة في القتال لا بالصبر وإنما بصيغة المفاعلة « صابرينا » للدلالة على الصراع النفسي في الرباط والمثابرة ودوام التحمل ، ثم التجسيم في قوله : « نرى عدلا » حين جسم العدل محساً يرى بالعين ، ثم ما يفيده الجار والمجرور « لنا النبي وزير صدق » ليصور مدى اهتمام الإسلام والنبي بالمسلمين فقد بعثه الله رحمة للعالمين ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، فكانوا به أفضل الخلق وخير أمة أخرجت للناس . كانت هذه الصور الأدبية الرائعة نابعة من القصر بتقديم خبر كان « لنا » على اسمها : « وزير صدق » مستمدا ذلك من قوله

تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ الحج : ٧٨ .

ثم تلك الصور الأدبية النابعة من صيغة المفاعلة التي تدل على عنف الصراع والقتال في قوله « نقاتل معشرا » ، وكذلك الأمر في صيغة المفاعلة في قوله « نعاجلهم » ، ثم تشبيه جند الإسلام في الدروع السابغات بغدران المياه الصافية الرقراقة ؛ فهي شفافة لامعة بيضاء ، تملأ قلوبهم بردا وسلاما واطمئنانا كالماء العذب الرقراق ، مما يدل على ثقتهم من النصر وقوة إيمانهم بربهم الذي وعدهم إياه بنصر من عنده سبحانه ، كما صور السيوف بأنها خفيفة رقيقة مما يدل على جودة معدنها الأصيل ، فهو صاف أبيض ، وعلى دقة صنعها ، وأنها لقوة إيمانهم أصبحت في أيديهم خفيفة لا يشعرون بثقل فيها ، فلا يبذلون معاناة كثيرة لخفتها وجودتها وقوة إيمانهم ، إنها صورة أدبية جديدة تختلف عن صورة ضرار ابن الخطاب المألوفة في الشعر الجاهلي ، فهي عندهم صارمات مرهفات .

والاستعارة في قوله : « نشفى مراح الشاغبينا » حيث شبه الانتصار على العدو بشفاء النفس من ألم ومرض ألمّ بها ، والمجاز المرسل في مراح والمراد النشاط والقتال ، والعلاقة المحلية ؛ لأن المراح اسم مكان يكون محل النشاط والقتال . ثم التشبيه في قوله : « بباب الخندقين كأن أسداً .. » ، فقد صور جند الله وهم يحرسون منافذ الخندق وأبوابه بالأسود ، فهم يدافعون عن الإسلام كما يدافع الأسد عن عرينه ، والاستعارة في قوله « الأسود يحمين العرينا » ، ثم الطباق بين « بكروا وراحوا » ، وما تدل عليه « إذا » من اليقين والحقيقة لا الشك والتردد ، مما يصور جند الله عز وجل يقاتلون في كل حين بلا شك وعلى سبيل اليقين لتحقيق النصر .

ثم الاقتباس في قوله : « لننصر أحمدا والله » من قوله تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ۝ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدرهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾

الحشر : ٨ ، ٩ ، ومن قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ الأنفال : ٧٢ - ٧٤ وكذلك في قول الشاعر « نكون عباد صدق مخلصينا » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ، وقول الشاعر : « وأحزاب أتوا متحزبينا » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ الأحزاب : ٢٠ - ٢٢ .

وقول الشاعر ﷺ « بأن الله ليس له شريك » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ۝ قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ﴾ الأنعام : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، وقول كعب ﷺ : « وأن الله مولى المؤمنين » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ الأنفال : ٤٠ ، وقوله : « وإن تقتلوا سعداً سفاها » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ الأنفال : ٥٨ ، وقوله : « سيدخله جنانا .. » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ۝ فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۝ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ آل عمران : ١٦٩ - ١٧١ ، وكذلك قوله : « وردكم فلا شريدا بغيظكم .. إلخ » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴾ الأحزاب : ٢٥ وقوله : « بريح عاصف هبت عليكم » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليها ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ الأحزاب : ٩ ، وهذه هي روافد التصوير الأدبي في القصيدة .

أما عناصر التصوير الأدبي : نجد الحركة في صيغ المفاعلة وفي أفعال المضارعة ، وهي كثيرة « نعلو - نقاتل - نعاجل - نشفي .. إلخ » ، ثم حركات المقاتل في درعه وبسيفه وغيرها ، والألوان الحسية مثل ألوان الدروع والسيف والدماء وغيرها ، والمعنوية مثل ألوان الصبر والتقى والإخلاص والصدق والشهادة والجنة والظلم والغدر وغيرها ، وهي نفسها تجري عليها الروائح والطعوم المعنوية فطعمها حلو ممتع ، ورائحتها طيبة فواحة ، ثم أصوات القتال والرياح والعواصف والضرب والتساؤل وغيرها ، ثم حجم الهزيمة للأحزاب فظيع ، وشكله قميئ مقزز ، وحجم نصر الله عز وجل لا يقدر ولا يوزن ، بل هو فوق كل تقدير وكل الموازين ، وشكله يملأ الدنيا كلها ، وينتشر في كل المواقع ، فقد أخزاهم الله عز وجل ورد كيدهم ولم ينالوا خيرا .

وأما المعجم الشعري في هذه القصيدة : فقد أثر الإسلام والقرآن الكريم في ذلك تأثيرا كبيرا ؛ فتأمل تلك الآيات التي اقتبسها الشاعر في كل فقرة وشطر وبيت ، فلا تخلو من كلمات أخذت مصطلحا جديدا ، غذاها القرآن الكريم وعمقها الإسلام ، وأعطى لها من المعاني ما لم يكن موجودا لها في المعنى الوضعي لها عند العرب في الجاهلية ، كما في مصطلحات الصبر والشهادة ، والإيمان ، والكفر ، والشرك ، والعدل ، والتوكل ، ووزير صدق والتقي ، والظلم ، والعقوق ، والخندق ، والنصر ، وعباد الله ، والأحزاب ، ومولى المؤمنين ، وسفاها ، وغدرا ، والجنة ، والطيبات ، والصالحين ، والخيبة ، والخزي .. وهكذا فقد أعطى القرآن الكريم والإسلام معاني جديدة لم تكن لها من قبل عند العرب في الجاهلية ، حتى صارت بذلك ذات مصطلح لغوي جديد ، تشكل معجما شعريا جديداً في الأدب الإسلامي وشعره ، ثم تأمل الآيات الكريمات التي اقتبس منها الشاعر معانيه وأفكاره وألفاظه وأسلوبه وصوره ، فقد أثرت حقل معجمه الشعري ثراء كبيرا وعميقا .

* * *

نقيضة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ومن شعر النقائض هذه النقيضة للإمام علي رضي الله عنه أمير المؤمنين والخليفة الراشد يذكر فيها إجلاء بني النضير حين قتل منهم كعب بن الأشرف ، يقول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عرفتُ ومن يَعْتدل يعترفْ وأيقنتُ حقاً ولم أصدف
رسائلُ تدرسُ في المؤمنين بهنَّ اصْطفى أحمدَ المُصْطَفَى
فأصبَحَ أحمدُ فينا عزيزاً عزيزَ المقامةِ والموقف
ألستم تخافون أمر العذاب وما آمن الله كالأخوَف
وأن تُصْرَعُوا تحت أسيافنا كمصرع كعب بن الأشرف
غداةَ تراءى لطُغْيانه وأعرَضَ كالجملِ الأجْنف
فأنزل جبْريلَ في قتلَه بوحي إلى عبده الملطف
فدسَّ الرسولُ رسولاً له بأبيضَ ذي ظبة مُرهَف
فبانت عيونٌ لها مُعْولات متى يُنعَ كعبٌ لها تُذْرَف
فقالوا لأحمدَ ذَرْنَا قليلاً فإنا من النوح لم نشتف
فأجْلاهُمُو ثم قال اظعنُوا فنوحاً على رغمة الآنف
وأجْلي النضير إلى غُرْبَة وكانوا بدارة ذِي زُخْرُف
إلى أذرعات ردافا همو على كل ذي دبر أعجف [(١)]

فرد عليه سماك اليهودي قائلا في مطلعها [(٢)] :

إن تفخروا فهو فخر لكم بمقتل كعب أبي الأشرف

وهناك أغراض أخرى في الأدب الإسلامي في عصر صدر الإسلام مثل : « شعر الغزوات » ، و« شعر الفتوح » ، و« شعر الحكمة والمواعظ » ، وغيرها من الأغراض في الشعر الإسلامي .

---

(١) ديوان علي ابن أبي طالب : تحقيق عبد العزيز الكرم ، وفي سيرة ابن هشام ٢/٦٨٧ .
(٢) البداية والنهاية : ٣/٧٩ .

شعر الغزوات

تناول شعراء الرسول ﷺ رضي الله عنهم الغزوات في شعرهم يحثون المسلمين على الاستعداد للجهاد لتحقيق النصر ، ويسجلون بطولاتهم وانتصاراتهم ومنزلتهم عند رسولهم ، وجزاءهم عند ربهم ، فيصورون وقائعهم مع الكفار ويرثون شهداء الإسلام ، ويهونون من هول الإصابة فيها ، ويهددون الكفار ويتوعدونهم بالقتل والهلاك والانتصار عليهم ، وأن الكفر قد ولى بنور الإسلام الذي انتشر في كل البقاع ، وأشرق على الوجود كله ، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه في غزوة « بدر » الكبرى :

وخبِّر بالذي لا عيبَ فيه ... بصدق غيْرَ أخبار الكذوب

بما صنع المليكُ غداةَ بَدْرٍ ... لَنَا في المُشركين من النَّصيب

غداة كأنّ جمعهم حراءٌ ... بَدَتْ أركانُه جُنْحَ الغيوب

فوافيْناه منَّا بجَمْعٍ ... كأُسْد الغاب مُردَانٌ وشيب

بَنُو الأوْس الغطارفَ آزرتها ... بنوُ النجار في الدين الصليب

بأيديهم صوارمُ مُرْهَفَاتُ ... وكل مُجرّب حاظى الكعوب

أمام محمد قدْ آزَرُوه ... على الأعداء في لفْحِ الحروب

فغادرنا أبا جهل صريعاً ... وعتبةَ قد تركْنا في الجُيوب

وشيبة قد تركنا في رجال ... ذوي حَسَب إذا نسبوا نسيب

يناديهم رسولُ الله لما ... قذفناهم كَبَاكِبَ في القليب

ألم تجدوا حديثاً كان حقا ؟ ... وأمر الله يأخذُ بالقلوب

فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ... صدقت ، وكنت ذا رأي مصيب [1]

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٧١/٢ .

شعر الفتوحات الإسلامية

يقول عاصم بن عمر التميمي في معركة « نهاوند » بفارس ، التي قتل فيها « يزدجرد بن شهريار » كسرى الفرس ، ورستم قائدهم ، وقد فرّ « البيرزان » تاركا كتيبته خزياً وعاراً ، يقول الشاعر :

جلبنا الخيلَ من أكنافِ نيق ... إلى كسرى فوافقها رجالا
تركنا لهم على الأقسام شجواً ... وبالحنوين أياما طوالا
وداعية بفارسَ قد تركنا ... تبكي كلما رأت الهلال
قتلنا « رستما » وبنيه قَسْراً ... تثير الخيل فوقهم الرمالا
وفر « البيرزان » ولم يحام ... وكان على كتيبته وبالا
تركنا منهم حيث التقينا ... فئامٌ ها يريدون ارتحالا
ونجا « الهرمزان » حذار نفس ... وركض الخيل موصلة رجالا

ويصور عروة بن زيد الخيل انتصار المسلمين في القادسية ، وبلاءه في ذلك بلاء حسنا ، وقتاله المرير ، فما ترك الميدان إلا بعد هزيمتهم في « الديلميين » بعد أن تلطخت بالدم قمصان المحاربين ، وتكسرت دروعهم الفولاذية ، يقول [1] :

برزْت لأهل القادسية معلما ... وما كل من يغشى الكريهة يعلم
ويوما بأكناف النَّخيلة قبْله ... شهدتُ فلم أبرحْ أُدْمَى وأكلَم
وأَرْدَيْتُ منهم فارساً بَعْدَ فارسٍ ... وما كلُّ مَنْ يَلْقَى الفوارسَ يسلم
وأيْقَنَّ يومَ « الديلميين » أنني ... متى ينصرف وجهي عن القومِ يُهْزَمُوا
فما رمتُ حتى مزّقُوا بِرِمَاحهم ... قبائي وحتى بلّ أقْمُصي الدَّمُ
محافظة أني امرؤ ذو حفيظةٍ ... إذا لم أجَدْ مستأخراً أتقدَّم

* * *

(١) شعراء إسلاميون : نوري حمود القيس ، عالم الكتب ـ لبنان ، النهضة العربية ص ١٣٢ .

شعر المواعظ والحكم

اشتهر شعراء الرسول ﷺ بشعر الحكمة والموعظة الحسنة متأثرين بالقرآن الكريم والحديث الشريف تأثرا كبيرا وسريعا ، وظهر قويا في خصائصه الخلقية والفنية ، وأضحت السمات الإسلامية بارزة فيه ، ومن هؤلاء الشعراء حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن زهير ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، والنمر بن تولب ، والنابغة الجعدي رضي الله عنهم جميعا يقول الجعدي [1] :

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليلَ في النهار وفي اللّيـ ... ـلِ نهاراً يفرجُ الظُّلَمَا
الخافض الرافع السماء علـ ... ـى الأرض ولم يُبْنَ تحتها دُعُمَا
من نطفة قدَّها فقدَّرَها ... يخلق منها الأبشار والنَّسما
ثُمَّ عِظاماً أقامها عَصَباً ... ثمت لحماً كساها فالتأما
ثم كسا الرأسَ والعَـ ... ـوَاتِقَ أبْشاراً وجلداً تخالُه أُدما
والصوت واللون والمعـ ... ـايش والأخلاق شتى وفرق الكلما
ثُمت لا بُدَّ أن سيجمعكم ... والله جهراً شهادةً قسما .. إلخ

ومن شعر لبيد رضي الله عنه في الحكمة والموعظة الحسنة قوله :

ولقد سئمْتُ من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟
غلب الرجال وكان غير مغلب ... دهرٌ طويلٌ دائمٌ محدود
يوماً أرى يأتي عليَّ وليلةٌ ... وكلاهما بعد المضاء يعود
وأراه يأتي مثل يوم لقيتُه ... لم ينتقص وضعفت وهو يزيد

وقوله رضي الله عنه :

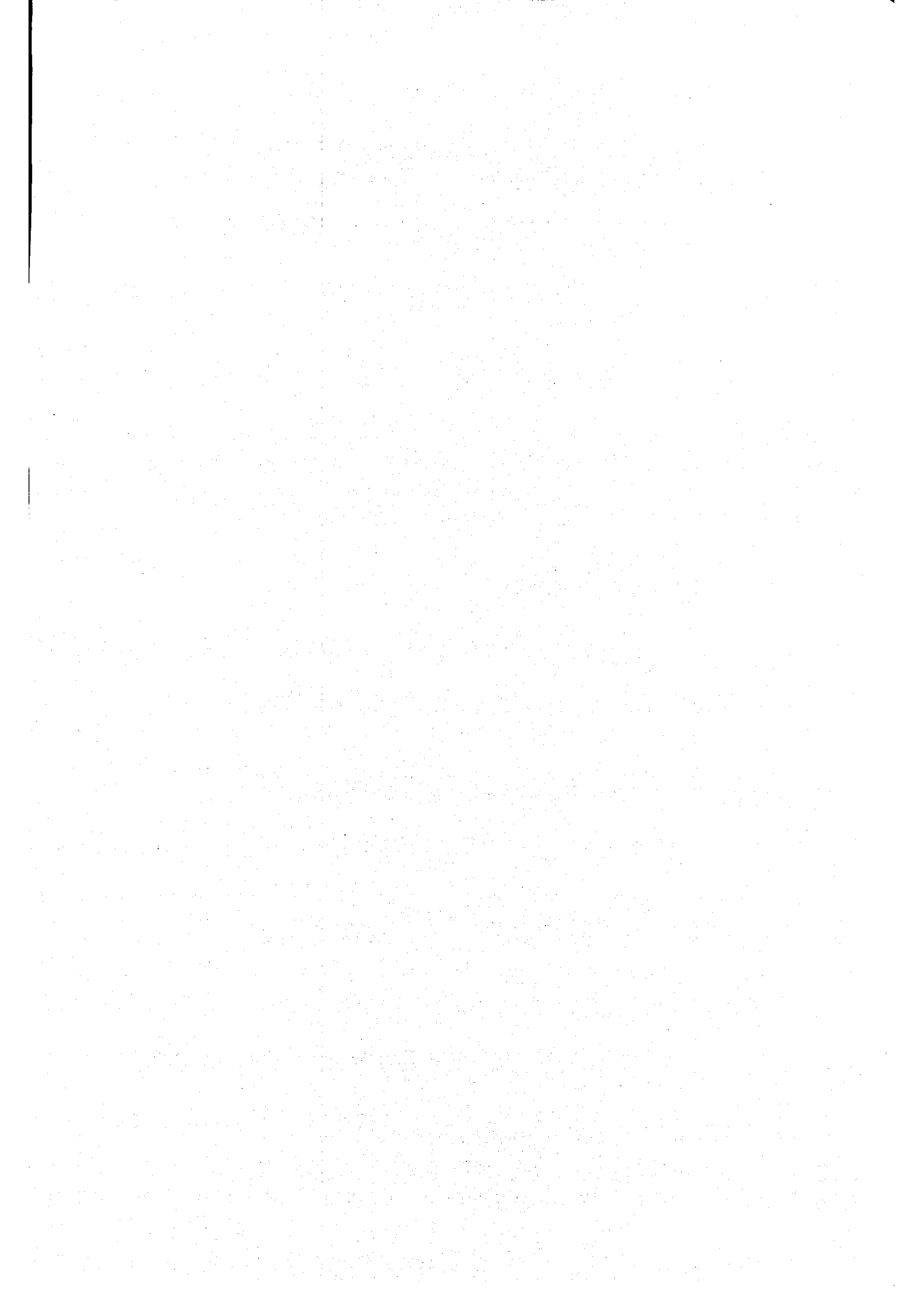
بلينا وما تُبْلى النُّجوم الطوالعُ ... وتبقَى الجبَالُ بعْدَنَا والمصانعُ
فلا جزعٌ إن فرَّقَ الدهرُ بيننا ... وكل فتىً يوماً به الدهرُ فاجع

---

(١) أسلم في عام الوفود مع بني كلاب ، وتوفي في خلافة معاوية عن أكثر من ثلاثين ومائة عام . انظر : الإصابة في معرفة الصحابة ٦٧٨/ ٥ ، وسيرة ابن هشام ٣٧/ ٤ ، وغيرهما .

وَمَا المرْءُ إلاَّ كـالـشِّهـاب وَضَوْئه يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هـو سـاطـع
ومـا المالُ والأهْلـون إلاَّ وديعـةٌ ولا بُدَّ يـوْمـاً أنْ تُرَدَّ الـودائـع
رأيْتُ التُّقى والجُودَ خَيْرَ تجـارةٍ رباحـاً إذَا المرْءُ أصـبَح ثاقِلا

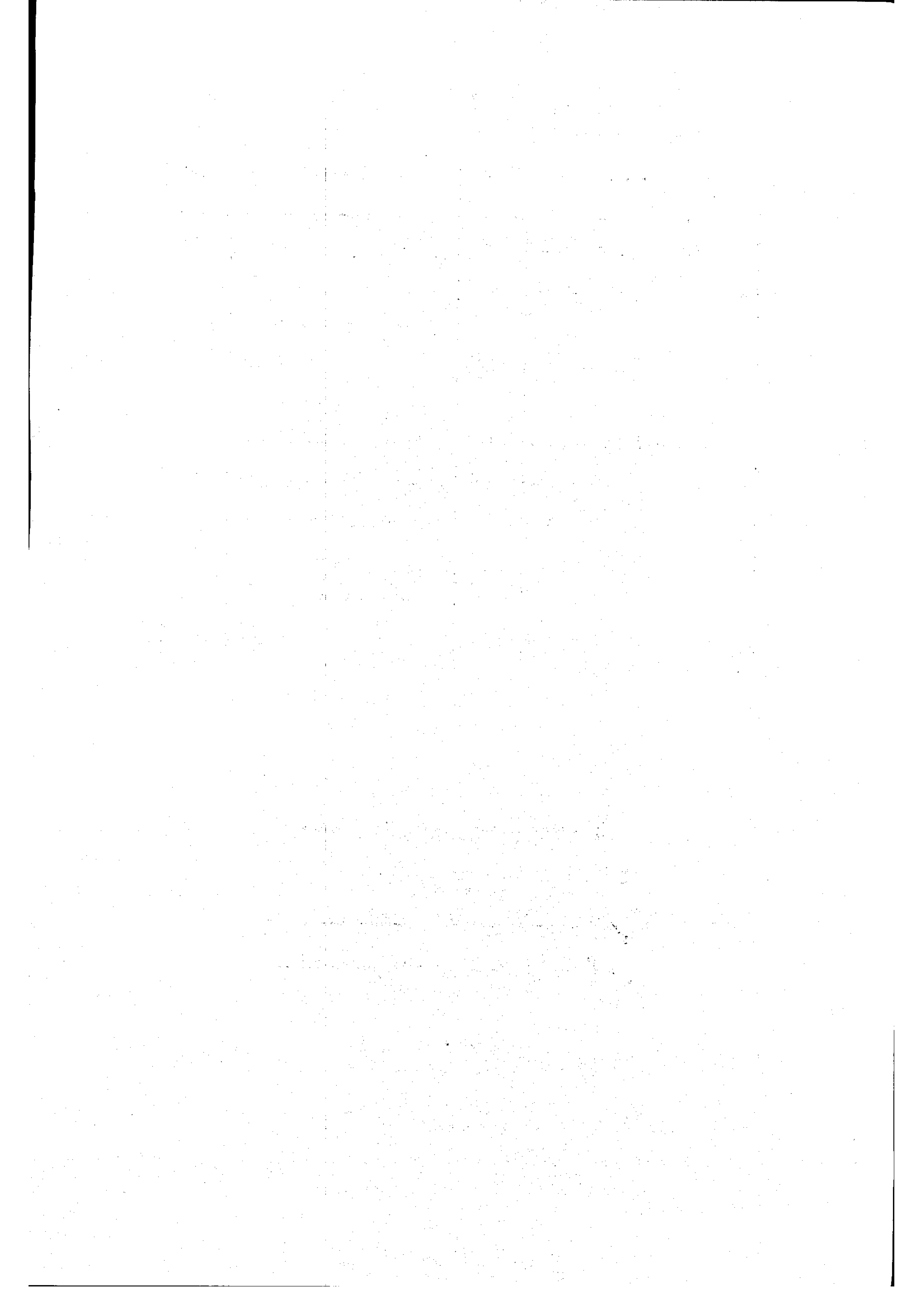
* * *



ثبت موضوعات الجزء الأول

تم بحمد الله عز وجل وحده الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني في المصدر الثالث
من مصادر الأدب الإسلامي
امتداداً لموضوعاته في الشعر والنثر الفني

* * *



رقم الإيداع بدار الكتب
٩٨/٥٣٥٦

I.S.B.N
977 - 19 - 5934 - 4



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير
ت : ٥٢٣٧٢٤٩ / ٥٢٣٧٢٥٠ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة

